

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني يقول في خطاب ثورة الملك والشعب المجيدة:

- ما من بقعة من وطننا إلا ورويت بدم الشهداء.

ملامح من شخصية **محمد الأول**

للدكتور محمد بن شريفة

شرح الإكسير في علم التكسير

لأبي عبد الله ابن القاضي

تقديم وتحقيق: الأستاذ محمد العربي الخطابي

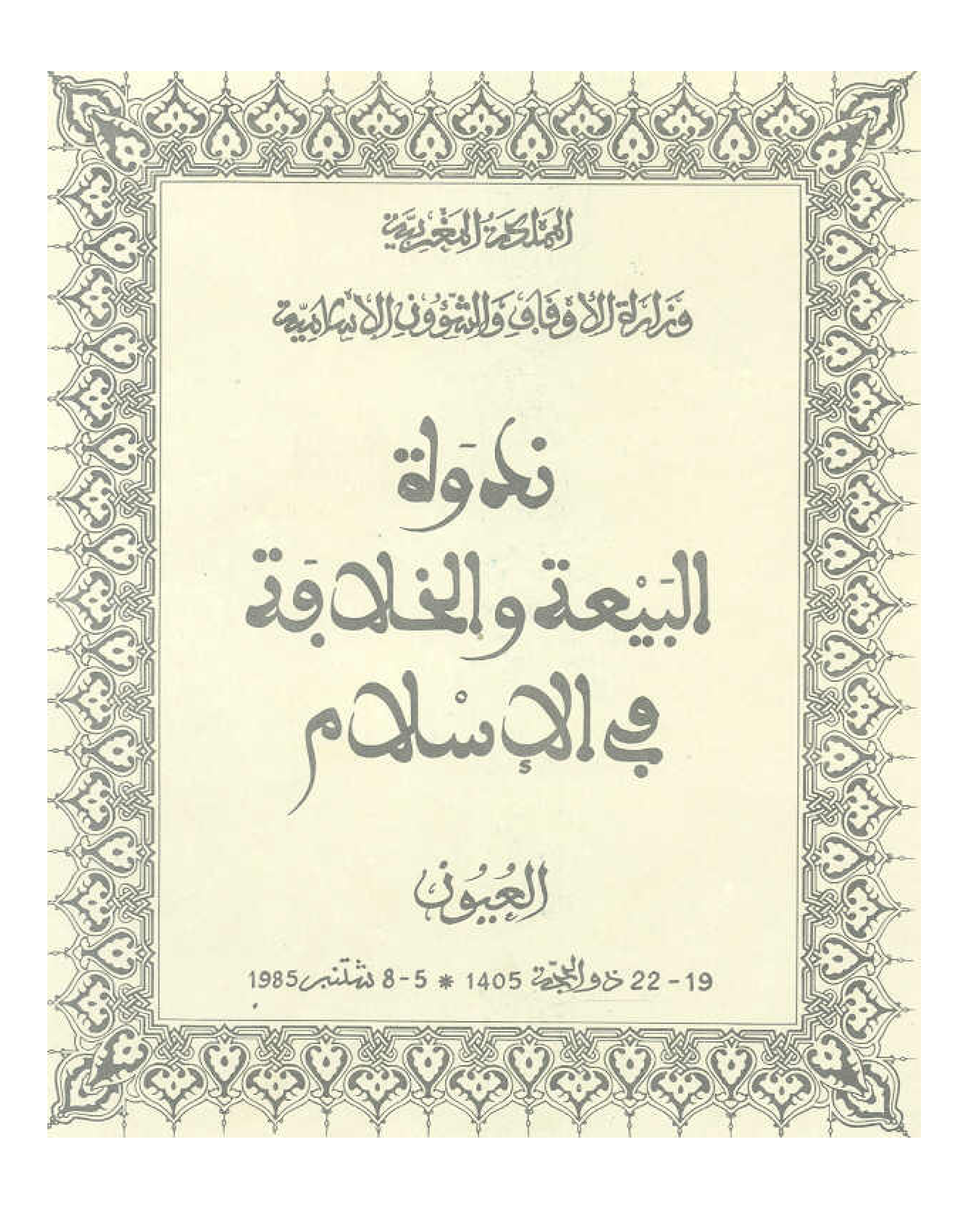
مواقف جهادية للمولى الرشيد والمولى إسماعيل في الدفاع عن مليلة

للأستاذ حسن الفكيكي

الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا

للدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش

العدد 258 ذو الحجة 1406 / غشت 1986



المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

ندوة

البيعة والخلافة في الإسلام

العيون

19 - 22 ذو الحجة 1405 * 5 - 8 شتنبر 1985



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957 م

التحرير:
الهاتف: 623.60

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485 . الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 258

أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني يقول في خطاب عيد الشباب :

ابق - شعبي العزيز - رعاك الله وحفظك - متشبثاً بدينك وسنتك.

احتفلت الأمة المغربية بالذكرى السابعة والخمسين لميلاد أمير المؤمنين سبط النبوة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، وبهذه المناسبة الكريمة وجه أمير المؤمنين إلى الأمة خطاباً سامياً.
وفيما يلي نص هذا الخطاب السامي :

الحمد لله
والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه.

شعبي العزيز :

مرة أخرى نحتفل بذكرى عيد الشباب، هذه الذكرى التي ستبقى دائمة معانيها ورموزها، لاصقة بك وبعبقريتك، ذلك أنه من ميزات الشباب التجدد المستمر، وفعلا أظهرت لي ولنفسك ولأصدقائك وأحبائك وللعالم بأسره أنك شعب قادر على أن تجدد نفسك كلما طلب منك التجدد، وأنك قادر على أن تجند نفسك كلما دعيت إلى التجنيد، وأنك قادر على أن تصمد كلما دعيت إلى الصمود، وأنك وقبل كل شيء قادر على أن تختزن الآمال والأماني كلما طلبت الضرورة ذلك.

من ميزات الشباب التجدد المستمر

وما هذه الخصال التي عددتها أمامك اليوم، والتي حلاك الله بها سبحانه وتعالى إلا الخصال المعرفة للشباب. وكما قلت لك التي هي ونوعية الشباب خصال لاتفترقان من النوعية.

ألفنا شعبي العزيز في هذه المناسبة كل سنة أن نتطرق إلى حديث، أو أحاديث، وإلى مواضيع تهمنا إما ظرفيا وإما للسنة التي سنستقبلها.

ها نحن شعبي العزيز دخلنا المرحلة الصيفية، فمن كان في المدرسة والكلية أخذ عطلته، ومن كان موظفا أو مشغلا ها هو يأمل أن يأخذ قسطه من الراحة.

واعلم أن مذهبك وسنّة نبيّك ودين ربّك: كل هذا يكون لك إطارا وثيرا عش فيه وتربّع عليه ولا تخف في لحظة من أيّ شيء كان.

الطبقة الفلاحية لا تعرف الراحة

إلا أن هناك طبقة لاتعرف الراحة في مثل هذا الموسم ألا وهي الطبقة الفلاحية، تلك الطبقة التي تحبنا ونحبها، تلك الطبقة التي تكون أغلبية شعبنا، تلك الطبقة التي دعوناها في مثل هذا الموسم من السنة المنصرمة لتهيء نفسها للموسم الفلاحي المقبل، تلك الطبقة التي تحملت وصبرت، تلك الطبقة التي منذ أربعة أعوام، وهي ثابتة صامدة، تأمل من الله خيره، وتنتظر منه مطره فما وهنت ولا ضعفت ولكن بالعكس تلك السنين العجاف ما زادتها إلا إيمانا وقوة وارتباطا بأرضها.

وقلنا لتلك الطبقة في السنة الماضية عليك ألا تنسي موسم الصيف، واعلمي أن موسم الصيف هو المهم بالنسبة إليك إذا أردت أن تنتجي ما نحن في حاجة إليه.

وقامت الطبقة الفلاحية بمعونة جميع أعضائها الصغير والكبير، وشمرت على سواعدها وخدمت أرضها، وانتظرت خير الله وبركاته، وما إن دخلنا في موسم اكتوبر إلا ويمن الله سبحانه وتعالى علينا بنعمه شهرا بعد شهر، أسبوعا بعد أسبوع، دون قلة ودون كثرة، حتى أتانا سبحانه وتعالى الخير الذي نشاهده ونراه، والخير الذي يجعلنا نطمئن على هذه السنة.

الموسم الفلاحي الحالي ضرب رقما قياسيا

فعلا شعبي العزيز لم نر في أي سنة من السنوات موسما فلاحيا كهذا، فقد ضرب المغرب الرقم القياسي، ووصلنا تقريبا إلى الاكتفاء الذاتي، والشيء الذي حصدناه ليس بينه وبين الاكتفاء الذاتي إلا عشرة في المائة، أو بعبارة أوضح أنتجنا تقريبا 90 في المائة من اكتفائنا الذاتي، نحن ثلاثة وعشرون مليونا.

وقد كنت طلبت منكم أن تقوموا بمجهود استثنائي.

لنقم جميعا بنفس المجهود في الموسم الفلاحي المقبل

وها أنتم أظهرتم للجميع أنكم قادرون على المجهود الذي طلبته منكم، فهلموا بنا جميعا لنقوم بنفس المجهود في الموسم المقبل في هذه الشهور الصيفية، علما منا ويقينا وإيمانا بأن الله سبحانه وتعالى سوف يمطرنا كما أمطرنا السنة الماضية، وإننا سنصل إلى أرقام قياسية أخرى تجعلنا في مأمن من الالتجاء إلى الخارج.

هناك أزمة في كثرة القمح في العالم

هناك شعبي العزيز ـ وقلت لك في مستهل الحديث أنك دائما متجند وأنك دائما قابل للحوار وأنك دائما مستعد للجد والكد ـ هناك شعبي العزيز شيء لا أفهمه، لأنه فيه نوع من التضارب، ذلك أننا إذا كانت السنة غير جيدة نؤدي مئات الملايير، وإذا كانت السنة جيدة نؤدي كذلك الملايير، وهذا تناقض لا أفهمه نهائيا، ولا أظن أنني سأفهمه في يوم ما، ولا أظن أنك ستفهمه أنت كذلك، لماذا ؟، لأننا نعتبر أننا لسنا منطقيين مع أنفسنا فيما يخص اختياراتنا، فكما تعلمون هناك أزمة ليس في القلة بل أزمة في كثرة القمح في العالم، فالولايات المتحدة الأمريكية وحدها من جهة، وأوروبا من جهة أخرى تصرف مائة مليار دولار سنويا لتشجيع الفلاحين لديها على الإنتاج، لتشتري منهم القمح بثمنه الحقيقي، ثم تبيعه لدول العالم الثالث المحتاجة ولكن بسعر منخفض جدا، وهذا القمح هو الذي نشتريه نحن عندما نكون في حاجة إليه.

طيب، لسنا هذه السنة في حاجة إلى القمح، اللهم إلا كمية ضئيلة.

بقي لدينا هناك اختيار، هل سنستورد القمح من الخارج بسعر منخفض لأن أمريكا من جهة وأروبا من جهة تعوض الفلاحين لديها أو سوف نكتفي بقمحنا ولا نستورده من الخارج ؟

أظن شخصيا أن الاختيار هنا ليس مطروحا، لأننا بالطبع سوف نستهلك أولا القمح الذي ننتجه

سنستهلك القمح الذي ننتجه

ولماذا يجب علينا استهلاك القمح الذي ننتجه ؟

أولا لأن ذلك من باب المنطق.

وثانيا لأن استهلاكنا لقمحنا سيجعلنا نحتفظ بالعملة الصعبة.

وثالثا لأنه كلما أكلنا ما أنتجناه إلا وشجعنا الفلاح ليتمكن من أن يشتري تجهيزات أخرى، ويقتني إمكانيات أخرى، ويقوم بعمل مشجع ومؤمن.

كلما شجعنا الفلاح قلصنا من الهجرة إلى المدن

وأخيرا لأنه كلما شجعنا الفلاح إلا وقلصنا من الهجرة إلى المدن، فالفلاح الذي وهبه الله سعة في الرزق، والذي أدت له الدولة ثمنه، واستهلكت دولته وشعبه قمحه، وليس قمح الخارج، سوف لن يفكر ذلك الفلاح في أن يترك أرضه ويذهب إلى المدن، بالعكس سوف يزيده الله سعة في الرزق، وسوف يشتري جرارا إضافيا، وكل جرار إضافي يستلزم من يصلحه ويتعهده، وذاك الفلاح الذي كان يشغل مثلا عشرين عاملا سوف يشغل ثلاثين، وأحسن من هذا كله سنخلق الأمل في نفس الفلاحين لأنني أعرف فيهم من ينتج ما يكفيه السنة بأكملها، وليس الإنتاج الموجه للاكتفاء الذاتي للوطن حيث يتساءل مع نفسه : لماذا سأشتري جرارا آخر ؟ ولماذا أودي ثمن الفيول وأزيد السماد والحالة هاته أن إنتاجي من القمح يكفيني طيلة السنة ؟ إذن علي أن أحرث ما يلزمني فقط وأخزنه «في مطمورتي»، آكله أنا وأبيع لسكان الدوار، فلست نهائيا معلقا بالسوق الداخلية للدولة.

أظن هذا خطرا كبيرا، كون مواطن أصبح يردد أنني لست معنيا بالأمر، ويفقد طموحه بأن يثب وثبة إلى الأمام لأنه يلحظ أن قوتنا موجود، ولكننا نفضل عليه المستورد من الخارج لابد أن تنعدم فيه روح الكفاح وروح الإنتاج، وأبناؤه لن يشتغلوا معه، وسوف يضطرون للذهاب إلى المدن حيث نجدهم في المدن الكبرى أو الصغرى عاطلين يبحثون عن الشغل.

اختيار سيقربنا من الحقيقة الاقتصادية

فلهذا، شعبي العزيز، قررنا أن نتصف بالفضيلة وبالمنطق، فالسنة التي نحقق فيها الاكتفاء الذاتي علينا أن لا نستورد القمح من الخارج، وأما السنة التي نعاني فيها الخصاص فإن من باب المنطق أن لا أترك المواطنين بدون قمح، هذا الاختيار سيقربنا من الحقيقة الاقتصادية والتجارية اليومية لبلادنا، إن هذه الطبقة الفلاحية هي التي عليها نعتمد حقيقة شعبي العزيز، حيث لدينا الصيد البحري، ولدينا المناجم ولدينا الفواكه والخضر وكل شيء.

الفلاحة أساس مستقبلنا

ولكن أساسنا وأساس مستقبلنا هو الفلاحة، وحتى لو اكتشفنا غدا إمكانات الطاقة كالبترول وغيره سنحمد الله عليه، لأنه سيوفر لنا قبل كل شيء العملة الصعبة ولكن الأساس الاجتماعي والسياسي والاقتصادي هو الفلاحة، ولذلك يجب أن تبقى الفلاحة، فعلينا إذن نحن الذين نصبنا الله سبحانه وتعالى كساهر على مصالحك من باب النصيحة لك شعبي العزيز، أن نقول لك تشبث بفلاحتك، تشبث بالفلاح، لأن الفلاحة هي أساس كل ازدهار والفلاح عنصر من عناصر الاستقرار الذي لابد منه في كل مجتمع.

وها أننذا أهيب بجميع الفلاحين أن ينهضوا في هذا الصيف بمثل العمل الذي قاموا به في السنة الماضية موقنين بأن الله سبحانه وتعالى سيمطرنا، وذلك لأن في الحديث القدسي عن النبي ﷺ يقول الله : «أنا عند ظن عبدي بي إن كان خيرا فخيرا وإن كان شرا فشرا» فلنحسن الظن بالله ولن يرينا إن شاءالله إلا الخير والفضل.

دستورنا هو ما بين السطور

شعبي العزيز

هذا عيد الشباب وأنت كلك شباب، من شيوخك إلى أطفالك، فعلي أن أتوجه إليك بنصيحتي لكل طبقاتك والنصيحة هي الآتية :

إنك شعبي العزيز اخترت نظاما سياسيا واجتماعيا، اخترته منذ قرون، وحينما آن الأوان حاولنا جميعا أن نقتن هذا النظام وأن نسطره في دستور، علما منا أن هناك المنطوق من الدستور والمفهوم من الدستور، فدستورنا ليس فقط تلك الحروف السوداء المكتوبة على الورقة البيضاء، دستورنا هو ما بين السطور، وما بين السطور هو ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا وأسلافنا من عادات وتقاليد وأخلاق، فأنا مطمئن كل الاطمئنان على أن اختيارك هذا من باب التبعية سيجعلك لا

ترضى بأي نظام غيره كيفما كان من أراد أن يقهرك، وكيفما كان من أراد أن يغالبك، فلا خطر من هذه الناحية.

ولكن أين يكمن الخطر ؟ شعبي العزيز، الخطر يكمن حينما يفقد الشعب أو الأمة مقومات كرامتها، وكرامة كل أمة مبنية قبل كل شيء على الحرية.

كرامتك مبنية على الحرية

كرامتك شعبي العزيز، مبنية على الحرية بالنسبة لضميرك، إن الله أعطاك دينا وكتابا كريما شريفا وسنة نبوية، وإجماع الجماعة يجعلك دائما في اطمئنان وفي سلم مع نفسك، لاحيرة ولا تساؤل، فابق، شعبي العزيز، رعاك الله وحفظك، متشبثا بدينك وسنتك، أؤكد لك، وإياك وإياك أن تسمع إلى المشعوذين، أو أن تعير انتباهك للمفسدين، وهكذا شعبي العزيز، ستبقى في حرية بالنسبة لمعتقداتك، في حرية بالنسبة لضميرك، لاحيرة ولا تساؤل.

الخطر الثاني، شعبي العزيز، وهو أن تفقد كرامتك وذلك بتعاطيك لما يجعلك فاقد الشعور وفاقد المسؤولية، نعيش، شعبي العزيز، وشبابي العزيز، أزمة عالمية أمام ما يسمى بالمخدرات، تلك المخدرات التي تغزو الآن أوروبا وأمريكا وعدة قارات، ذلك العدو الذي يظن كل واحد منا أنه في مأمن منه، والحالة هاته، أنه يهدد كل من أراد الله أن يمتحنه هذا الامتحان القاسي، فإننا كل يوم نقرأ ونرى أنه حتى في المدارس الابتدائية عند الأطفال الذين لهم عشر سنوات دخل هذا العدو الفتاك لأنه عدو لا يرحم، عدو لا يفهم، عدو يحب الاستعباد، عدو يفقد الشخص كرامته وبالتالي حريته، ويفقد أخيرا شعبا كله مقوماته الخلقية، ومقوامته البدنية.

أردت لك أن تعيش في دار من زجاج

معلوم لو رأيت شيئا خطيراً في هذا المضار لقلته، ولكن الطبيب هو الذي يقول ويعمل بالوقاية قبل أن يصل إلى التداوي، وأنت، شعبي العزيز، وشبابي العزيز، أردت شخصيا أن تعيش لا في قفص من ذهب، بل أردت لك أن تعيش في دار من زجاج لها نوافذ من كل جهة، فجميع المجلات تدخل للمغرب، وجميع الإذاعات تسمع في المغرب، وحتى التلفزيون يمكن بواسطة TV 5 أن ترى هذا التلفزيون وذاك، وكاسيت الفيديو تدخل من جميع الأنواع، وأنت شبابي العزيز تخرج من بلدك عندما تريد، بدون تأشيرة ولا تصريح، وترجع إليها، وتظل في الخارج بالأسابيع والشهور والسنوات بل تدرس في الخارج، إذن أردت لك لا أن تعيش في قفص من ذهب، وهذه بعد الله هي إرادتي منذ أن اعتليت هذا العرش، أردت لك أن تعيش في بيت من زجاج فيه نوافذ كثيرة وأبواب مختلفة، فكن شعبي العزيز في مستوى هذه الحرية التي هي كنز لا يمكن أن نقيمه، ولو جمعنا خيرات الدنيا كلها الماضية والحاضرة والمستقبلية.

حافظ على كرامتك، شعبي العزيز، وعلى حريتك وعلى اطمئنان ضميرك من ناحية دينك ومعتقداتك، واعلم أن مذهبك وسنة نبيك ﷺ ودين ربك كل هذا يكون لك إطارا وثيرا عش فيه وتربع عليه، ولا تخف في ظله من أي شيء كان، لأن من تشبث بحبل الله نصره الله وأعانه.

هنيئا لك العيد الذي أنت عيده

ماذا أقول لك في الختام، شعبي العزيز ؟

أقول لك وأقول للشباب المغربي كما قال الشاعر :

هنيئا لك العيد الذي أنت عيده

وحتى نجسم هذا العيد في شبابنا الذين يتبارون ليرفعوا رأس المغرب ومن شأن المغرب، قررنا أن نحتفل غدا بثلة من الشباب سنستقبلهم كلنا، أنت، شعبي العزيز، وأنا لنكرم فيهم الشباب، ونشرف فيهم البطولات، وندعو لهم ولنا جميعا، الشيوخ والكهول والشباب والأطفال، أن يطيل الله سبحانه وتعالى شبابنا وأن يحفظنا في شبابنا وأن يديم علينا نعماء الاطمئنان وأن يديم علينا كذلك راحة الإيمان.

ونطلب الله كلنا جميعا ولنطلب، ولا تخف شعبي العزيز من الطلب لأن النبي ﷺ يقول دائما إن الله يحب العبد الملحاح، فلا تخف، اطلب منه ألف حاجة في اليوم وحتى في الدقيقة فكلما طلبت منه أعطاك فإننا نرجو الله سبحانه وتعالى أن يعطينا من خيراته المادية والمعنوية ما يجعلنا دائما شبابا في شباب مع شباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما ذلك عليه بعزيز.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني في خطابه السامي بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب المجيدة

- المغرب شجرة لا يزعزعها من أراد، لأن شجرة المغرب لها عروق طويلة وطويلة جداً في التاريخ والأمجاد.

بمناسبة الذكرى الثالثة والثلاثين لثورة الملك والشعب المجيدة، وجه أمير المؤمنين صاحب الجلالة الحسن الثاني خطابا ساميا إلى شعبه الوفي، وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي :

الحمد لله

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

شعبي العزيز :

منذ ربع قرن وأنا مطوق بالتحدث إليك عن ملحمة من ملاحم بلادك، ومفخرة من مفاخر تاريخك وأمجادك.

ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا قيل الكثير وكتب الكثير. وحاولت كل سنة أن أبحث أو أن أستنبط من حكمة وفلسفة ومشيئة ثورة الملك والشعب مبادىء ومقررات تجعل شبابنا على الأخص أولئك الذين ازدادوا ابتداء من سنة ألف وتسعمائة وخمس وأربعين الذين كان سنهم الثامنة حين وقع ما وقع أن أذكرهم لأن الذكرى تنفع المومنين.

ـ ما من بقعة من وطننا إلاّ ورويت بدم الشهداء.

وقد اخترت اليوم كفكرة أساسية لخطابي هذا فكرة الاستمرارية بالنسبة لما بعد وما قبل ثورة الملك والشعب.

حقيقة شعبي العزيز حينما يرجع القارىء إلى التاريخ القريب أو البعيد، قلما يجد شعبا وأمة ووطنا أرادوا أن يتشبثوا كل التشبث بتقاليدهم وعوائدهم، وبالأخص تلك التي عاشوا فيها قبل ثورتهم.

فقد رأينا أن كثيرا من البلاد والأوطان التي استرجعت استقلالها وسيادتها سرعان ما غيرت لون وشعار علمها، سرعان ما غيرت نشيد وطنها كأنها وهي خجلة من تلك المعالم.

◦ فترة الاستعمار كانت فترة تعليق

كأنها وسيادتها خرجت من معركتها منقوصة أو ملطخة، أما نحن ـ ولله الحمد ـ اعتبرنا أن فترة الاستعمار والحماية لم تكن فترة انقطاع، بل كانت فترة تعليق، وهناك فرق كبير من الناحية القانونية بين التعليق وبين الانقطاع.

فالتعليق معناه أنه ولو كنا تحت الحماية، ولو كنا لم نمارس سيادتنا كاملة لم ننقطع في تحملنا ولو أعباء قليلة من تلك السيادة.

فلهذا يمكن أن نقول أن سيادتنا واستقلالنا وقع فيهما تعليق، لا انقطاع، الشيء الذي جعلنا بالطبع حينما رجع والدنا طيب الله ثراه محمد الخامس من المنفى نرجع بكيفية تلقائية إلى عوائدنا وتقاليدنا وإلى ما كنا نعيش فيه قبل الحماية ومدة الحماية.

فقد دخلت بالطبع على حياتنا اليومية قواعد جديدة للتساكن والتعايش، فنظّم القضاء، ونظمت الوظيفة العمومية، وخلقت الأطر القانونية لكي يتمتع الفرد والجماعات بحقوقهم وحرياتهم، ولكن الأصالة والسلالة لم يطرأ عليهما أي تغيير، بحيث كل أوروبي يأتي إلى المغرب وهو قد عرف المغرب سنة ألف وتسعمائة وأربعين مثلا، ويأتي اليوم ويرى المسلمين المغاربة قاصدين الجوامع للصلاة، ويرى المغاربة يحتفلون بأعيادهم، ويرى ملك المغرب وخادمه في لباسه التقليدي، أو فيما يحيط به من تقاليد التعاطي للسلطة العليا، يمكنه أن يقول : والله لم يطرأ تغيير فيما يخص الروح والجوهر.

○ شجرة المغرب لها عروق في التاريخ والأمجاد

ذلك لأن المغرب حجرة لا يزعزعها من أراد. لأن شجرة المغرب لها عروق طويلة وطويلة جدا في التاريخ والأمجاد. لأن المغرب حينما اختار، اختار بالنسبة لنفسه، لا بالنسبة لمن يجاوره، ذلك لأن المغرب أرادت مشيئة الله - سواء بالجغرافية أو بالجوار - أن يعيش على نفسه وأن يعتمد على نفسه، والمثال هو الآتي :

من نعم الله على بلادك شعبي العزيز أنها لم تكن، ولن تكون ممر حضارات وأمم. ذلك لأن بلدك يحده البحر في الغرب وكان يحد بلدك شمالا الإفرنج أو المسيحيون، وكان يحد

بلدك في الجنوب الصحراء الشاسعة، وكان يحد بلدك من الشرق النظام العثماني وما قبله من أمويين وعباسيين وغيرهم الذين لم نرد أبدا أن نخضع لأي واحد منهم، فأصبح المغربي بين العدو الديني شمالا، وبين الصحراء الشاسعة جنوبا. وبين المحيط غربا وبين العدو السياسي شرقا، مرغما على أن يعيش على نفسه بل أن يبتكر سبل معيشته ويكد ويجتهد حتى يصبح منافسا في العلم والعلوم والعمران والدين والفقه - وكذلك وهذا هو المهم - في وسائل عيشه اليومية. مع ذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى حبانا جغرافيا ما حبانا به من المراعي، وحبانا ما حبانا به من الأراضي النافعة للزراعة، وحبانا كذلك بالمياه الكثيرة.

هذه كلها - شعبي العزيز - عناصر مهمة جدا يمكن أن تكون موضوعا لدراسات عديدة.

○ عناصر مهمة جعلت من شعبنا شعبا خاصا وخصوصيا

هذه كلها - شعبي العزيز - هي العناصر التي جعلت منك شعبا خاصا وخصوصيا، ومن لم يفهم هذا وبالأخص من بعض إخواننا في شرقنا لن يفهم أبدا لا المغرب ولا المغاربة، ولن يفهم أبدا تصرفات المغرب، وتصرفات المغاربة، ولن يمكنه بالطبع من باب التبعية أن يكون على ذبذبة واحدة معنا.

ولما أقول معنا أعني معنا نحن المغاربة، بحيث شعبي العزيز هناك الاستمرارية فيما بعد الثورة، الاستمرارية التي لا مركب لها بالنسبة لماضيها.

سأروي لك شعبي العزيز قصة، لأنني أعتبر شخصيا أن حياة والدي ووالدك - رحمه الله - ليست مقصورة على بعض الأفراد الذين تشرفوا بمعايشته وخدمته وتقبيل يده ورجله :

حينما كنا في المنفى، قالوا سنرجع إلى فرنسا فأخذ سيدنا ـ رحمه الله طربوشا ـ أبيض وجلباباً، فقلت له : هدى الله سيدنا أن سيدنا يكون أنيقا بالشاشية وتواتيه، والآن يا سيدي لندخل لبوڤالون بالشاشية، ما كان جوابه ؟.

قال لي : إنني لم أكره. وهناك عدد من الناس يظنون أنه أراد قطع ما بعد غشت 1953 وما قبله، لا. هذا حادث سير يتعلق بالتاريخ ولكن لا بأس من أن تتمتع به حتى أنت شعبي العزيز ـ قال لي : لم أكره أن ألبس الشاشية وأعرف أنها تواتيني، ولكن يوم أعدت لي أسرتي حاجياتنا في غشت 1953 أرسلت لي عدة أشياء ونسيت شواشي. بحيث حتى من كان يرى أن في تغيير محمد الخامس طيب الله ثراه للباسه كان يريد أن يتنكر لماض قريب فهو خاطىء، وخطؤه مسموح له به.

الحقيقة كما قلت لك، هذه بعض اللطائف لحياته الخاصة.

حقيقة كان رحمة الله عليه يحب ويؤكد على أنه لا فرق بين البارحة واليوم حتى يبقى الاستمرار، الاستمرار في العادات وفي التقاليد وفي المشروعية.

○ تاريخنا أعز ممتلكاتنا

فلو كنا تنكرنا ولو لحظة عين لما قبل عشرين غشت، أو لمدة عشرين 1953 أو 1955 لكنا وقعنا في تلك الغلطة التي كانت تؤدي بنا لا إلى التعليق بل إلى الانقطاع. وسيأتي وقت تجد فيه أساتذة يمكنهم التفرغ ـ شعبي العزيز ـ لإعطائك الفرق بين التعليق وبين الانقطاع، وبالأخص فيما يخص الممتلكات، وتاريخنا هو أعز ممتلكاتنا فلهذا ـ شعبي العزيز ـ أقترح شخصيا ـ كما تنظم ندوات سنويا فيقال هذه : كلية الصيف هنا وهذه كلية الصيف هنا ـ أن تنظم كلية الصيف التاريخية

المتعلقة بتاريخ 1902 أيام مولاي عبد العزيز إلى 1955 تاريخ رجوع والدنا رحمه الله من المنفى. وأن تكون هذه الكلية مناسبة للكهول لأن يتذكروا ويفتخروا ويعتزوا، ومناسبة للشباب لأن يعلموا، لأنه من لم يعلم قيمة الكنز الذي هو مؤتمن عليه ربما يكون مقصرا في الحفاظ على ذلك الكنز.

○ ندوة كل صيف حول تاريخنا وأمجادنا

وقررنا بحول الله وقوته ومشيئته وبمشاركة جميع الذين خاضوا هذه المعركة من قريب أو من بعيد ـ مثقفين كانوا أو غير مثقفين ـ قررنا إن شاء الله أن يكون ذلك في الصيف المقبل كل سنة في الدار البيضاء نظرا لمناخ الصيف. وقد كان من الممكن أن تكون هذه الندوة في فاس أو مراكش أو الأطلس الكبير أو تكون في الشمال، أو في بورد أو الريف أو سوس، لأنه ولله الحمد ما من بقعة بقعة من وطننا إلا ورويت بدم الشهداء ودم المحاربين منذ أن خلق المغرب إلى يومنا هذا.

ولكن قلنا الدار البيضاء نظرا لتوفر الوسائل بها، وسنتمكن آنذاك كل سنة من أن نعيش ساعات وساعات تذكرنا بما لنا من تاريخ وأمجاد، وتنبهنا لما علينا من حفاظ ورعاية ووقاية لهذا الرصيد الذي لا مثيل له.

○ المغاربة كلهم كانوا أعضاء المقاومة وجيش التحرير

ولا أريد ـ شعبي العزيز ـ أن أتطرق إلى مواضيع مثل هذه دون أن أتطرق إلى نقطة مهمة جدا في هذا كله.

إن ثورة الملك والشعب لم تكن ثورة الملك وحده، ولم تكن ثورة الشعب وحده، بل كانت ثورتهما معا. ويمكن أن

نقول بأن المغرب كله كان ثائرا، فلهذا يمكننا أن نقول أن المغاربة كلهم كانوا أعضاء المقاومة وأعضاء لجيش التحرير، ولكن هناك ثلة وجماعة ظهرت دون غيرها، جماعة من المقاومين وجماعة من جيش التحرير.

وأظن أنه قد آن الأوان أن تنظم هاتان المجموعتان على أسس جديدة. فالمشكل هنا، ليس مشكل جيش التحرير، لأن أعضاء جيش التحرير معروفون، وكما تعلم - شعبي العزيز - في يوليوز 56 بمجرد ما نزلت من الطائرة التي رجعت بي من القاهرة في ذلك اليوم، وبأمر من والدي سيدنا رحمه الله أخذت السيارة وقصدت مدينة فاس لتهدنة الأفكار ولإدماج أفراد جيش التحرير في القوات المسلحة الملكية، وقد تطلب ذلك العمل على الأقل شهرا ونصفا إن لم يكن أكثر، فمشكل العد والإحصاء والرتب بالنسبة لجيش التحرير مشكل معروف عندنا في الأركان العامة للقوات المسلحة الملكية. فكلهم اندمجوا ووقعوا برتبهم وباسمهم وبقدمهم في جيش التحرير.

هناك بالطبع وهذا كذلك شيء - لا يعرفه الشباب - انبثق عن جيش التحرير هذا من بعد جيشا تحرير..

الأول كانت مهمته أن يحرر ايفني في آيت باعمران، ووقع ما وقع بالأخص حينما كان والدي رحمة الله عليه في الولايات المتحدة في زيارة رسمية، ووقعت مناوشات بيننا وبين الإسبان وتهديدات منهم بحيث جاءت بواخر حربية، ظهرت أمام أكادير.

والقسم الثاني من جيش التحرير الذي كان يحاول تحرير الصحراء المغربية والذي وصل إلى أطار في موريتانيا، ولولا اتفاق الجيش الفرنسي الذي كان يعمل في الجزائر والجيش الإسباني الذي كان موجودا في الصحراء لا أدري ما كان من الممكن أن يكون، ولكن لم تسلم الجرة إلا باتفاق الجيشين الإسباني والفرنسي في الجزائر.

○ إحصاء دقيق لقدماء المقاومين وتنظيم على أسس حديثة

بحيث لا أظن أن هناك أي مشكل بالنسبة لجيش التحرير.

أما بالنسبة للمقاومين، فجلهم، أو بعضهم وافتهم المنية رحمة الله عليهم ولكن هناك من الباقين على قيد الحياة من أعرفهم شخصيا، وقد حباني الله سبحانه وتعالى بشرف الصحبة فكنت «ثاني اثنين إذ هما في الغار» حباني الله بشرف الصحبة لوالدي رحمة الله عليه. الشيء الذي جعلني مؤهلا لأن أكوّن شخصيا مكتبا من مقاومين معروفين أعرفهم شخصيا، يكون لهم من جملة ما يكون لهم من الواجبات الإحصاء الدقيق والدقيق جدا لقدماء المقاومين، وبمجرد ما يتم الإحصاء إن شاء الله سننظم هذه الهيأة على أسس جديدة وعندنا ولله الحمد أفكار في هذا الباب، ولنا أمثلة من الدول التي تجاورنا بالأخص في أوروبا، تلك الدول التي سننهج نهجها حتى يمكننا أن نشرف ونكرم هؤلاء الذين كانوا بارزين في هذا النضال وهذا الكفاح.

ومعلوم كما قلت لو لم يكن المناخ الوطني صالحا لهم لفشلوا تماما، ولهذا أقول بأن المغاربة كلهم جيش تحرير ومقاومون.

لماذا ؟ لأنه تبعا لمبدإ ماوتسي تونغ، فإن الثائر يجب أن يكون كالسمكة في الماء، معنى أن الثائر، إذا لم يجد المناخ اللائق به، وإذا لم يجد الجو اللائق به، وإذ لم يجد تكاثف وتعاضد المواطنين لا يمكنه أن يقوم بأي شيء.

وهذا ما نسميه المخرب المدمر، أما الثائر المغربي بالنسبة لثورة الملك والشعب، والثائر المغربي الذي اجتاز البوغاز، والثائر المغربي الذي جاهد في سبيل الله لاعلاء كلمته في

الديار الإفرنجية، أما هؤلاء الثوار فكانوا دائما وسيظلون، يجدون أنفسهم كالسمكة في الماء بمعنى يجدون من وراءهم ومن أمامهم ومن يمينهم وشمالهم.

فلهذا ـ شعبي العزيز ـ إذا نحن قمنا بهذين العملين : تنظيم كلية تاريخية صيفية في كل سنة تذكرنا وتعلمنا وتلقننا، وإذا نحن في هذه السنة وجدنا الحل النهائي وسنجده لأننا قررنا أن نجده، الحل النهائي اللائق بقدماء جيش التحرير وقدماء المقاومين، فسنكون قد قدمنا لبلدنا وبالأخص لأبنائنا عملا يساوي ذلك العمل المقدس الذي نقوم به حينما نجمع خزانة للكتب، لأن الرجال والكتب على حد سواء : كلهم أساتذة تاريخ وكلهم أصحاب عبرة.

قال النبي ﷺ في حجة الوداع ـ أظن في حجة الوداع : «أني تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك».

لقد ترك لنا محمد الخامس رحمة الله عليه والشهداء الذين سبقوه أو رافقوه، تركوا لنا بتضحيتهم وتعاليمهم وتواضعهم وصمودهم وإيمانهم محجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

اللهم اجعلنا دائما على تلك المحجة البيضاء، اللهم اهدنا الصراط المستقيم، اللهم اجعل شعلة الوطنية والغيرة والحكمة والإقدام، اجعل هذه الشعلة المتعددة الأطراف دائما مضيئة في قلوبنا مشعة في أسرنا منيرة لوطننا الآن وفي المآل، إلى أن ترث الأرض ومن عليها يا رب العالمين، إنك سميع الدعاء.

والسلام عليكم ورحمة الله

في رسالة أمير المومنين جلالة الملك إلى الحجاج الميامين:

استشعروا دائما، وفي كل حال، أنكم جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، تنتمون إلى بلد أصيل في الإسلام.

توجه يوم الأحد ثالث عشر ذي القعدة أول فوج من حجاجنا الميامين لأداء مناسك الحج.
وبهذه المناسبة تلا عليهم معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري نص الرسالة الملكية السامية التالية :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

حجاجنا الميامين :

قال الله تعالى : **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾.**

وإنه لمن دواعي الفرح والسرور والابتهاج والحبور، وسيرا على نهج أسلافنا المنعمين، وسنن ملوكنا الأكرمين، أن نوجه إليكم في مثل هذه المناسبة الكريمة بوصفنا أميرا للمؤمنين وحاميا لحمى الوطن والدين رسالة جامعة، نذكركم فيها بما لفريضة الحج من أهمية ومكانة في الإسلام، ونسدي لكم فيها من النصح والتوجيه ما يكون لكم مصباحا تستنيرون به، وتسترشدون في مناسك الحج وشعائره ويجعلكم تزدادون تشبثا بمبادىء الإسلام ومكارمه وأخلاقه وفضائله انطلاقا من حرصنا الأكيد على إقامة فرائض الدين واهتمامنا بالجانب الروحي للمواطنين، وإدراكا منا لما يعمر قلوبهم ويخالج نفوسهم من الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة، ويجعل أنظارهم مشدودة إليها كلما وصل موسم الحج، وحل ميقاته الزماني، فإننا ما فتئنا نولي عناية خاصة لموضوع الحج وشؤونه، ونعطي التعليمات لتهييء الأسباب اللازمة وإعداد الوسائل الضرورية، وتيسيرها لكل من توفرت له الاستطاعة، حتى يتمكن من القيام بتلك الفريضة الإسلامية التي جعلها الله ركنا من أركان ديننا الحنيف وقاعدة من قواعده الخمس، وتأديتها على أكمل وجه وفي أحسن الظروف امتثالا لقول الله سبحانه : **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾.**

حجاجنا الميامين :

اعلموا وفقكم الله أن الحج إلى جانب كونه عبادة في الإسلام فإنه ينطوي على حكم وأسرار ينبغي استشعارها والسير على ضوئها وهديها فالحج موسم ديني عظيم يرمز إلى تثبيت معاني الوحدة والأخوة في الدين وتقوية أواصر التقارب والتضامن بين المسلمين والعمل على تبادل المنافع وبلوغ الآمال والأهداف المشتركة في شتى الميادين، وهي مقاصد ومثل عليا نجعلها في المقام الأول

من اهتمامنا ونصرف لها القسط الأوفر من وقتنا، ونبذل قصارى جهدنا لتحقيقها في اللقاءات ومختلف المناسبات والمجالات، فاستحضروا هذه المقاصد والمنافع في أذهانكم ونفوسكم، واجعلوا نصب أعينكم واستشعروا دائما وفي كل حال أنكم جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، تنتمون إلى بلد أصيل في الإسلام، عريق في الأمجاد، فكونوا خير سفراء لبلدكم في لطف التعامل وطيب المعاشرة ولين الجانب ودماثة الأخلاق، وعرفوا بما يزخر به وطنكم من الخصائص الذاتية والمعالم الحضارية والمميزات الطبيعية والاقتصادية، وبما قطعه من أشواط بعيدة المدى في طريق النمو والازدهار وارتقاء مدارج الرقي والاطمئنان، وبما حققه من كسب ونجاح وانتصار في قضية الصحراء المغربية التي استرجعناها بعد جهاد كبير وكفاح طويل، كان أبرز معالمه ومظاهره المسيرة القرآنية الخضراء التي كانت وستبقى بحول الله ومشيئته فتحا مبيناونصرا عظيما للمغرب والمغاربة وللحق والمشروعية، واعمروا أوقاتكم في تلك البقاع المقدسة بالذكر والعبادة وحضور الصلاة مع الجماعة والتقرب إلى الله بأنواع البر والطاعة، والإكثار من الدعاء ومن الطواف بالبيت الحرام، فإنه عبادة لا تكون إلا في ذلك المقام، واعلموا أن العمل الصالح فيها مضاعف الأجر والثواب وأن الدعاء فيها مستجاب، لقول رسول الله ﷺ : «الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم» وقوله : «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيئون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير».

حجاجنا الأبرار :

تذكروا ما عليكم من حق الدعاء لعاهلكم الساهر على مصالح دينكم ودنياكم، ولوطنكم الذي يأويكم، فاستحضرونا في تلك البقاع المقدسة وزودونا عندها بصالح الدعاء، واسألوا الله أن يرسل سحائب الرضا والغفران وشآبيب الرحمة والرضوان على فقيد العروبة والإسلام والدنا المنعم جلالة المغفور له محمد الخامس، وأن يجزيه عن المغاربة والمسلمين أحسن الجزاء، ويجعله في مقعد صدق مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، واسألوه جلت قدرته لوطنكم أن يديم عليه نعم الخير والاستقرار والهناء والاطمئنان، وللمسلمين جميعا أن يهديهم إلى الاعتصام والعمل بشريعة القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويعود به إلى وحدة الصف والتفاهم والوفاق والوئام، فإن من اعتصم بالله ودينه القويم فقد اهتدى إلى صراطه المستقيم.

كتب الله لكم السلامة والعافية في الحل والترحال، وأعادكم إلى وطنكم وذويكم سالمين غانمين، وحقق لكم من الأجر والقبول ما جاء في دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام حين قال : ﴿**ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم» صدق الله العظيم**﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ملامح من شخصية محمد الأول

للدكتور محمد بن شريفة

لعلّني لست في حاجة إلى شرح السبب أو الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع عنواناً لإسهامي في «ندوة المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر»، ولكنني مع ذلك أشير إلى أن الحديث عن مؤسس الدولة العلوية الشريفة **يأتي أوّلاً في سياق الاحتفالات الباهرة للأمة المغربية بذكرى مرور 25 سنة، على تربع عاهلنا العظيم أمير المومنين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه الملوك الغر الميامين.**

وهو يأتي أيضا بحكم أن هذه الجامعة الواعدة الصاعدة تحمل إسم محمد الأول تيمنا به، وإحياء لذكره، وبما أنني كنت أول من أشرف على هذه الجامعة عند تأسيسها، فمن حقي بل من واجبي أن أسهم في هذه الندوة بالتعريف بصاحب هذا الاسم التاريخي الكبير الذي تتشرف هذه الجامعة بحمله.

وثمة أمر ثالث، وهو أن تاريخ محمد الأول ارتبط بتاريخ هذا الإقليم ارتباطاً وثيقاً، وامتزج به امتزاجاً أبديا :

ارتبط به ارتباطاً وثيقا بسبب «**حركته**» الجريئة في ربوعه، وفيما وراءها، عند تمهيده لقيام الدولة، وقد كانت هذه «**الحركة**» الجريئة ذات أبعادٍ مختلفة كما سأشير إلى ذلك.

وارتبط به ارتباطا أبديا لأن جثمانه الشريف احْتَضَنَتْهُ هذه البقاع الشّرقيّة من وطننا العزيز.

وأحبُّ قبل الشروع في هذا العرض أن أشير إلى ثلاثة أشياء :

1 - إن المادة التاريخية التي بين أيدينا حول المولى محمّد بن الشريف (محمد الأول) مادة غير كافية، فهي لا تفي بوضع ترجمة شافية له[1]، كما أن الحيز المخصص له في المدوّنات الإخبارية والحوليات التاريخية حيّزٌ محدود، ولعلّ من أسباب هذا أنه ظهر في نهاية دولة وبداية دولة أخرى.

فمؤرخو السّعديين يشيرون إليه إشارات عابرة في الصفحات الأخيرة من مؤلّفاتهم.

ومؤرّخو الدولة العلوية يفتتحون به في إيجاز واقتضاب، ثم يتجاوزونه إلى الملوك الذين خَلَفوه.

1) عقد القادري ترجمة للسلطان محمد بن الشريف في نشر المثاني ج 2 ص 145.

وقد ذكر اليفرني في (روضة التعريف) أن «مآثر مولاي محمد - رحمه الله - كثيرة، تستدعي مجلّدات».

ثم قال : «وقد أضربنا عنها رَوْماً للاختصار».

وهكذا لم يكن حظ المولى محمّد مثل حظ أخويه الملكين العظيمين، المولى الرشيد والمولى إسماعيل، اللذين أُلّفت في سيرتيهما وفي تاريخ دولتيهما مؤلفات مستقلّة، وبلغات متعدّدة قديما وحديثا.

فقد ألّف اليفرني : «**روضة التعريف، بمفاخر مولانا إسماعيل ابن الشريف**»، وهو أول ما ألّف في سيرة هذا الملك العظيم، ثم تتابعت الكتابات العربية في سيرته، وتوالت الأبحاث في حياته وأعماله إلى يومنا هذا.

ويعتبر كتاب «**تاريخ مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل**» الذي ألّفه الأسير الفرنسي «مويت» أقدم ما كتب في اللغات الأجنبية عَنْهُما.

أما بالنّسبة للمولى محمد فإنّ معظم المادة التاريخية التي لدينا حوله، تؤخذ تقريباً من المراسلات التي كانت بينه وبين معاصريه، وقد حفظها كلّ **من اليفرني في «نزهة الحادي» والضعيّف «في تاريخه»، والحوّات في «البدور الضاوية»، والزياني**، واقتبس الناصري فِقَراً منها في الاستقصا. وهذه الرسائل توجد مجموعة في بعض المخطوطات[2]، ولسنا نعرف هل هذه المجموعات مأخوذة من المصادر المذكورة، أم أن هذه نقلتها عن المجموعات المشار إليها.

ومهما يكن الأمر فإن الرسائل المذكورة لا تخلو من التحريف، وتختلف رواياتها بين الزيادة والنقصان، ولكنها - مع ذلك - تظل المصدر **الأول** عن المولى محمد ابن الشريف.

2 - أصبحنا اليوم ننطق إسم مؤسّس الدولة العلوية الشريفة هكذا : مُحمد **الأول** (بضم الميم)، فنقول على سبيل المثال : جامعة مُحمد الأول. أما النطق القديم الوارد في الحوليات التاريخية فهو : مَحمد (بفتح الميم)، وهكذا يضبطه المؤرخون ضبط لفظ وعبارة، وهكذا رسمه مويت بالحروف اللاتينية، وليس في هذا أي إشكال، فهذا النطق للاسم النبوي الكريم مسموع قديما وحديثا[3].

3 - يمكن تمييز ثلاثة أدوار في حياة الأسرة العلوية الشريفة حتى عهد المولى محمد الأول :

الدور الأول : الذي يبدأ مع المولى الحسن الداخل وكانت رسالة الأسرة خلال هذا الدور رسالة تربوية روحية في سجلماسة وكان حلولُ الأسرة الشريفة بهذا القطر حلولَ يمن وبركة وخير عليه وعلى المغرب كله.

والدور الثاني : يتم بقيام أشراف الأسرة الكريمة بالجهاد، ويمثّل هذا الدورَ المولى علي الشريف **الأول**، وكتب التاريخ تتحدث عن جهاده في السودان والأندلس، وقد أورد اليفرني والناصري بعض ما خوطب به شعراً ونثراً في هذا الموضوع.

ثُمّ جاء **الدور الثالث :** مع المولى علي وولده المولى الشريف، ثم المولى محمد بن المولى الشريف، وهو الدور الذي اتجهت فيه الأسرة الشريفة إلى تحمّل أعباء الخلافة في المغرب.

بعد هذه الإشارات أنتقل الآن إلى محاولة تبيّن بعض الجوانب البارزة من شخصية محمد الأول، وثقافته، وصفاته، كما تستخرج من رسائله المشار إليها آنفاً.

ولعلّ أول ما يجدر ذكره أن المؤرخين لم يحدّدوا تاريخ ميلاده، وإنما يفهم من كلامهم أنه كان بكر أبيه، وكبير إخوته، الذين ترك منهم المولى الشريف بعد وفاته 33 فيما يقال.

وبما أنّه لا توجد لدينا سيرة مفصّلة لمولاي محمد الأول فإنّنا لا نجد شيئا منصوصاً عليه فيما يتعلّق بدراسته. ولا شكّ أنه كشريف وأمير قد شدا من العلوم أهم ما يكتسب، ونشد من المعارف أعزّ ما يطلب، ولابدّ أن أبا

---

2) توجد من هذه الرسائل نسختان في الخزانة الحسنية.

3) يبدو أن صيغة محمد (بفتح الميم أو سكونها) ظهرت في المغرب منذ القرن الثامن على الأقل، ففي المعيار للونشريسي (11 : 138 - 139 ط. ج) فتوى لبعض فقهاء هذا القرن، جاء فيها : «وأما التسمية بمحمد بفتح الميمين أو محمد بضمهما فلعلّه من باب التغيير صونا لاسم النبي ﷺ أن يسمّى به غيره والله أعلم».
وقد أشار إلى هذه الفتوى وغيرها أيضا في الموضوع مولاي الزكي العلوي في كتابه «المطالع الزهراء».

الأملاك المولى الشريف قد عني بتكوين بكره، بمثل عنايته المذكورة في سيرة المولى الرشيد وسيرة المولى إسماعيل، ومن هنا نقول إن المولى محمداً حفظ القرآن الكريم الذي كان لأهل سجلماسة عناية فائقة به، وقد تحدث اليوسي معاصر المولى محمد عن هذه العناية الفائقة بالقرآن عندهم، كما أشار بإجمال إلى الحركة العلمية في سجلماسة يومئذ[4].

ويستفاد من رسائل المولى محمد الأول أنه كان يروي قدراً صالحاً من الشعر، ويشارك مشاركة طيّبة في علم البيان الذي لابدّ أن أفراد الأسرة الشريفة ظلوا يتوارثون العناية به منذ عهد المولى الحسن الداخل، الذي كانت له يدٌ طولى في هذا العلم[5]، وكان مزدهراً ازدهاراً كبيرا في سجلماسة يومئذ، **وناهيكم بالسّجلماسي مؤلف «المنزع البديع» ومعاصر المولى الحسن الداخل.**

ويفهم من الرسائل أيضا، أن المولى محمد كانت له دراية واسعة بالتاريخ والأنساب والسير، وكان في هذه المعارف مثل أخويه المولى الرشيد والمولى إسماعيل الذي يقول فيه اليفرني : «وأمّا مسائل التاريخ ومعرفة الأنساب فهو ابن بجدتها، والعارف بدسائسها، يعرف القبائل العربية والشعوب البربرية، ويميز كل واحدٍ بقعدده، ولم يكن في وقته أعرف منه بالأنساب، كأنّما جُمعت له في صعيد واحد، وهو ينظر إليها نظرة واحدة، وأما علم السير ففي يده كالماء، وله فيه اليد الطولى»[6].

ولم تكن معرفة المولى محمد بأقلّ من معرفة المولى إسماعيل في هذا الذي ذكره اليفرني.

ولدينا هنا نصوص قوية الدلالة، عَلَى ذلك، منها أن محمداً الشيخ السعدي بعث رسالة إلى المولى محمد يخاطبه في بعض فصولها بقوله :

«وبلغني أنّك تعلن في النوادي، من الحواضر والبوادي، أن جرثومة انتمائنا لبني سعد بن بكر بن هوازن، مع أنها في بني نزار بن معد وافية المكاييل ثقيلة الموازن، وأننا من تيدسي أحد القصور بوادي دَرْعَة، ومنها أنبت الله أصلنا فأزهر غُصْنُه وأثمر فرعه».

إلى أن يقول : «وقد صرفنا إليك نسخةً من «مناهل الصفاء في أخبار الشرفاء»، ليطلع عليها أنظارك من المولك، فيزول ما بالخاطر من أشراك الشكوك».

فأجابهُ المولى محمد بقوله :

«وعتابكم أنّنا عزوناكم لبني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، وناشرون لذلك في الحِلَل والمدن والقصور، تالله ما فهنا بذلك عن مُعايَرة لكم ولا جهْل، ولا بأن نَصِفكمْ كمن لا عشيرة له ولا أهل، بل اعتمدنا في ذلك، بحمد الله، على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس، من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذِّكْر والفِكْر، فما وجدوكم إلا من بنى سعد بن بكر، ولا معوّل على كُتّاب المنصور من الفشاتلة، ولا ابن القاضي المكناسي، ولا ابن عسكر الشفشاوني وسواهم، إذْ الكلّ أهل بساطكم، ومحل مزاحكم وانبساطكم، ولقد بلغتنا نسخة «مناهل الصّفاء»، فلم نجد فيها مورداً عذب وصفاء، وكفى دليلاً بالباطن والظاهر، قول الثقة مولانا عبد الله بن طاهر، ومع ذلك فلم نتعمد دفعكم عن شرف النّسب، ولا رفعكم على ما وسمكم الله به من زينة الحسب»[7].

والفشاتلة المشار إليهم في هذا الجواب : هم الكاتب الشاعر المؤرّخ عبد العزيز الفشتالي، وولده محمد، وقريبهما محمد بن علي الفشتالي، وكلهم خدموا المنصور السعدي.

وابن القاضي هو مؤلّف «المنتقى المقصور».

أمّا ابن عسكر الشفشاوني فهو مؤلّف «دوحة الناشر»، وعلاقته بالسعديين معروفة.

وأما قول عبد الله بن طاهر العلوي المدغري فهو أنه كان على مائدة المنصور فسأله ـ في معرض الحديث عن

4) راجع «المحاضرات» وكذلك «وصف افريقيا» للوزّان (مادة سجلماسة).
5) راجع الاستقصا 7 : 6.

6) روضة التعريف.
7) الاستقصا.

الأنساب - أين اجتمعنا ؟ فأجابه بقول : على هذا الخوان ![8]

إن الأخبار والأنساب والسِّيَر هي من الأمور المطلوبة في تربية الأمراء والملوك، ولهذا رأينا أولاد المولى الشريف الذين طمحوا لحمل أمانة الخلافة - وفي مقدمتهم مولاي محمد - يأخذون أنفسهم بقراءة سيرة النبي وأصحابه وتاريخ الإسلام، والمغرب على الخصوص، ومعرفة أنساب سكانه من العرب والبربر.

وتبدو معالم الثقافة التاريخية لدى المولى محمد في رسائله إلى محمد الشيخ السّعدي، وبودميعة، وأبي بكر الدلائي، وفيما كان بينه وبينهم من مساجلات.

كما نشتشفّ من خلال هذه الرسائل الصادرة عنه إلى المذكورين ثقافة أدبية، تتمثل فيما تشتمل عليه من استشهادات شعرية، ففي الرسالة التي أجاب بها المولى محمد أهل زاوية الدلاء نراه يروي شعراً للشاعر أحمد الدغوغي في هجاء الدلائيين، وتُخْتَمُ هذه الرسالة ببيت مشهور للمتنبي، سبق ليوسف بن تاشفين أن اقتصر عليه كرسالة إلى الأدفونس قبيل وقعة الزلاّقة، وهو :

ولا كتبَ إلاّ المشرفيّة والقَنا
وَلا رُسُلَ إلاّ الخميسُ العرَمْرَمُ

كما أن المولى محمداً أنشد في رسالة أخرى وجّهها إلى الدلائيين أبيات عمرو بن معدي كرب في الحرب، وهي :

الحربُ أوّل ما تكونُ فتية
تَسعَى بزينَتِها لِكُلّ جهولِ
حتى إذا اشتَعَلَت وشبّ ضِرامُها
ولّت عجوزاً غَيْرَ ذاتِ حَليل
شمطاءَ جَزّتْ رأسَها وتنكّرَتْ
مكروهةً لِلشمّ والتقْبيلِ

إن إنشاد المولى محمد لشعر عمر بن معدي كرب، وإنشاد أخيه المولى إسماعيل لقول النابغة :

فمن أطاعك فانفَعْه بطاعته
كما أطاعَكَ وادلُلْهُ على الرّشَدِ
ومن عصاكَ فعاقِبْهُ معاقَبَةً
تَنْهي الظلوم ولا تقعد على ضَمَدِ

وتعجيزه لكتّابه في مسألة قدح ابن مقبل[9] يشير إلى أنّ التراث الجاهلي - من أشعار وأمثال - كان من أسس التكوين الثقافي في بيئة الأشراف العلويين.

ومن المكوّنات الثقافية في شخصية المولى محمد معرفته بالسياسة، نظراً وتطبيقاً، وإلمامه بأصولها، علما وعملاً، فقد كان يستحضر ما في كتاب **«واسطة السلوك، في سياسة الملوك»** لأبي حمّو الزّياني، ونستفيد هذا مما جاء في آخر رسالته لمحمد الحاج الدلائي إذ يقول :

«وَأمّا ما صرحتم به مِنْ أنّ من الصلح بين الملوك ما هو مكيدة وخدعة أكيدة، فقد سبقكم به السلطان أبو حمّو صاحب تلمسان»[10].

ومولاي محمد يشير في هذه الفقرة من رسالته، إلى ما ورد في «واسطة السلوك» حول هذا الموضوع، وقد ظلّ هذا الكتاب من المراجع الأساسية في التكوين السياسي لملوكنا العلويين وأولياء عهودهم فيما بعد، ففي ديوان الوزير ابن إدريس العمراوي قصيدة يتحدث فيها عن نسخة من **«واسطة السلوك»** أهداها إلى ولده وولي عهده سيدي محمد بن عبد الرحمن وهو يسمّيها : «السياسة» اختصاراً ومحاكاة لكتاب أرسطو، وكذلك سمّاها ابن الخطيب في قصيدته في مدح أبي حمّو :

أمّا «سياستك» الّتي أحكمتها
ورميْتَ بالتقصير رَسْطاليسا

---

8) المصدر نفسه.

9) راجع أنس السمير لمصباح الزرويلي.

10) مخطوط الرسائل.

فلــو أنّ كِسْرى الْفُرْسِ أبْصَرَ بَعْضَهـــا
ما كـان يطْمَعُ أن يُعَـدّ سَوُوسـا[11]

أمّا ابن إدريس فيشير إلى عناية المولى عبد الرحمن بهذه «السياسة» ويذكر إهداءه نسخة منها إلى نجله :

وأحيـــا دارس الأطـلال منهــا
وفَسّرَ متْنَهــا تفسير عـــالم
لـذاك خـديمـه إدريسُ أضحى
لحضْرَتِـه بمـا يهْـواه خـادم
فـأهـدى من محـاسنهـا عيـونـاً
تفـوحُ شـذى كـأزهـار الكمـائم
سيـاسـة مـالـك لبنيـه أضحت
تقلّـدُهـا الأفـاضـل كـالتمـائم
تخيرهـا «أبـو حمّـو» حسـامـا
وقلّـدهـا لهم تقليـد حـازمْ
وهـذا العبـد أعجبـه حـلاهـا
فـأهـداهـا لنَجْلـكَ ذي المكـارم[12]

وهكذا نرى تداول هذا الكتاب من محمد الأول إلى محمد الرّابع.

لقد كان معاصرو المولى محمّد يعترفون له بأنّه من دهاقنة السياسة ودهاتها، جاء في رسالة محمد الشيخ ابن زيدان السعدي :

«لم يعلموا أنك دهقان تسوس العقول، وطالعتا التوراة والزبور والإنجيل، وما يفهم من المعقول والمنقول»[13].

ومعنى هذا الكلام أنه كان عارفاً بالسياسة الشرعية والسياسة المدنية.

وثمة عنصر خاص في تكوين مولاي محمد ـ كان شائعاً في عصره ـ ألا وهو معرفته بالجفريات التي نصّت عليها كتابات معاصريه من المؤرخين، وصدقتها شواهد الأحداث في ذلك العصر.

لقد ذهب بعض القدماء إلى اعتبار علم الجفر من ميراث آل البيت، ولذلك نرى الشاعر المعري يقول ـ وكأنه يرد على من أنكر ذلك ـ :

لَقَـــدْ عجبـوا لآل البيت لمّـــا
أتـــاهُمْ علمُهُمْ في جلْـــدِ جَفْر
ومرآة المنجّم وهي صُغْرَى
أرَتْـــهُ كـلّ عـــامِرَةٍ وقفْرِ

أمّا الكتابات التي تشير إلى اهتمام المولى محمد بالجفريات، فمنها كتابات المؤرخ اليفرني الذي علّق على اغتيال الشبانات لأبي العباس أحمد آخر السعديين بقوله : «وقد أذكرتني هذه الفعلة قول المولى محمد بن الشريف في قصيدته السابقة :

أمـا الشّبـانَـةُ فـاحـذرَنْ مِنْ غَيّهـا
لابـدّ تَغْـدِرُ بـالأخير وتَخْـذُلُ

فإن الأمر وقع كما قال، مع أن المولى محمد بن الشريف كتب بالقصيدة المذكورة للسلطان محمد الشيخ في سنة تسع وخمسين وألف، وغدر الشبانات للسلطان أبي العباس كان سنة تسع وستين وألف، ولعلّ المولى محمد بن الشريف تلقى ذلك من بعض أهل الكشف أو نحوهم، فإنّ كلامه كثيراً ما يقع فيه مثل هذا»[14].

وقد ذهب المؤرخ نفسه في كتابه «روضة التعريف» إلى أن هذا كان من قبيل الاتفاق الغريب[15].

ويقول أستاذنا المرحوم المختار السّوسي : «وكثيراً ما رأينا من كلام مولاي محمد الشريف نفسه استدلالاً بالجفريات في أنه سيكون له ملكٌ يورّثه ذويه»[16].

وقد نصت رسالة باشا الجزائر التركي إلى مولاي محمد على هذا إذ تقول :

«وإياك ثمّ إياك والغَرَر بما عثرت عليه في كُتُبِ البوني وابن الحاج، ورسالة أهل سبتة لعبد الحق بأنّك المخصوص بصعود تلك الأدراج، وأن أوتاد التركِ والروم

11) راجع القصيدة في نفح الطيب وأزهار الرياض.
12) ديوان ابن إدريس العمراوي (نسخة مرقونة).
13) الرسائل المخطوطة.
14) نزهة الحادي.
15) راجع روضة التعريف لليفرني.
16) انظر كتابه إلغ قديما وحديثا.

تتقوض من أرض الغرب، ولا يبقى من ينازعكم فيها بطعن ولا ضرب»[17].

أما البوني فقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى تآليفه في أسرار الحروف الذي هو من تفاريع علم السيمياء.

وأما رسالة أهل سبتة لعبد الحق آخر بني مرين فمضمنها أنهم قدموا عليه في حالة يرثى لها، مستغيثين به لإنقاذ سبتة، فأجابهم على لسانه كاتبه بقصيدة يوصيهم بالتزوّد بالصبر وانتظار ظهور أمير «يُحْيي رسوم الغرب بعد دروسها» و«يفكّ أسر ثغوره ونجوده».

أما تاريخ ظهور هذا الأمير فسيكون كما تقول القصيدة :

مهما طوى الفلك الثلاثة فابشِرُوا
بمقـــامكم فيهـــا مقـــام خلــود
للبــوني وابن الحــاج في جفريهمـا
نصٌّ إلى الأجــل الجَلي المعـــدود
راقِبَــهُ بعــد الألْفِ يــاآبن أوانـــه
تظفر لَــدَيْــهِ بغــايـــةِ المَقْصــودِ[18]

ولا شكّ في أن مولاي محمد كان على علم بهذا، وأنّه **كان يرجو أن يكون هذا الموحّد للوطن، المحرّرَ للثغور** الذي يظهر بعد الألف، أي في القرن الحادي عشر الهجري، فهو يقول في رسالته إلى الدلائيين ما نصّه : «وأمّا ما احتوى عليه بساط الغَرْب، ما بين بَرْبَرٍ وَعُرْب، فقد طمعنا من الله كونه في القبضة، عندما تمكن إليه النهضة، إن لم أكنه بالذّات والدّيوان، فبالأبناء والإخوان، كعوائد الدول، يشيّد الآخر منها ما أسّسَه الأول»[19].

ويقول فيها أيضاً :

«ولقد حدّث السادة أهل البَصيرة، أن ستدور عليكم منّا الدائرة المبيرة».

17) الرسائل المخطوطة.

18) انظرها في ملاحق اختصار الأخبار.

19) الرسائل المخطوطة.

وفي «روضة التعريف» فصل خاص بما كان يخبر به أهل الكشف والصّلاح من مغيّبات، وقد كان عمر الخطاب شاعر الملحون يومئذ يهتف في جفرياته بأن فتح العرائش سيكون على يد المولى الشريف بن علي.

ويحدثنا الضعيّف عن ظهور المجذوب سيدي عبد الرحمن الثاني السوسي، قال : «وفي عام الخمسين بعد الألف أخبر الولي الصالح سيدي عبد الرحمن من قبيلة متوكّة بهذه الدولة العلوية، وأنه سيكون من أمرها ما يكون، وكان ينشد قوله بالسوسية لأهل سوس، وكان قوله عندهم كقول الولي التقي الصالح سيدي عبد الرحمن المجذوب»[20].

ثم ساق جملة ممّا كان يخبر به.

وهذا وغيره يعكس **جو المغرب الذي كان يتطلع يومئذ إلى من يوحّده وينقذه من فوضى فترة الطوائف، ويخلّص ثغوره من احتلال الأجانب.**

وقد كان المولى محمد يَرَى ـ ومعه أهل المغرب ـ أنه هو المرشح المؤهّل لذلك، بحكم ما اجتمع فيه من صفات الزعامة وشروط الإمامة، وهو إذا كان يرى فيما يهتف به أصْحاب الجَفْريات دليلا على ملكه، فإنه لم يكن يستسلمُ لها، وهذا ما ينطق به جوابه للباشا التركي إذ يقول :

«ومن محال المحال أن يصِرّ على الاعتماد عليها اعتقادي، فالحازم المتكِلُ على الغني الغفّار، لا يغترّ بإشارة كاهن ولا جَفّار»[21].

نخلص مما عرضناه إلى أن مولاي محمد كان له إلمام كبير بمعارف عصره، وأحسب أن معظم الرسائل الصادرة عنه هي من إملائه، وعلى كل حال فلم يَنُصّ المؤرخون على من كتبها، إلاّ ما كان من جوابه على رسالة محمد

20) راجع تاريخ الضعيف.

21) الرسائل المخطوطة.

الشيخ بن زيدان فقد ذكروا أنها من إنشاء الفقيه أبي عبد الله محمد بن سودة قاضي فاس عند وجود المولى محمد بها.

ومع هذا كله فإن الفروسية بمعانيها العربية والإسلامية تظل هي حليته الكبرى وشعاره الأول، ومن المؤكّد أن هذه الفروسية كانت أيضا من ميراث الأسرة العلوية التي يرثها الخلف عن السلف، وكانت من مستلزمات الإعداد للجهاد الذي كانوا يتطوعون به في السودان والأندلس. وجهاد مولاي علي الشريف في مملكة غرناطة وناحية أكدج من بلاد السودان مبسوط في كتب التاريخ كنزهة الحادي وغيرها.

وإن الصورة التي تتخيلها للمولى محمد هي صورة الفارس الممسك بعنان فرسه، فكلّما سمع هيعة طار إليها.

وهذه هي الصورة التي رسمتها له رسالة أهل زاوية الدلاء، إلى محمد الشيخ السعدي إذ تقول فيه :

«هذا الأجدل الذي لا تئوده سموح الليالي ولا حرارة قيظ المَصيف، مولانا محمد بن مولانا الشريف، عُقاب أشهب على قُنّة كل عقبة، لا يُقنعه عدّ المال دون حسم الرقبة، وربّما غرتنا غفلة فيشنّ الغارة على شعوب شعاب ملوية، أو ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والألوية، سيما وجناحاه ذوو النفوس النفيسة، بربر صنهاجة وعرب دخيسة»[22].

وبمثل هذا وصفه القائد أجانا على لسان مخدومه محمد الشيخ فقال :

صَقْرُ الصّياصي على الأعادي صائلٌ
طوراً يُغيرُ وفي المَلاحِمِ سَيْتَلُ
أنيابُهُ البيضُ الحِدادُ صوارِمٌ
وبكلّ ظفر منه أبتر مِقْصَلُ[23]

بل إن المولى محمداً يرسُم لنا مثالَ الفارس الذي كأنه في قوله مخاطبا محمداً الشيخ السعدي :

اركَبْ مَطايا الصّافِناتِ إلى الوَغى
إمّا تحوزُ مَزِيّةً أو تُقْتَلُ
واقرع طبولاً للرُّعاة وفي الوَغى
يُجْبَى إلى الحَرْب العوانِ الجَحْفَلُ
وخض القفار وهُزّ رُمْحاً وادّرِعْ
واثنِ العِنانَ وفي يمينكَ منصل
خاطر بنفسك في الفيافي جائلاً
تردي العدوّ، وكلّ ليلٍ مَنْزِلُ
واصطَدْ نهارَك بالسّلاق وبعدَها
عِقْبانُها وكذاك صَقْرٌ أجدل
وقُدِ الجيوشَ كما الوحوشِ ولا تَدَعْ
مَنْ يَعْصي أمْرَكَ وازجرَنْهُ فيَفْعَلُ[24]

فهذه النصائح لا تصدر إلا عن فارس مجرّب وقائد محنّك، وكذلك كان المولى محمّد.

ويفهم من منطوق رسائله أنه كان قبل البلوغ قد أصبح فارساً يخوض غمرات الحروب، جاء في رسالته إلى الدّلائيين :

«وأما الحروب الصعبة (فقد) نشأنا في غمراتها قبل البلوغ، لنا من قديم خلقت، ومنكم ثلاثا طُلّقت، وبأعناقنا عِشْقاً عُلّقت»[25].

ويبدو أن تكوينه في الفروسية لم يكن تكويننا تقليديا فحسب، وإنما كان تكويناً يساير العصر، فعند ما كتب إليه والي الجزائر التركي يقول : «الحجر لا يُدَقّ بالطّوب، والسّهْمُ والرمح، لا يقومان بقوة الكبريت والملح» أجابه بقوله : «نحن أعرف منكم بأصناف البارود والمدافع، وما أودع الباري فيها من أسرار المضارّ والمنافع، والغارات، لا تقاومها ضعاف الرماة»[26].

---

22) المصدر نفسه.
23) الاستقصا 6 : 105.
24) المصدر نفسه.
25) الرسائل المخطوطة.
26) المصدر نفسه.

إن تكرار ورود كلمة صقر في وصف مولاي محمد الأول توحي لنا بتشبيهه بصقر قريش عبد الرحمن الداخل، وتقودنا إلى مقارنة بين الرجلين العظيمين، وهي مقارنة ممكنة من عدّه وجوه :

فكل من الأميين الكبيرين كان آية في الشّجاعة المفرطة والإقدام الخارق.

وكلٌ منهما اعتمد في أول أمره على عدد محدود من الرجال والأنصار :

أرسى عبد الرحمن الداخل في المنكب على ساحل الأندلس وليس معه إلاّ مولاه بدر، ثم سار في عدد قليل لامتلاك الأندلس كلها.

واقتحم المولى مُحمد الشريف حصون تابوعصامت كبداية في عددٍ قليل من الرجال، مستعملا نفس تكتيك المباغتة الذي استعمله عبد الرحمن.

ووُصِف كل منهما بالمبخّت، أي صاحب البخت وأخيرا فإن كلّ واحدٍ منهما وَضع الأساس لدولة شامخة البنيان.

وقد نوه المؤرّخون بشجاعة المولى محمد، ومنهم القادري الذي يصفه بأنه «من أقوى الفرسان نجدة وشهامة، وإقداماً وزعامة»[27].

☆ ☆ ☆

لقد كان مولاي محمد - بالإضافة إلى ماذكر من تكوينه الشامل - على علم تام بالخريطة السياسية في المغرب يومئذ، وكان على إطلاع كامل على أحوال منافسيه، ولذلك رأيناه ينظر إلى محمد الشيخ السعدي الأصغر بمنظار الشاعر العربي الذي يقول :

دع المكــــارمَ لا ترحَـــلْ لبُغْيَتِهـــا
واقْعُـدْ فـإنَّـكَ أنتَ الطـاعِمُ الكـاسي

ويخاطبه بقوله :

دعْ عَنْـــكَ في الحَمْرا مُروقَ سَفَرْجَـــلِ
وَمُـــدَرْبَـلاً[28] بِـــهِ زَعْفَرانٌ وَفُلْفُـلُ

ويخاطب الدلائيين والملاليين بما يدلّ على معرفته بخبايا زواياهم.

وكان عارفا بأحوال الأتراك الذين كانوا يصاقبون ملكه، وهو يصف جورهم وغدْرهم فيقول :

«عادَتْ عوائدُ طبعكم في الجنود والرعايا عللا، [فلم يثمر] ما غرستموه في الغالب غناء ولا غللا، تغدرون الإخوان والأصحاب، وتقفرون من الأقارب الذخائر والرّحاب، حتى صرتم كالدهر والمنية، لا يوثق منها بأمان ولا نية».[29]

إن معارف مولاي محمد العسكرية والمدنية جعلت منه قائدا حربيا ماهرا، تعتمد خططه الحربية على أساليب الحرب الخاطفة، بما تتطلبه من سرعة ومباغتة، كما جعلت منه في الوقت نفسه سياسيا محنكا، وقد كانت سياسته حسبما يستخلص من رسائله تطمح إلى تحقيق ثلاثة أهداف :

1 - **توحيد البلاد.**

2 - **طرد الأجانب من الثغور.**

3 - **دفع الأتراك عن منطقة المغرب العربي.**

ويتجلى بعد نظره السياسي أيضا في تخليه موقتا عن التوجه إلى جهة الغرب، فبعد مواجهاته المعروفة للدلائيين والملاليين، وهي المواجهات التي قصد بها - على ما يبدو - امتحان صمودهم، وإحداث الخلخلة في صفوفهم، وبعد استيلائه على فاس، وهجماته على نواحيها، نرى أنه يتخلى عن ذلك كله، ويفعل ما فعله قبله مؤسس دولة المرابطين، فيعود إلى الصحراء، **ويتجه نحو الشرق**، وكأنه أحس بأن عليه أن يوسع نقطة انطلاقه.

إن توجه المولى محمد نحو الشرق - ومفهومه الجغرافي يومئذ واسع - كان اختياراً سياسيا، يستند فيما يبدو على جملة أسباب وينطوي على عدة أبعاد :

أولها : البعد الجغرافي؛ حيث إن شرق المغرب بمفهومه الواسع يؤلف مع الجنوب وحدة جغرافية متماثلة

27) القادري : نشر المثاني

28) لون من الطبيخ ما يزال معروفا بهذا الاسم.

29) الرسائل المخطوطة.

في البيئتين الطبيعية والبشرية، وكان بين الجنوب والشرق يومئذ تواصل كبير عبر المسالك والطرق.

وثانيها : البعد التاريخي؛ وقارئ تاريخ المغرب يلحظ ولا شك هذا التوجه الشرقي - أي التوجه نحو الشرق - في سياسة دول المغرب المتعاقبة، فقد بلغ الأدارسة إلى تلمسان وما إليها، واستمر هذا التوجه فيما بعد، وهو واضح في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين، ثم تجدد هذا التوجه نحو الشرق عند قيام الدولة السعدية في عهد محمد الشيخ الأول، الذي اتجه نحو الشرق - قبل أن يستكمل بسط حكمه على المغرب كله - فاستولى على تلمسان وما إليها إلى حدود شلف، وتكرر هذا التوجه في هذه المحاولة الجريئة التي قام بها المولى محمد بن الشريف، وهي المحاولة التي بلغت أصداؤها إلى مشارف قسنطينة، وكانت لها عواقب سياسية كبيرة، وأحدثت هزة بل زلزلة في المغرب الشرقي، تصورها أدقّ تصوير هذه الرسائل المتبادلة بين الوالي التركي عصمان ومولاي محمد بن الشريف، وفيها يشير محمد الأول إلى ميراث المغرب الكبير، ويذكر ما كان في الدول السابقة ويقول : «ونحن بما خلفوه أولى، ببراهين صدقت لنا الفعل والاعتقاد والقول».[30]

ومنها البعد الروحي : فقد كانت قبائل الشرق بما فيها قبائل الصحراء الشرقية تدين بالولاء للأشراف العلويين في سجلماسة، جاء في رسالة المولى محمد إلى الباشا التركي : «ومع هذا فخدام جدنا مولانا علي ومولاي الشريف، يردون علينا من خريف إلى خريف».[31]

ومن المعروف أن حكم الأشراف في عهد المولى الشريف وفي عهد ولده المولى محمد كان يشمل منطقة توات وأوجرت.

وقد ذكر العياشي الذي حج عام 1059 هـ - أي في عهد المولى محمد - خروج الركب من بلاد أو جرت (توجرت) وقال : «وهي آخر البلاد التي هي تحت طاعة الشريف صاحب سجلماسة رحمه الله وعفا عنه».[32]

ومنها البعد العروبي : فقد كانت القبائل العربية في المغرب الأوسط تنفر من حكم الأتراك، وتميل إلى الأشراف العلويين لعروبتهم وشرفهم، وهذا واضح في انحياز قبائل حميان وغيرها، إلى المولى محمد والتفافهم حوله.

ولا ننسى في الأخير أن نشير إلى **البعد الحدودي** الذي أصبح مطروحا بإلحاح منذ دخول الأتراك في المنطقة.

من هذا كله : **نعرف الوعي التاريخي العميق والحس السياسي الكبير اللذين كان يتصف بهما محمد الأول، فقد رأى أن يحمي ظهر المغرب ويطمئن على حدوده الشرقية قبل أن يرجع إلى بسط نفوذه على المغرب كله.**

وقد شاءت الأقدار أن تكون نهايته في هذا المغرب الشرقي في سنة 1075 هجرية، وهو التاريخ الذي رمز له صاحب الدر السني رمزا لطيفا حين قال :

وإنّ الشريفَ بْنَ الشّريفِ محمّداً
لشَهْمُ الملوكِ الضّاربينَ بأنْصُلِ

ورمز التاريخ يجمعه حروف كلمة **شهم**، فرحم الله محمد الأول فقد عاش شهما ومات شهما.

وبعد، فإني لم أعرض في هذا الحديث لمآتي محمد الأول وأعماله، إذ أن قصدي هو محاولة رسم صورة له، تبرز من خلالها الملامح الثقافية لهذا السلطان المؤسس، الذي تحمل اسمه أكبر مؤسسة علمية بهذا الإقليم الشرقي العزيز، **وأرجو أن تخصص له أول رسالة عليا في هذه الكلية**، وأنا مستعد لأن أضع بين يدي من ينهض بهذه الرسالة الوثائق والمراسلات المصورة التي في حوزتي،[33] وبالله التوفيق.

30) الرسائل المخطوطة.
31) المصدر نفسه.
32) راجع أول الجزء الأول من رحلة العياشي.
33) لقد تم هذا بالفعل وسجل أحد الأساتذة المساعدين بالكلية رسالته في الموضوع وسلمته صور الرسائل المذكورة.

من تاريخ مليلة الأسيرة

مواقف جهادية للمولى الرشيد والمولى إسماعيل في الدفاع عن مليلة

للأستاذ حسن الفكيكي

إن انطلاق أولى شرارات الغزو الإيبيري وجهة السواحل المغربية منذ أوائل القرن التاسع الهجري (أوائل الخامس عشر الميلادي) حدث خطير، لم يلبث أن أثار حماس الإسبان، للبحث عن فراغ لهم بالساحل المتوسطي. وكان الحظ إلى جانبهم، حينما وجدوا الثغرة المناسبة لهم بساحل قلعية في بداية القرن العاشر الهجري.

وإذا كان المغرب قد ضمد بعض جراحه باسترجاع المراكز التي كانت بيد البرتغال، المركز بعد الآخر، فإن الحظ لم يكن بجانبه حينما نفذ العديد من المحاولات، مستهدفا استرجاع المراكز التي كانت بيد الإسبان، **ومن أجلها خصصنا هذه الصفحات، قصد استعادة مجموعة من صور مقاومة الوجود الأجنبي بثغر مليلة[1]، الواقع بأقصى الشمال الشرقي المغربي.**

واخترنا لتلك الصور فترة جد حاسمة من تاريخ كفاح المغرب من أجل استرجاع سيادته على الأجزاء المغتصبة من ترابه، كشفنا عنها الغطاء، بفضل العثور على مصادر مغربية وأجنبية جديدة. وسيتعلق الأمر بفترة تأسيس الدولة العلوية المجيدة، وبعهد كل من المولى الرشيد والمولى إسماعيل.

☆ ☆ ☆

ترتبط حركة مقاومة الوجود الأجنبي في الشمال الشرقي المغربي بتسرب الإسبان إلى مليلة[2]. ولم يكن الغزاة عدوا يجهل السكان عنه كل شيء، بل وجدوا أمامهم خصما تقليديا تمرسوا على حربه، بالمشاركة في خوض المعارك الأندلسية الكبرى، وبسبب ذلك لم تكن أطماع

---

1) هذا هو الاسم المغربي الذي عرفت به المدينة المغربية منذ اللحظات الأولى من تحررها من النفوذ الأجنبي، ومثل الوجود البيزنطي آخر مرحلة من ذلك الوجود. وما لحق الاسم من تحريف يعود أصله إلى تقليد للاسم الإسباني المحول عن أصله المغربي : Melilla.

2) 19 محرم 903 هـ. 17 شتنبر 1497م.

الإسبان بعيدة عن إدراك رجال قلعية. ومنذ الوهلة الأولى التي لم يشبها أي تردد، توطدت العزائم على مقاومة المعتدي، وإشهار السلاح في وجهه دفعا للأخطار الأولى.

ولن تأتي الخطوة التنظيمية الأولى، التي انبنت عليها أسس حركة المقاومة إلا بعد تسرب الإسبان إلى مدينة غساسة[3]، حينما تطوع لتلك المهمة المدعو «عليّ بن إبراهيم العطار الأندلسي»، برفقة جماعة من الأندلسيين. وبفضل تلك المبادرة. تم تنظيم الوسط الجغرافي للحركة، واختير للتنظيم، في نطاق التعبئة السكانية، نسق يدمجه في الحياة الاجتماعية إدماجا كليا ودائما، وبه أصبحت مسألة مقاومة الإسبان واجبا يقع على عاتق قبيلة قلعية. هذا هو التنظيم الذي ستتوارثه الأجيال المتعاقبة السابقة لظهور الدولة العلوية.

وإذا ما حاولنا وضع قائمة لإيجابيات حركة المقاومة بمليلة إلى غاية منتصف القرن الحادي عشر الهجري، سيتبين لنا أنها لا تبتعد عن التأكيد على أهمية الحراسة المستديمة المفروضة على الحامية الإسبانية وعلى الحصار الاقتصادي، الذي كان مصدر حرمان الخلية الأجنبية من ثروات المنطقة.

لا يعني صمود المقاومة المغربية أن الإسبان لم يتوصلوا إلى تحقيق بعض التقدم في الأراضي القلعية، وهو تقدم ثابت أتاحته عدة فرص خلقتها الظرفيات التي مرت بها بلادنا، نجدها ضمن خلفيات تمزق السلطة المركزية بعد وفاة أحمد المنصور السعدي[4]، وتمثلت بوضوح في بعض الثورات التي مست قلعية، كتلك التي حمل لواءها الإسبان، من وراء دفع الناصر بن عبد الله الغالب في بداية القرن الحادي عشر الهجري[5]. كما تمثلت تلك الظرفيات في اختلال الوضع بسبب سوء المواسم الفلاحية واجتياح المجاعات للربوع الريفية[6].

هذه هي العوامل التي نفسر بها تقدم الجنود الإسبان في الميدان الفاصل بين أسوار مليلة وموقع رباط المجاهدين[7]، وتلك هي الظروف التي مكنتهم من تشييد سلسلة من الأبراج المنعزلة خارج مساحة المدينة، مما يلي الجهة الغربية، على مسافة تقدر بنحو ألف متر عرضا، في حدود المجرى الأدنى لوادي المدور[8]. ولم يتمثل خطر تواجد تلك الأبراج في تقدمها داخل الأراضي المغربية فحسب، بل لأنها كانت بمثابة حاجز سميك ترتد أمامه جميع محاولات وصول المجاهدين إلى أسوار المدينة. واستفادت مليلة من تواجد الأبراج في مواقع متقدمة لتوسيع رقعتها، مما أدى إلى ظهور ثلاث نطاقات من الأسوار والأسيجة تعرف لدى الإسبان بالمحاط[9]، ينطبق الأول منها على موضع الصخرة الكلسية التي تحمل مباني المدينة أو الحصن، وهو المكان الذي نزل به الجنود أول مرة، ويكون المحاطان الباقيان الدرع الواقي للأول[10].

هذا هو الوضع الذي وجدنا عليه مدينة مليلة، قبل الدخول في الفترة التي نريد تقديم البيانات التاريخية عنها، وتبسيط الظروف المحيطة بالحركة الجهادية منذ أواسط القرن الحادي عشر الهجري، بدءاً باللحظة التي لمسنا فيها دخول المقاومة، في مرحلة التعبير عن تقدير الخطر الذي يمثله انتصاب الأبراج الخارجية المقابلة للمواقع

3) غساسة هي المدينة القلعية الثانية الواقعة على الساحل الغربي، احتلها الإسبان في 912 هـ - 1506م. وتمكن المغاربة من استرجاعها بعد 27 سنة من الأسر.

4) لمسنا تأثر قلعية بالنزاع الأسري الذي شب بين أبناء المنصور، مما ذكره عيسى البطوئي في «مطلب الفوز والفلاح». انظر ما نشرناه على صفحات هذه المجلة بالأعداد : 252 و253 و256.

5) خرج الناصر من مليلة في شعبان 1003 بإيعاز من فليب الثاني، واستعان بقلعية والقبائل المجاورة، كأولاد شعيب، لقيادة ثورة ضد عمه المنصور. (مناهل الصفا للفشتالي).

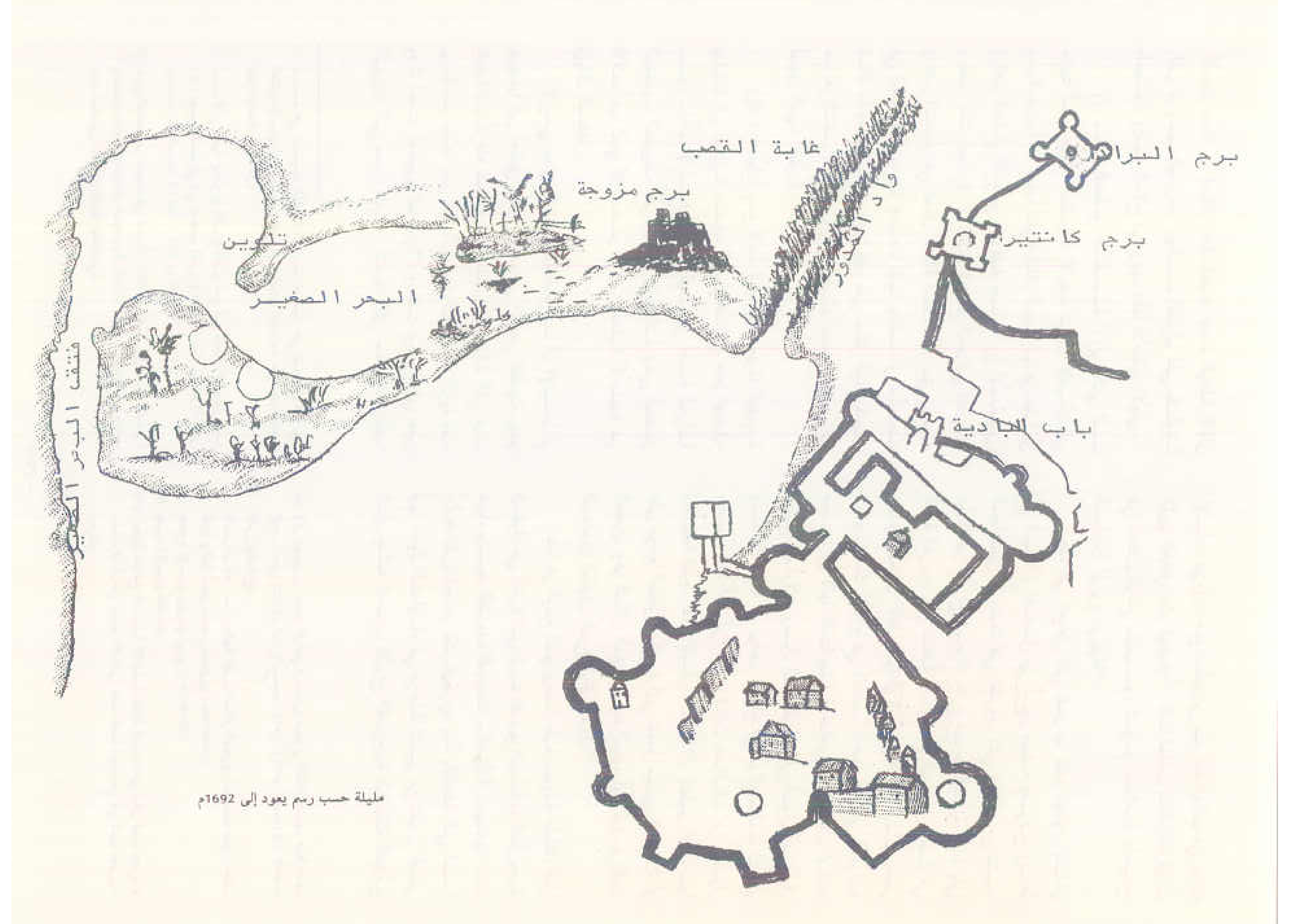
6) ذكر عيسى بن محمد الراسي «...حتى استولى الكافر عليهم ميلا منهم إليه... حتى ابتلاهم الله بالمسغبة، باعوا أولادهم للنصارى». (مطلب الفوز والفلاح).

7) تأسس الرباط منذ بداية القرن العاشر الهجري، موضعه متوار خلف كدية واقعة أسفل منحدر المعازيز (cabrerizas).

8) يدعوه الإسبان ريودي أورو (Rio de Oro).

9) يسميه الإسبان Recinto.

10) يحتل موضع المدينة الأصلية كتلة تمتد على شكل شبه جزيرة صغيرة، ترتفع بنحو 30 مترا عند الحد الجنوبي من شبه جزيرة هرك.



مليلة حسب رسم يعود إلى 1692م

الحربية المغربية[11]، حوالي سنة 1056 هـ. (1646م). وكان باعث تلك الاستقاظة الانتصار الساحق الذي حققه القلعيون في ميدان تحكم فيه السلاح الناري الإسباني طوال حقبة تزيد على نصف القرن[12].

☆ ☆ ☆

كثيرا ما رددت المراجع الإسبانية، دون أن تتحمل عناء إطلاعنا على مصادر تلك الأخبار، أن مليلة لم تشهد حصارا أعنف مما عرفته أواخر القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري)، وأشارت بالذات إلى سنتي 1678 و1679م. معلنة عن سقوط سلسلة من الأبراج الهامة[13].

وقد كشفت لنا تقاييد ابن القاضي القلعي[14] و«استرادا» المليلي[15] عن واقع الأزمة التي عاشتها مليلة خلال عهدي مولاي الرشيد والمولى إسماعيل، نتيجة الدعم الذي قدمه العاهلان المغربيان للمجاهدين القلعيين، مما نعتزم تفصيله.

وسنستمع لأول مرة في تاريخ قلعية، إلى صوت أحد أبنائها، حين أتحفنا بتقييد، تتبع فيه نشاط المجاهدين برباط مليلة، ما بين 1079 هـ. و1093 هـ (1668 - 1682م). صاحبه **هو أحمد بن محمد بن أبي القاسم ابن القاضي**، حسبما عرف به نفسه، فهو إذن، من فرقة «القضيا»[16]. ترك لنا تقاييده في سبع صفحات مما وصلنا منها، يظهر أنها من خطه، قدم فيها :

- غزوات وقعت خلال عهد المولى الرشيد، بتدبير من القائد بلقاسم الشاوي القرمودي، ابتداء من 1079 هـ إلى 1081 هـ.

- غزوات نفذت خلال عهد المولى إسماعيل، قام بترتيب وقائعها القائد محمد بن مسعود القيطوني، ما بين 1084 هـ إلى 1092 هـ.

توافق المرحلة الأولى من الفترة المدروسة مجموعة التحولات السياسية التي ستتولد عنها بداية الدولة العلوية بشمال المغرب الشرقي، كنتيجة للتحركات التي قام بها المولى الرشيد، وكان احتضان «إقليم كرط»[17] له وكبدانة خاصة[18] عاملا من عوامل تجدد حيوية المقاومة.

التجأ المولى الرشيد، منذ آن اختلف مع أخيه المولى محمد، إلى «أولاد الحاج» في حمى الشيخ عليّ بن سليمان الكبداني، الذي أسند إليه مهمة تسيير شؤون إمارته الصغيرة[19]. ومن هناك دبر خطة قيامه ضد أخيه ببني يزناسن، حيث أعلنت بيعته، لتعم بسرعة ربوع الريف الشرقي، وذلك في سنة 1074 هـ. (1663م)[20].

فالظاهر إذن أن قلعية دانت له بالولاء، خاصة بعد أن تأكدنا من إشراف جيوشه على سهب «بوعرك»، القاعدة الجنوبية للأراضي القلعية، حيث تتوزع فرق مزوجة وبني يفرور، وتستقر جماعة من بني شكر في معازيها. وبعد ثلاث سنوات فقط، نتأكد، حين أخبر التاجر الفرنسي «رولان فريجوس»[21] سنة 1666م (1077هـ)، أن السلطان قد أحكم حصارا اقتصاديا وعسكريا على أرجاء المدينة، «فجنوده تراقبها وتمنع اتصال المغاربة بها»[22]. وجاءت تقاييد ابن القاضي القلعي، بعد سنتين من تاريخ نزول فريجوس، لتبدد كل الشكوك، وآنذاك كانت قلعية تابعة

---

11) انتظم عدد من المواقع على الضفة اليمنى من وادي المدور، عد منها ابن القاضي : أكدال، فج القلالين فج معدن التراب اللين، غابة القصب.

12) تسرد وقائع المعركة وثيقة محفوظة بخزانة الأسكوريال.

13) من تلك المراجع مجموعة من المقالات لرفائيل فرنانده، ودي كاسترو، نشرت بمجلة AFRICA، ومقال آخر نشر بمجلة تمودا بعنوان : Datos sobre el asidio de Melilla.

14) لا تحمل التقاييد عنوانا خاصا بها.

15) «خوان انطونيو استرادا» صاحب : Poblaciones generales de España.

16) توجد الفرقة حاليا ضمن خمس بني سيدال. أشار إليها صاحب تقييد نسب قبيلة قلعية، وتقييده بحوزتي، آل إليّ من عند أحفاد المؤلف.

17) يوافق هذا الإقليم حدود الريف الشرقي، إقليم الناظور الحالي، وبهذا الاسم عرف منذ العصر المريني.

18) القبيلة المعروفة بالجبال التي تحمل نفس الاسم، واقعة شمال المجرى الأدنى لوادي ملوية.

19) معلومات مستقاة مما ذكره «مويت» عن تاريخ المولى الرشيد.

20) زهر الأكم لمؤلفه الحاج عبد الكريم بن موسى الريفي. مخطوط بخزانة خاصة. كان المؤلف حيا سنة 1143 هـ. (1730م).

21) المصادر الغميسة. السلسلة الفرنسية 2. المجلد 1 ص 139 - 140.

22) نزل فريجوس بمرسى مليلة اضطرارا، ومنها انتقل إلى المزمة لمحاولة الاتصال بمولى الرشيد.

لمولاي الرشيد، يمثله بها الطالب بلقاسم الشاوي، بصفته رئيسا للقبيلة وللمجاهدين.

الإطار التنظيمي للحركة الجهادية

لعل أهم ما تمدنا به تقاييد ابن القاضي القلعي هو ذلك الإطار التنظيمي الذي ظهرت به حركة المقاومة إبان ربط قلعية الصلة بحركة مولاي الرشيد، والتفات هذا الأخير إلى تدعيم الجهاد القلعي. وتدل قراءتنا لتلك التقاييد على صدق ما تصورناه عن الحركة الجهادية بقلعية، من خلال الوثائق الإسبانية السابقة لهذه الفترة.

رئيس المجاهدين

يوجد في قمة الهرم التنظيمي رئيس للمجاهدين، وهو في نفس الوقت رئيس القبيلة وممثل السلطة المخزنية بها، غير أن أهم وظائفه انحصرت في تنظيم شؤون الجهاد، اعتمادا على ما تحت تصرفه من القوة الحربية الشعبية، وعلى خلاصة ما توصلت إليه تجارب محاربة الإسبان، وعلى حسن استغلال الوسط الجغرافي لحركة المقاومة. ويعد هذا عنصرا هاما يوفر للمجاهد مباغتة العدو[23].

وعلينا أن نتصور أن اختيار رئيس المجاهدين كان يجري وفق عرف معلوم متوارث على تعاقب الأجيال. فالمبادرة الأولى كانت تأتي من المجموعات الخمس المكونة لصلب القبيلة[24]، ليتأتى للسلطان تحرير قرار التولية تزكية لرغبة الأهالي، وكقرار نهائي دال على موافقته، استنادا إلى توصله بشهادة عدلية تتضمن موافقة أعيان القبيلة وكبرائها[25].

ولما كانت حياة الجهاد طابعا أساسيا في المجتمع القبلي القلعي، فإن اختيار رئيس المجاهدين لم يكن ليخرج عن مجموع أبرز الشخصيات التي عبرت عن كفايتها في ميدان المقاومة، وعلى الأخص منهم مقدمي أهل كل خمس من أخماس القبيلة. هذا هو ما يفسر وقوع اختيار المولى الرشيد على مقدم مزوجة الطالب بلقاسم الشاوي[26]، وانتقال اختيار المولى إسماعيل إلى مقدم أهل الكعدة، بعد ذلك.

ويعتمد رئيس المجاهدين اعتمادا كليا، أثناء خروجه إلى الميدان، على التنظيم القبلي الموروث منذ الاحتلال الإسباني لمليلة، انطلاقا من أن واجب الدفاع يقع قبل كل أي شيء على عاتق قبيلة قلعية. وما نعلمه من خلال «نسب قبيلة قلعية»[27] أن القاعدة السكانية كانت واسعة، لأننا وجدناها تتألف إجمالا بما لا يقل عن 104 وحدة، باعتبار عدد الأسر والفرق.

نظام النوبة

والخاصية الأساسية للتجمع السكاني تبدو في التقسيم الخماسي غير أن ضعف مجموع فرق «بني جافر» التي لم تتجاوز الستة، جعل مكانتها متدنية إذا ما قورنت بخمس مزوجة (27 فرقة)، وبني يفرور (27 فرقة)، وبني شكر (20 فرقة) والكعدة (19 فرقة). لذا اقتضى النظر، تعديلا لكفة المساهمة، أن تضاف حصة بني جافر إلى الكعدة. وبناء على ذلك فإن مساهمة قلعية في الجهاد كانت تصل إلى رباط مليلة على أربعة أقساط، ويتجلى هذا في نظام «النوبة».

23) اعتمدنا على تعداد وظائف رئيس المجاهدين، علاوة على ما جاء به ابن القاضي، على ما استخلصناه من الوثائق الإسبانية المعتمد عليها في رسالتي : «قلعية ومشكل الوجود الإسباني». الرباط 1984.

24) «تكونت» القبيلة القلعية خلال العصر المريني بفضل هجرات السكان من محور تلمسان وهران، ومحور النجود العليا الجنوبية الشرقية. ألفت عناصرها مجموعة من الأمزيغيين والعرب. لذلك بدت التقسيمات وكأنها قبائل قائمة بذاتها.

25) هو ما توصلت إليه دراسة شاملة لهذه النقطة من خلال المصادر السابقة لهذه الفترة والتالية لها.

26) من فرقة القرمود، مدشر «إشوين»، الواقع بجوار أولاد حم يش، وهو ضمن مزوجة.

27) لمجهول، سجل حوالي سنة 939 هـ.

وعلينا أن نلمس مغزى الالتجاء إلى الأخذ بنظام «النوبة». فإذا كان اتباعها ضروريا للوصول إلى إقرار الحلول الوسطى، لحسم خلافات الجوار أثناء توزيع المياه والأراضي الجماعية، فإن النظام يصبح لا غنى عنه لاقتسام مسؤولية الدفاع ضد الخطر المشترك. وكانت درجة خطورة الوجود الإسباني على الساحل القلعي في ذروة تلك الأخطار.

وما أمكن التوصل إليه، فيما يخص ضبط الطريقة التي كانت تسلكها التجمعات الخمسة لتقديم نوبتها، أنها كانت تتبع خطا منكسرا : فمن مزوجة الواقعة على السفوح الشرقية من جبل قلعية، إلى خمس بني شكر المحتل للسفوح الشمالية، فبني يفرور الممتدة في الجنوب، لتصل في الأخير إلى الكعدة وبني جافر الواقعتين على الهضيبات الغربية[28].

ولم أقف على الحصة التي كان يساهم بها كل خمس من الأخماس القلعية إلا ما ذكره ابن القاضي القلعي عن حصة مشاركة أهل الكعدة، حينما ذكر أن حصتهم وصلت إلى العشرين فارسا، ممن كانوا برفقة المقدم محمد بن مسعود القيطوني، وهو عدد قريب من المتوسط الحسابي، الذي ينتج عن تقسيم عدد الفرق البالغ 104 فرقة، أي أن كل مجموعة وجب عليها أن تقدم خمسة وعشرين مجاهدا. إلا أننا نعتقد أن الحصة المقدمة لم تكن تخضع للحسابات الدقيقة أكثر من خضوعها لحرية تصرف مختلف أخماس القبيلة.

وبالطبع فإننا لا نتحدث الان إلا على الحصة الواجبة على المجموعات الأربع لتمثل بها خمسها في رباط مليلة. إلا أننا لاحظنا أن عدد المجاهدين تجاوز الحصة المفروضة بمقادير كبيرة، تتناسب حسب خطورة الموقف. ولذا يمكن التحدث عن وجود فرق احتياطية، دأبت الحركة على رصدها لمواجهة أسوأ الاحتمالات.

وستبقى المدة الزمنية التي كانت تستغرقها كل «نوبة» وهي مرابطة أمام أسوار مليلة، مجهولة لدينا. والأرجح أنها كانت تختلف مدتها حسب فصول السنة، تبعا للأشغال التي يتطلبها الموسم الفلاحي. فقد وجدناها مثلا في شهر أبريل مقتصرة على ثلاثة أيام فقط[29] لاقتراب موسم الحصاد، بينما امتدت الفترة إلى خمسة عشر يوما في شهر يونيه[30]. ونقدر أن المدة ستتناقص مرة أخرى تحسبا لموسم الحرث.

وفي ظروف من تعبئة الجهود الشعبية لصد الخطر الأجنبي، مثل التي يعرضها ابن القاضي القلعي، لمنا صدور أوامر قائد المجاهدين إلى جميع مقدمي الأخماس لحضور الغزوة، برفقة حصة معلومة من الغزاة، ليتم توزيع المهمات عليهم حسب الخطة المرسومة.

رباط مليلة القلب النابض لحركة الجهاد

عد إيجاد مركز لحراسة الحدود الفاصلة بين أسوار مليلة والنقطة الآمنة التي ينبغي أن يرابط بها المجاهدون ضروريا. فهو الذي سيتلقى الإشارات الأولى من مركز القيادة العليا[31] والتعليمات الأخيرة المتعلقة بتحركات الإسبان داخل أسوار المدينة وفي الميدان الخارجي.

وإلى غاية نوفمبر 1497م، لم يكن القلعيون قد استقروا بصفة نهائية على اختيار المكان المناسب لموضع الحراسة. لكن هذا أصبح ملحا إثر احتلال الإسبان لغاسة. ولاشك أن اختيار ذلك المكان الملائم كان عليه أن يضع عنصر الأمن فوق جميع الاعتبارات، إلى جانب مراعاة سرعة التدخل في الميدان، ومن أجل ذلك وجب استغلال الشروط الطبيعية التي تجلت في بعده النسبي عن أنظار الإسبان المشرفة من علو الأسوار، وعن نيران المدفعية. وتطلب هذا أن يكون الموضع محتجبا وراء كدية واقعة

28) حسبما جاء به صاحب تقييد نسب قبيلة قلعية.
29) ما استخلصناه من مجموعة من وثائق سمنكاس، تمتد على طول فترة القرن السادس عشر.
30) حسبما استنتجناه من وثائق القرن الثامن عشر.

31) ظل حصن تزوطا مركز القيادة العليا لحركة الجهاد منذ بداية التسرب الإسباني إلى ساحل قلعية، بفضل موقعها الوسطى بجبل قلعية وارتفاعها الذي يتيح لها مراقبة الساحل القلعي.

جهة الغرب. وقد ظل المكان غير محدد لدينا إلى حين ظهور رسم أعده أحد قباطنة الإسبان[32].

يقع رباط مليلة، كما دعاه ابن القاضي القلعي[33]، على بعد يقترب من 1.400 متر، عند آخر منحدرات كدية المعازيز السفلى[34]، ويوافق هذا الاختيار وجود مجرى وادي المدور الذي ينساب في اتجاه أسوار المدينة، ليصب عند قاعدتها الجنوبية الغربية[35]. فعلاوة على الفجج التي يتركها تعمق الوادي، كانت ضفتاه محفوفتين بغابة من القصب، تمتد على مسافة تقدر بنحو ستمائة متر[36].

وتتواجد على طول تلك المسافة أكثر المواقع المستغلة من طرف المغاربة لنصب الكمائن. وعرفنا ابن القاضي القلعي، ببعض تلك المجازات، التي كانت مصدر الحذر للإسبان وتخوفاتهم، مثل التي عينها بأكدال، الواقع بغابة القصب وعلى الضفة اليمنى من وادي المدور، ثم فج «معدن التراب اللين»، الذي كان بالقرب من المصب وفج القلالين الذي كان بجوار أكدال.

كانت تلك المواقع مصدر تفوق المغاربة، فهي التي تضع في أيديهم بادرة الهجوم المفاجئ، يستعينون بها على ما ينقصهم من السلاح الناري[37]. ومن تلك المواقع تمت مراقبة خروج الإسبان من الباب الغربي الوحيد المتصل بالبر[38]، وانتشارهم في فحص المدينة والتجاءهم إلى الأسوار الخارجية.

كان تقديم تلك التوضيحات عن رباط مليلة مناسبا لفهم تحركات المجاهدين في فحص المدينة. ويبقى علينا أن نعرف بالتنظيم الحربي الذي كان قوام حركة الجهاد في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، تتميما لما ذكرناه عن إقرار نظام «النوبة» واختيار موضع الرباط.

فعلى رأس كل حصة واردة إلى رباط مليلة من التقسيمات الأربعة كبيرها المعروف بالمقدم، يختار من بين أجلّ فرسان الخمس الذي يمثله وأكثرهم نجدة وإيثارا للجهاد ومعرفة بمسايسة الغير[39]. ونعرف أن مهمته كانت جد دقيقة، يضع نصب عينيه، قبل كل شيء، واجب منع جنود الإسبان من الخروج إلى الميدان، والحيلولة بينهم وبين استيفاء أغراضهم من أجنة فحص المدينة[40].

وتوحي الوثائق الإسبانية، ومعها تقييد ابن القاضي القلعي، أن المقدم كان على علم بما ينوي حاكم مليلة عمله في اليوم الموالي، ليتسنى له ضبط الترتيبات المناسبة من اختيار المواقع ونوع المكائد الحربية. وأغلب الظن أن الأخبار كانت تصله ليلا، مثلما لمسناه عند الإسبان، ومن هناك جاء توزيع الأعمال على الغزاة قبل طلوع الفجر من اليوم الموالي، وهو التوقيت الذي يتحينه الإسبان للخروج من المدينة[41].

وعلى المقدم أن يسارع إلى إخبار القبيلة وإشعار قائد المجاهدين بما يجد من الطوارئ، أو بما هو مرتقب، كلما أحس أن استعداداته لمواجهة الموقف تتجاوز احتمال

---

32) هو فرنسيسكو دي مراندا (Francisco de Miranda) صاحب : Diario del asidio de Melilla en 1774.

33) عرف بعد ذلك برباط الكرمة خلال القرن 19، ووصل إلينا باسم «جنادة للا ثورثوت».

34) المعازيز : المدشر الذي لازال معروفا بنفس المكان والاسم، حول الإسبان بعد ترجمته إلى cabrerizas.

35) معروف لدى الإسبان بـ Rio de Oro، أي وادي الذهب.

36) هي المسافة الممتدة حاليا من قنطرة «تسريو» (Tesorio) إلى مصب واد المدور.

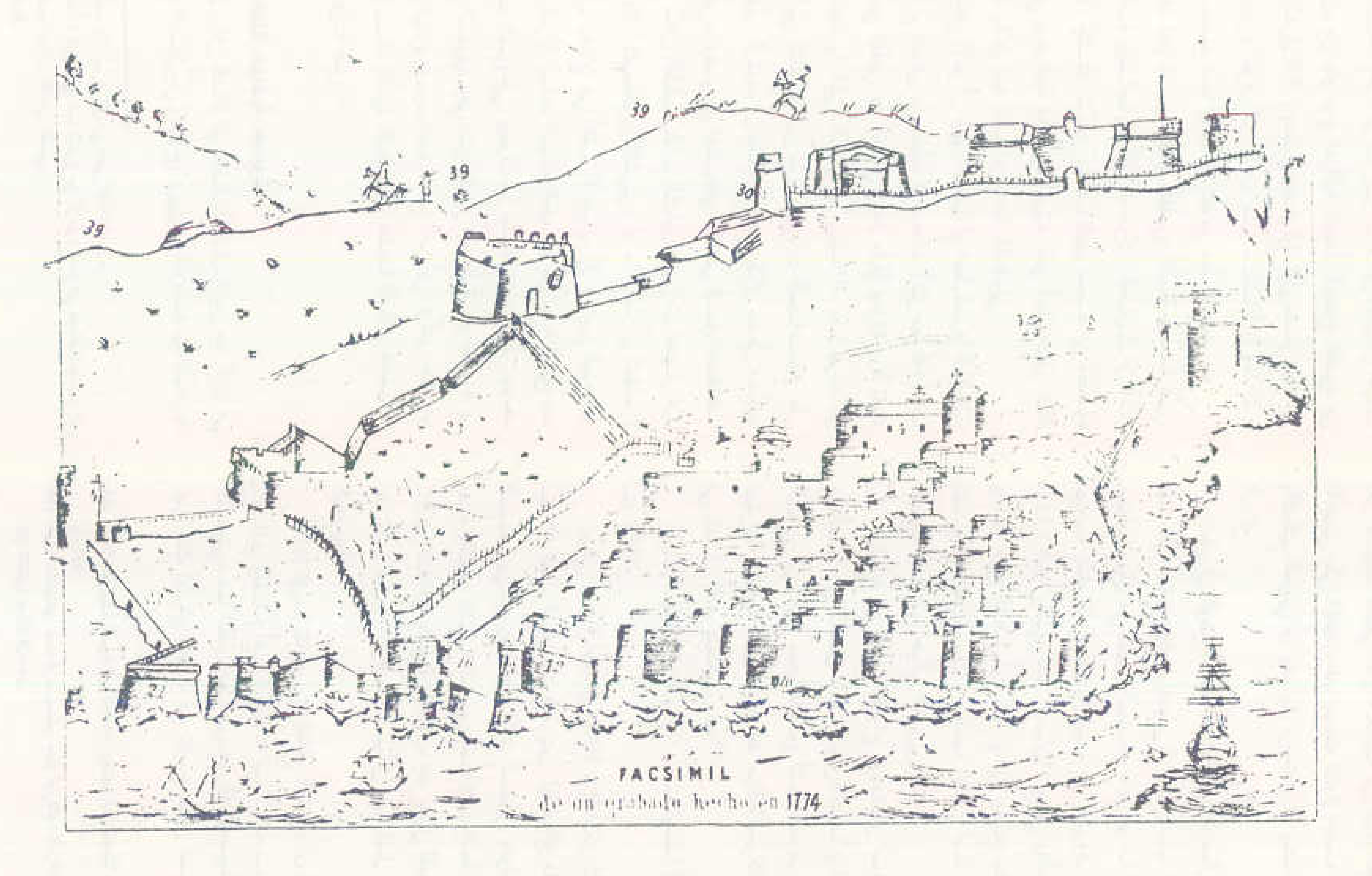
37) لم يعرف القلعيون استعمال البنادق إلا في سنة 1555م. ولم يستخدموا السلاح المدفعي إلا في 1716م.

38) هو الباب المعروف بباب البادية، المتصل حاليا بقنطرة «أرنبيكي» (Hornabique).

39) معلومات مستقاة من تقاييد ابن القاضي القلعي.

40) كان خروج الإسبان ضروريا للحصول على المياه، ولجمع الحطب والعشب وجلب مواد البناء وللعمل في البساتين، مما يعرضهم على الدوام لغارات المغاربة.

41) هناك عدة أمثلة تخص المخبرين المغاربة الذين كانوا في خدمة حكام مليلة خلال الفترة السابقة لمنتصف القرن الحادي عشر الهجري، ولم نعثر ولو على مثال واضح من جانب المغاربة إلا أن بعض الوقائع دلتنا على أن أخبار الإسبان كانت تصل بنفس الطريقة إلى المغاربة سيما من أولئك الذين يدخلون إلى المدينة بقصد افتداء الأسرى.



مليلة من رسم يعود إلى سنة 1774

رجال «العسة». وهذا هو ما يثير اندهاش الإسبان حينما يشاهدون، من علو برج المراقبة، انحدار الجموع الغفيرة من الفوح الشرقية[42] وينضوي تحت لواء كل مقدم عدد من المجاهدين، يعرف كل واحد منهم «بالغازي»، وهو لقب شريف سيصبح علما يحمله الأشخاص منذ ولادتهم.

وقد قدم لنا ابن القاضي القلعي، لائحة متضمنة لأسماء أهل قلعية ومساعديهم الغزاة، مركزا الحديث عن أهل الكعدة، أولئك الذين ينتسب إليهم محمد بن مسعود القيطوني وجماعة من أفراد أسرته. فمن أجله سطر تلك التقاييد، ولابن عمه محمد بن سعيد القيطوني.

وواقع الأمر أن جهود البحث لم تعط ثمارها المتوخاة منها، إذ لم نتمكن من إعطاء توضيحات أكثر مما أفادنا به ابن القاضي القلعي عن مقدمي رباط مليلة وغزاته. ولا تفيد الرسوم العقارية الشيء الكثير مما نبتغيه[43]. وما نعرفه من ابن القاضي القلعي، حين سرده لغزوات المجاهدين على عهد المولى الرشيد، أن مقدم مزوجة كان يدعى «غانما المزوجي»، وهو في اعتقادي الشخص الذي استخلفته مزوجة مكان الطالب بلقاسم الشاوي، حين تم اختيار هذا الأخير قائداً للمجاهدين القلعيين، إذا ما سلمنا أن المقدم لا يمكن أن يختار، في أغلب الأحيان، إلا من بين المرموقين من فئة الغزاة. وساعد المقدم الجديد من اسمه الشيخ عمر بن أحمد المزوجي. ونعرف من مقدمي بني شكر يوسف بن عمر الشكري. وفي بني يفرور ظهر المقدم أمحمد بن سليمان اليفروري ومساعده محمد أخرباش. وأكبر حظ من معرفتنا ستناله الأسرة القيطونية، قطبها القائد محمد بن مسعود وابنه عمر.

خطة جهادية جديدة

لم يكن هناك أي مجال للمقارنة بين ما كان في متناول الإسبان من السلاح، وبين ما كان منه بيد المغاربة، لكن المجاهد القلعي كان متفانيا في بذل الجهود لإرغام الأجنبي على التقهقر، فلم يمنعه تفوق خصمه في السلاح والتنظيم الحربي أن يقابل برمحه، ثم ببندقيته نيران المدافع.

غير أن الوضع أصبح حادا بالنسبة لرجال المقاومة، عند بداية خضوع قلعية للمولى الرشيد، بسبب التقدم الذي حققه الإسبان في فحص المدينة. هذا هو ما أدركناه من سياسة بناء الأبراج الخارجية في الظروف التي سبقت الإشارة إليها. والبرج لدى الإسبان[44] مبنى يتألف من طابق واحد، مربع الشكل أو مستدير، ولا يسمح سطحه بنصب القطع المدفعية، ويسع سطحه الأعلى لعدد محدود من الجنود، يصل إلى حوالي العشرين جنديا.

والغاية من إقامة الأبراج بعيدة عن أسوار المدينة، منتظمة على شكل نصف قوس، مساير لمنحى وادي المدور، أن تكون ملجأ للجنود أثناء التعرض للهجومات المغربية المفاجئة، وأن تغدو نقط مراقبة تحركات المغاربة في الميدان الذي يتحكمون فيه[45].

بدأت سياسة بناء الأبراج، حسبما توصلنا إليه، حوالي سنة 1571م.

وإلى غاية 1646م. (1056 هـ). أمكن لنا عد ستة منها[46]، تخير المهندسون الحربيون لها مواقع مقابلة لمواقع المجاهدين الموزعة على وادي المدور، ومواجهة لرباط مليلة والتلال الشمالية الغربية. وقد أكدت إقامة تلك الأبراج نتائجها الدفاعية بالنسبة للإسبان، فلم يسبق للمغاربة حسب علمنا أن هددوا الوجود الإسباني بها قبل هذه الفترة المدروسة.

وما تؤيده تقاييد ابن القاضي القلعي، أن القائد بلقاسم الشاوي ومقدم أهل الكعدة آنذاك محمد بن مسعود القيطوني، هما اللذان فكرا في طريقة توصلهما إلى التغلب على تلك الأبراج وهدمها في تاريخ سابق لسنة 1079 هـ.

42) موضع هذا البرج كان في أعلى قبة الكنيسة.

43) التجأنا إلى جمع هذا النوع من الرسوم أملا في إضافة جديد إلى شخصيات ابن القاضي القلعي.

44) Fuerte.

45) هناك خريطة تعود إلى 1692م. ومنها استنتجنا مواقع الأبراج وأسماءها.

46) هي : سنتياغو، سان فرنسيسكو، سان لورنثو، البرادا، سانتو تماس دي كنتيرا وسان فرندو.

(1668م). ويمكن لنا أن نتصور الصعوبة التي كانت تنتظر تنفيذ العملية. وتأتي تلك الصعوبة من انتصاب الأبراج على بقع مرتفعة نسبيا بالقياس إلى سطح الفحص. وشكل ارتفاعها وحصانتها العقبة التي اصطدمت بها كل محاولة للغزو والاقتحام، مما ترتب عنه خسائر في الأرواح، دون التوصل إلى تحقيق النتيجة المطلوبة.

هذا هو ما أسفرت عنه غزوات المجاهدين حينما حاولوا اقتحام الأبراج بواسطة سلالم مصنوعة من القصب وجذوع الأشجار، واستعمال الأعشاب لإشعال النيران والقذف بها إلى أعلى البرج، كما حدث حين الهجوم على برج «سانتو توماسدي كانتيرا» قبل 1667م. وتطورت طريقة نسف الأبراج إلى استعمال البارود، فكان على المجاهدين أن يحتالوا لإغفال حراس البرج إلى أن يتم خزن قارورة من البارود في حفر بأساس البرج، ليتلوه دور إشعال النيران في الفتيلة. وهذا هو ما حدث أثناء محاولة ثانية لهدم البرج السابق سنة 1667م. وهدم برج «أقمقوم» في السنة الموالية[47].

وتقديرا للصعوبات المحيطة بعملية الهدم «النسف» رأى بلقاسم الشاوي أن أنجع وسيلة لتحقيق الهدف، تقتضي حفر الأنفاق في اتجاه أساس جدرانها، ليتأتى تخريب جزء من بنيانها، ليسهل اقتحام البرج وأهله. تلك هي الخطة الحربية الجديدة التي استحقت أن ننعتها بجهاد الأبراج، وبها سقط اثنان من تلك الأبراج، بينما تمكن الغازي يوسف بن عمر الشكري من إنقاذ أزيد من عشرين أسيرا من أسرى المعارك السابقة.

والجديد الذي نعلمه من تقاييد ابن القاضي القلعي، هو ذلك الدعم الذي بعث به المولى الرشيد من بني يزناسن، نتيجة سعيه لإعلان الجهاد عن طريق علمائها. وتبينت النتيجة بعد ذلك في ساحة الميدان : «...وهم على تلك الحال حتى أمدهم الإمام بالإغاثة، واجتمعوا العلماء (كذا) من بني يزناسن بمن معهم ممن أراد الجهاد...»[48].

ونعيد هنا ما يثبت أن جزءا من التقاييد لم يصل إلينا، فالفرق واضح بين ما هو موجود بين أيدينا من غزوات المجاهدين، وما ذكره في ختام حديثه عنها : «وما وقع في القتال في دولة الإسلام مولانا الرشيد، وهو سبع سنين[49] والمسلمون في القتال في كل يوم وفي كل جمعة وفي كل شهر، والله أعلم به، ولا نحيط نحن على ما وقع، لأن الكفار كانوا غاضوا على المسلمين».

☆ ☆ ☆

تدخل المواقف الجهادية المعروفة على عهد المولى إسماعيل، ضمن الخطة العامة التي رصدها لمسألة الثغور المغربية المحتلة، حينما أعد لها برنامجا حافلا استغرق طيلة فترة حكمه، سنده القوي فيها الجيش الريفي الذي تم انتقاء أفراده، قوادا وجنودا، من مختلف القبائل الريفية[49]. ويهمنا أن نتعرف على نصيب قلعية من تلك السياسة الجهادية العامة.

لم تشعر حركة المقاومة القلعية بأي توقف لمشاريعها الجهادية. فبعد سنة واحدة من تولية المولى إسماعيل أخبرتنا تقاييد ابن القاضي القلعي، وما سجله الحاج عبد الكريم بن موسى الريفي[50]، أن السلطان الجديد عبر عن اهتمامه بأمر الجهاد أثناء تواجده ببني يزناسن. فكان من ذلك أن وافق على اختيار المقدم محمد بن مسعود القيطوني قائدا للمجاهدين وللقبيلة، خلفا للطالب بلقاسم الشاوي. ولابد أن يكون هذا الاختيار مرافقا للتقدير والإعجاب والتشجيع، إذ أن المولى إسماعيل عبر عن ذلك بتسليمه للقائد الجديد جوادا كان قد جاءه ضمن هدية أهل سوس.

47) لم نستطع أن نتعرف على الاسم الإسباني لهذا البرج، لصعوبة تحديد موقعه من خلال التقاييد.

48) مقتبس من حديث ابن القاضي عن غزوة ما بعد هدم برج أقمقوم.

49) المثال نجده في عدد من ضواحي المدن التي تم تحريرها في العهد الإسماعيلي، كما هو الحال في فحص طنجة، وبدالرة كزناية خاصة.

50) صاحب زهر الأكم، مخطوط بخزانة خاصة. كان المؤلف حيا سنة 1143 هـ. (1730م).

ينتمي محمـــد بن مسعـود إلى أسرة أولاد عمر بن عيسى، من أهل الكعدة، كان صاحب «تقييد نسب قبيلة قلعية» أشار إلى أن الأسرة هاجرت من غياثة في تاريخ قدرناه بأواخر القرن التاسع الهجري[51]. وربما لعب الأصل الإدريسي في تزكية السلطان لاختياره. ويربط ابن القاضي القلعي، هذا الاختيار بالخصال الشخصية التي تحلى بها القيطوني.

تأسيس قصبة سلوان خطوة لإدماج الجيش المغربي في حركة الجهاد

على الرغم من أننا نفتقر افتقارا كليا إلى المصادر التي تضع القصبة الإسماعيلية الوحيدة بإقليم كرط في السياق التاريخي، **فإننا نعتقد أن الشعور الوطني هو الذي بلور الرغبة الملحة الهادفة لاسترجاع المراكز المغربية المحتلة، وهو الدافع الأساسي لبناء القصبة.** فعلى خلاف ما لوحظ في شأن القصبات التي أمر بتشييدها في النقط الاستراتيجية من المغرب الشرقي، كما هو الأمر بالنسبة لقصبات : عيون سيدي ملوك والركادة ومسون وتاوريرت، **فإن إحداث قصبة سلوان، عند قدم كتلة قلعية وفي مدخل سهب «بوعرك»، كانت الغاية منها مساندة حركة المقاومة ضد الوجود الأجنبي بمليلة.**

والحجة المدعّمة لهذا الرأي ما أشرنا إليه من خضوع قلعية للسلطة المركزية. ونضيف إلى ذلك عدم ظهور أي ظرف سياسي مزعج للسلطان من جانب القبيلة، مما نلمسه من تقاييد ابن القاضي وكتابات الحاج عبد الكريم الريفي، وتسجيلات «استرادا». وهو عينه الرأي الذي أبدته الأحداث الجارية بساحة الجهاد. ولم يبق سوى أن نشير إلى أن التاريخ المقترح لتأسيس القصبة، لا يمكن أن يبتعد عن سنة 1090 هـ. أو التي تليها. وهو التاريخ الذي ظهرت فيه قصبات المغرب الشرقي[52].

استمرار خطة هدم الأبراج ونسفها

لم يخبرنا ابن القاضي باستئناف حركة جهاد الأبراج إلاّ بعد مضي سبع سنوات من حكم المولى إسماعيل، إذ كان علينا أن ننتظر إلى غاية سنة 1090 هـ 1679م)، مما يشهد على اختفاء قسم من التقاييد، وهذا جد محتمل، إذ أن صاحبها كتبها في ورقات مستقلة بعضها عن بعض، تخص كل واحدة منها باستعراض غزوة من الغزوات. ولا يمكن أن نرد وجود هذا الفراغ إلى توقف حركة المقاومة، فهناك ما يؤيد عكس ذلك.

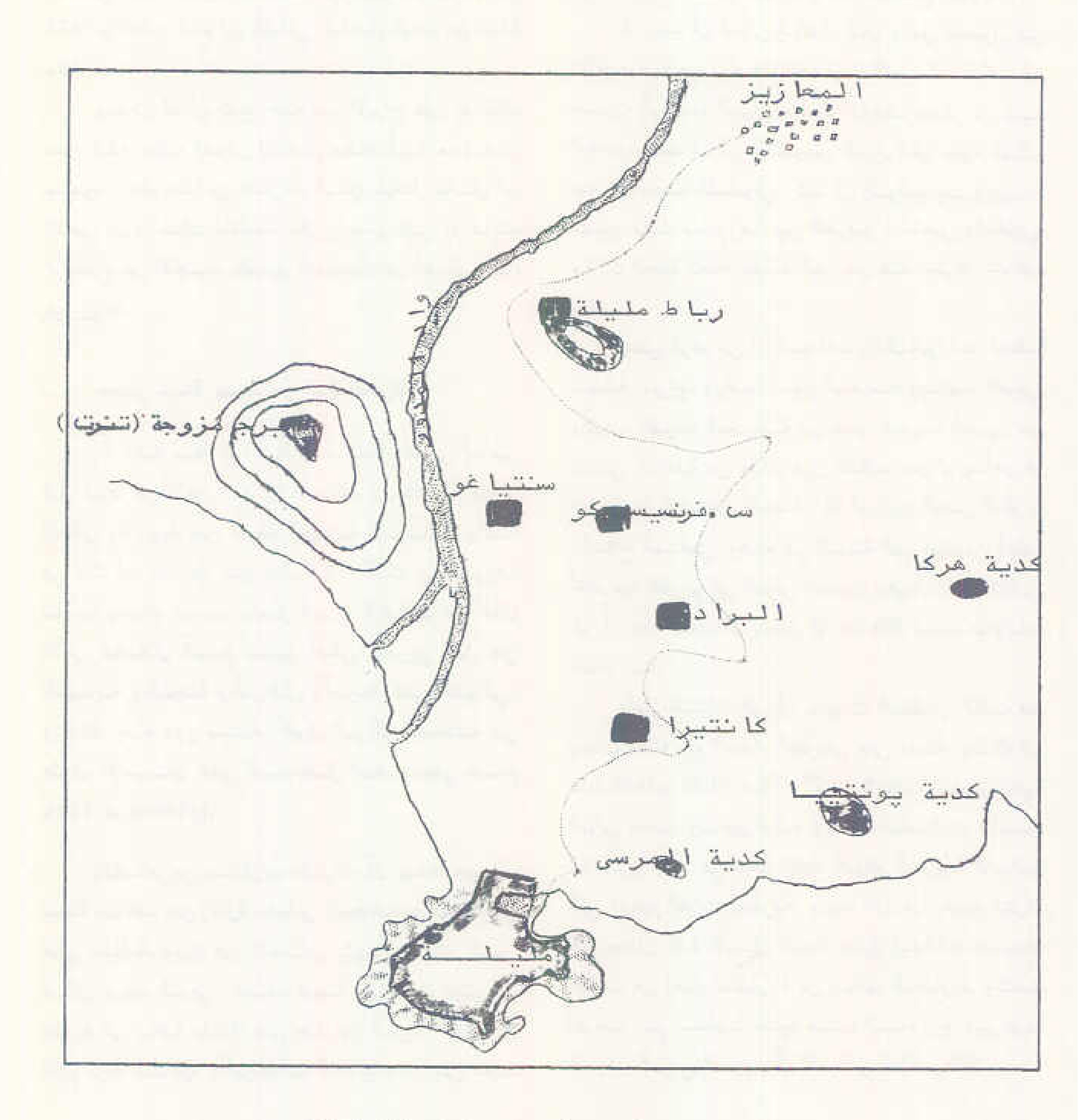
وأذكر هذا لأن الإسبان أشاروا إلى أن مليلة عرفت أزمة لا مثيل لها، نتيجة الضغط المغربي ما بين 1675م. و1680م. فحصار المدينة كان على أشده وفي سائر الأيام، فقدت مليلة من جراء ذلك أبراج المحيط الثالث[53] . ويعني هذا أن الإسبان تراجعوا خلال هذه المدة إلى أسوار المدينة القديمة. ولعل الغزوة التي نسبها ابن القاضي إلى محمد بن مسعود القيطوني تدخل في عداد غزوات هذه المدة المجهولة، لأنها وقعت إثر تسلم القائد هدية السلطان.

ومن حسن الحظ أننا تمكنا من ملء جانب من هذا الفراغ، بما تعرفنا عليه من أعمال المقاومة من خلال مذكرات «استرادا» عن حكام مليلة. ففي نظره أن الحرب بين المغاربة وجنود مليلة لم تعد إلى سابق عهدها إلا في سنة 1677م (1088 هـ). أي بعد أربع سنوات خلت من تعيين القائد محمد بن مسعود. ففي تلك السنة بعث المولى إسماعيل إلى قائد قلعية بأوامره للعودة إلى حصار مليلة،

51) حسب تقييد نسب قبيلة قلعية.

52) يظهر أن بناء قصبة سلوان لم يثر فضول ابن القاضي القلعي، إذا لم يكن ذلك دليلا آخر على ما سبق أن أشرنا إليه من ضياع قسم من التقاييد. وفي التاريخ المقترح لبناء القصبة كان الكاتب القلعي منهمكا في استعراض وقائع هدم برج فج معدن التراب اللين وبرج مزوجة.

53) برج معدن التراب اللين، وبرج مزوجة، وبرج فج القلالين أو برج الكبير.



التوسع الإسباني غرباً بواسطة الأبراج الخارجية ما بين أواخر القرن 16 والنصف الأول من القرن 17.

وشن حرب لا هوادة فيها على الأبراج، عد منها الكاتب الإسباني خمسة، توصل المغاربة إلى هدمها كلها ما بين 1677 و1681م. قدم ابن القاضي تفاصيل الهدم عن ثلاثة منها.

ويمكن لنا أن نتتبع خطة هدم الأبراج على يد القائد عمر، الذي عيّنه المولى إسماعيل مكان أبيه محمد بن مسعود. ونعلم هذا من «استرادا» الذي سيحل مكان ابن القاضي لسرد أحداث لمقاومة، لكن بإيجاز كبير، إذ غايته لم تخرج عن الاهتمام بتقديم التفاصيل عن أخبار حكام المدينة[54].

حصار سبتة يصعد من قوة الحركة

إذا كانت مليلة قد استأثرت باهتمام المولى إسماعيل قبل غيرها من الثغور المغربية المحتلة، فإن ذلك لم يؤهلها لتحظى بالأولوية ضمن الخطة الجهادية الإسماعيلية. والعلة في ذلك أن عددا من مدن شمال البلاد، كانت هي بدورها تطالب بإلحاح شديد بالعمل السريع لإنقاذها من أغلال الأسر. **فخلال تسع سنين أمكن تحرير كلّ من المهدية وطنجة والعرائش وأصيلا على التوالي. وآنذاك جاء دور سبتة، أقوى المراكز المحتلة من طرف الإسبان على الساحل المتوسطي عام 1116 هـ (1694م).**

والظاهر من مذكرات «استرادا» **أن بدء حصار سبتة ضاعف من إثارة حماس المجاهدين للتضييق على مليلة.** وميزة هذا الحماس يشهد به تكتل شعور قبائل الريف الشرقي، حسبما نفهمه من وصول جيش من بطوية إلى ساحة مليلة، على حد قول استرادا، أي قبائل إقليم كرط المستقرة بالمرتفعات الشمالية، من بني سعيد وتمسمان وبني أوليشك وبني توزين وكبدانة، إذا ما أردنا أن نحصر هذا التكتل فيما يعبر عنه المصطلح «بطوية».

لا ريب أن المولى إسماعيل كان يأمل الحصول على نتائج مرضية من وراء هذا الحصار. فالتعليمات كانت قد صدرت إلى ابنه المولى محمد للزحف بجيش من عبيد البخاري، لتنضاف إلى المتطوعين الذين كانوا بمعية القائد عمر بن محمد القيطوني. كما أن المواقع ومسؤوليات الهجوم كانت قد وزعت بين الطرفين : الشعبي والمخزني، وكانت الخطة العامة دقيقة كما عبر عنه استرادا كشاهد عيان.

وعلى الرغم من أن المجاهدين كانوا قد تخطوا منطقة الأبراج، وراقبوا أسوار المدينة وبابها الغربي، وأشرفت القوات المخزنية من علو كدية المرسى على المباني الداخلية من مليلة، فإن القائد عمر لم يتأخر عن إعلان صعوبة استمرار الحصار، إذا لم يزود الجيش المغربي بالسلاح المدفعي. وهذه هي المهمة التي بعث من أجلها أخاه عبد الكريم إلى المولى إسماعيل، وهو آنذاك بمكناس. غير أن هذا الطلب لم يتحقق إلا بعد ذلك بسبب صعوبات حصار سبتة.

وأشار «استرادا» إلى أن تعليمات السلطان كانت قد وصلت معلنة رفع الحصار المفروض على مليلة، وذلك في سنة 1696م. (1108 هـ)[55]. لكننا لاحظنا استمرار وجود المولى محمد، وتدخل قواته لإيقاف استعدادات الإسبان لبناء برج جديد في نقطة مقابلة للمواقع المغربية الشمالية التي تحتلها القوات المخزنية. وربما كان ما يعنيه استرادا هو رجحان كفة الإسبان نتيجة وصول إمدادات جديدة، تمكنت من إبعاد المغاربة عن مواقعهم المجاورة. وكانت الفرصة التي استغلها جنود مليلة لبناء برج كبير غرب المدينة بالموضع المعروف آنذاك بالغرسة الكبيرة[56].

---

54) يتكون المؤلف من مجلدين، نستغل الجزء الثاني في أخبار حكام مليلة.

55) Poblaciones generales de España ج 2 ص 514.

56) ساحة إسبانيا الحالية.

هذا هو ما أيدته جولات القائد الطاهر القلعي[57]، أخ القائد عمر بين أبراج مليلة ومحاولاته لاسترجاع المواقع المغربية الشمالية[58]، يدل على ذلك ما سجله الكونت دا الوا[59]، الذي كان بمليلة في تلك الآونة، حينما ذكر أن القوات المغربية المغيرة على الأبراج كان زمام قيادتها بيد أحد أبناء المولى إسماعيل[60]. وقد ظلت المدينة تحت رحمة حصار شديد إلى غاية 11 فبراير 1716م[61].

هذا مما لم يتعرض له استرادا، واكتفى بالانصراف إلى سرد محاولات المجاهدين لهدم برج «سان مكيل» و«سان فرنسيسكو»[62]. وإذا تتبعنا هذه الأحداث مع استرادا فإننا نجد أنها تتوقف عند أحداث 27 فبراير 1724م. وهو التاريخ الذي هاجم فيه الإسبان مقر إقامة القائد الطاهر ببرج «سان فرنسيسكو»، واستولوا على احتياط هام من أسلحته، وعلى عدد من الأعلام[63]، وأوحى إلينا أن هذا الانتصار كان نقطة النهاية للمقاومة المغربية بقلعية على عهد المولى إسماعيل. ونورد هنا ما قاله استرادا في ختام حديثه : «...ولو أن مسلمي سبتة رفعوا الحصار عن المدينة، إثر وفاة المولى إسماعيل، ملك فاس، وغادر جنود بادس محلاتهم، فإن مسلمي مليلة لم يتخلوا أبدا عن إقلاق راحة أهل المدينة، لأنهم ظلوا متشبثين بمواقعهم»[64].

من هذه الصفحات المخصصة لتقديم صورة من صور المقاومة المغربية خلال نصف قرن، **يتبين أن فكرة تحرير الثغور المغربية المحتلة بزغت في فجر الدولة العلوية، وتعلقت الفكرة بمسألة مليلة قبل غيرها. وبمجئ المولى إسماعيل اتسع مفهومها ونطاقها الجغرافي على الصعيد الوطني.**

وعلى الرغم من أن الحظ لم يسعف المغرب باسترجاع مليلة، فإن النتائج التي حصلت عليها حركة المقاومة مما يصعب إنكاره. لقد جاءت خطة جهاد الأبراج في الوقت المناسب لتسترد الاعتبار المعنوي الذي حظيت به قبل هذا التاريخ، وتعيد الوضع الذي كان لصالح مليلة إلى توازنه المعروف منذ بداية استقرار الوجود الإسباني. وستكون التجربة الجهادية أصل المبادرة المغربية الجريئة التي حاول بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله في بداية العقد الأخير من القرن الثاني عشر الهجري استرجاع ثغر مليلة.

57) تعرف داره المعروفة بتمزار ببني سيدال بقلعية.

58) تتألف من مواقع كدية الرسي وهركا والرأس (بونتيبا) ووادي أولا.

59) معلومات أخذت عن : كبرييل مراليس، صاحب : Efemerides y curiosidades.

60) المولى محمد.

61) المرجع السابق قبل هذا ص 15.

62) San Miguel – San Francisco

63) قدمت تلك الغنائم إلى فليب الخامس، فأمر بإيداعها في كنيسة Basilica de Atocha بمدريد.

64) Poblaciones generales de España. ص 522.

من تاريخ الحركة الثقافية في عهد المولى إسماعيل

للأستاذ
عبد الجواد
السقاط

يسرني، والشعب المغربي في غمرة الاحتفالات بالذكرى الخامسة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره على عرش أسلافه الكرام، أن أشارك في هذه التظاهرة السعيدة بعرض أحاول فيه التعرف إلى ما شهده عهد السلطان المولى إسماعيل[1] من حركة فكرية وأدبية واسعة، بسطت أجنحتها على ربوع المملكة المغربية قاطبة، وبوأت المغرب مكانة مشهودة في حقل الثقافة والإبداع، هذه المكانة التي استمرت في اطراد وتصاعد، إلى أن بلغت ما بلغته اليوم من شأو بعيد في العهد الحسني الزاهر.

ولعلنا ونحن نحاول النظر في واقع هذه الحركة الشاملة، محتاجون في البداية إلى رصد بعض المنشطات التي هيأت لهذه الحركة، والتي كانت سببا مباشرا في ازدهارها وتقدمها.

1) فمن هذه المنشطات أولا، تذكر الاستقرار الذي أصبح المغرب ينعم به منذ فجر الدولة العلوية المنيفة، ذلك الاستقرار الذي تجلى في القضاء المبرم على أسباب التفرقة والشقاق، والذي كانت له انعكاسات محمودة على واقع الثقافة والفكر في هذه الربوع.

فمن المعروف تاريخيا أن المغرب قد دخل بعد وفاة الخليفة السعدي أحمد المنصور سنة 1012 هـ فترة مضطربة حالكة من حياته، فصلت القول فيها كتب التاريخ المختلفة، وتميزت على الخصوص بما تعرض له المغرب من انقسامات واضطرابات كادت تقضي عليه، لولا أن تداركه الله بعنايته، فقيض له هذه الدولة العلوية التي تصدت لما كانت تعج به الساحة آنذاك من اضطرابات وفتن، وعملت على توحيد البلاد وتأمين استقرارها، إن على المستوى الداخلي، أو على المستوى الخارجي.

ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى الدور الحاسم الذي قام به المولى رشيد[2] من أجل توحيد المملكة، إلى أن «تمهدت له بلاد المغرب من تلمسان إلى وادي نون[3] من تخوم الصحراء»[4].

كما تجدر الإشارة أيضا إلى الدور الفعال الذي قام به المولى إسماعيل في سبيل استرجاع الثغور المغربية كالمهدية[5] وطنجة[6] والعرائش[7] وأصيلا[8]، وكذلك

1) امتدت مدة ملكه من سنة 1082 هـ إلى حين وفاته سنة 1139 هـ.

2) امتد ملكه من عام 1075 هـ إلى حين وفاته عام 1082 هـ.

3) وادي نون يقع مجراه شمال وادي درعة بإقليم سوس جنوب وادي ماسة، ويسمى في منبعه وادي الزاك.

4) الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية للحاج المشرفي الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1463 ص 96.

5) تم استرجاعها عام 1093 هـ.

6) تم استرجاعها عام 1095 هـ.

7) تم استرجاعها عام 1101 هـ.

8) تم استرجاعها عام 1102 هـ.

المجهودات التي بذلها بغية نشر ألوية الطمأنينة في ربوع المملكة، مما ألهم بعض الشعراء ليقول فيه :

وأطلت أيـــــــام السرور، فلم يصب
من قـــال : أيـــام السرور قصـــار
وجبرت من جرح الـزمـــان، فكـــذبت
أقـــوالهم، جرح الـزمـــان جبـــار[9]

كما ألهم شاعرا آخر فقال[10] :

مـــولاي إسماعيـــل يـــا شمس الـــورى
يـــا من جميـــع الكـــائنـــات فـــدى لـــه
مـــــا أنت إلا سيف حـــــق منتضى
اللـــــه من دون البريـــــة سلـــــه
من لا يرى لـــك طـــاعـــة فـــاللـــه قـــد
أعمـــاه عن طرق الهـــدى وأضلـــه[11]

2) ومن هذه المنشطات كذلك ما اشتهر به المولى إسماعيل من اهتمام بالعلم والأدب وتشجيع لرجالهما، وهو اهتمام يعتبر امتدادا لما عرف به أخوه المولى رشيد الذي تذكر من بين أعماله في هذا المجال، تشييده لمدرسة الصفارين بفاس لتكون مقرا لتعليم الطلبة وإيوائهم في الوقت ذاته، ثم بناءه للخزانة العلمية بإزاء الجامع الأعظم بفاس كذلك، والتي «أوقف عليها جميع المؤلفات القيمة التي كانت تحتوي عليها لحفظها وتمكين القراء من الاستفادة منها»[12]، علاوة على مجالسته العلماء، وبثه روح المنافسة العلمية فيما بينهم، وهي الخصال التي عبر عنها ابن الطيب القادري فقال : «وقد جبل على شيم مرضية وهمم عالية، كمجالسته للعلماء وإكرامهم، ومباسطتهم بين الملإ وإعظامهم»[13]، كما أكد القاسي أن المولى رشيد «كان جوادا سخيا، رحل الناس إليه من المشرق فما دونه، وقصده بعض طلبة الجزائر فامتدحه ببيتين وهما :

فـــــاض بحر الفرات في كـــــل قطر
من نـــدى راحتيـــك عـــذبـــا فراتـــا
غرق البـــــاس فيـــــه والتمس الفقـ
ـر خـلاصـــا فلم يجـــده فمـــاتـــا

فوصله بألفين وخمسين دينارا»[14].

ولقد جرى المولى إسماعيل على نفس النهج، حيث كان يجالس العلماء ويشجعهم، ويقرب الشعراء وينفحهم بجوائزه وعطاياه، «فمعروف أن بلاطه كان غاصا بالشعراء والكتاب، وأن حسن سياسته وجميل صنعه كان إلهاما لهم بأمداح ثرة غزيرة، وقصائد ملؤها التسابق في الجودة والتنافس في التكريم»[15].

وقد تواتر عنه أنه لما «أكمل بناء مدينة الرياض[16]، واستقر بها كتاب حضرته وذوو الحيثيات في دولته، وهنأهم كاتبه الشعرور أبو حفص الحراق[17] بقوله :

أكتـــاب الإمـــام لقـــد سعـــدتم
بـــآثـــار لـيـــدنـــا ســـديـــده
دنـــو تم من قصـــور أبي المعـــالي
وقـــد كـــانت منـــازلكم بعيـــده
ومـــــا دار بقرب منـــــه إلا
مبـــاركـــة بـلا ريب سعيـــده

أجازه بأربعمائة مثقال»[18].

هذا علاوة على بنائه أو تجديده عددا من المدارس والمساجد التي كانت مراكز للعبادة والتنسك من جهة، وكانت من جهة أخرى مراكز للثقافة والتعليم.

9) التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، ص 338.

10) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزولي.

11) النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله جنون، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ج 3 ص 232.

12) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر، طبعة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص 69.

13) التقاط الدرر ص 87.

14) الحلل البهية ص 101.

15) الشعر الدلائي لعبد الجواد السقاط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1985م ص 73.

16) يقصد بها مدينة مكناس.

17) من رجال القرن الثاني عشر الهجري، انظره في الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب لمحمد بن الطيبيب العلمي، المطبعة الحجرية بفاس، 1315 هـ ص 163 ـ 166.

18) المنزع اللطيف ص 74.

ويكفينا أن نعود إلى بعض المصادر التي أرخت للدولة العلوية عموما، أو للمولى إسماعيل بصفة خاصة، لنقف على جوانب متعددة من اهتمامه بالثقافة والأدب. ومن هذه المصادر أشير إلى كتاب : «روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف» لمحمد الصغير اليفرني[19]، وكتاب : «المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف» لعبد الرحمن بن زيدان العلوي[20]، وكتاب : «الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر» لمحمد بن عبد القادر الكردودي[21]، وكتاب : «الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية» للحاج المشرفي الفاسي[22].

ولا يفوتنا هنا أن نسجل ما كان يتمتع به الأمير محمد العالم ابن المولى إسماعيل من شخصية علمية وأدبية، وما كان عليه من تقريب للأدباء ومجالسة للعلماء، وهو ما أكده غير واحد من المؤرخين كابن الطيب القادري الذي يقول عنه : «كان له خوض في علوم كالنحو والبيان والمنطق والكلام والأصول وغيرها، وكان حريصا على مجالسة العلماء»[23].

3) ومن هذه المنشطات أيضا تلك المنافسة التي قامت بين علماء البوادي وعلماء المدن، وخاصة في مدينة فاس، حيث نعلم أن علماء الزاوية الدلائية وأدباءها، بعدما خربت زوايتهم، قد استقروا بمدينة فاس، بإذن من المولى إسماعيل، فلم يمض وقت قصير حتى اعتلى هؤلاء العلماء البدو كراسي التدريس، أمثال محمد بن محمد المرابط[24] والحسن بن مسعود اليوسي[25] وأحمد بن محمد الشاذلي[26] ومحمد بن أحمد بن المسناوي[27]، وراحوا ينافسون علماء مدينة فاس منافسة قوية، الشيء الذي خلق جوا ثقافيا وعلميا حافلا بالعطاءات والمساهمات القيمة. ولنا في موقف اليوسي من علماء فاس، وفي موقف علماء فاس من اليوسي ما يؤكد ذلك، وإن كنا في حاجة إلى دليل فلنمثل بما قاله اليوسي معرضا بعلماء فاس الذين لم يعطوه ما كان يراه جديرا به من التعظيم والتوقير :

ما أنصفت فاس ولا أعلامها
علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا
راعي سنين إلى الغمام الصيب[28]

فلعلنا نستطيع أن نحمل هذا القول على أنه يمثل ما كان قائما من صراع ومنافسة بين ثقافتين، أو نوعين من الثقافة، لا على أنه مجرد تعريض أو هجاء[29].

4) ومن هذه المنشطات كذلك، ظاهرة الجهاد في سبيل استرجاع الثغور المغربية، حيث نلاحظ أن الأدب في هذه المرحلة قد اتسع نطاقه، وراح الشعراء يتغنون بهذا الاسترجاع، على غرار قول عبد الواحد البوعناني[30] عندما تم استرجاع مدينة العرائش :

ألا أبشر فهذا الفتح نور
قد انتظمت بعزمكم الأمور
وطير السعد نادى حيث غنى
قد انشرحت بفتحكم الصدور
وضوء النصر ساعده التهاني
ونور الفجر نحوكم يدور
حميتم بيضة الإسلام لما
بعين الحق قد حرس الثغور

19) المطبعة الملكية بالرباط، 1382 هـ، 1962م.
20) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ج 595.
21) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1584.
22) انظر الهامش رقم 4.
23) التقاط الدرر ص 296.
24) مات عام 1099 هـ، انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 352.
25) مات عام 1102 هـ، نفس المرجع السابق ص 370.
26) مات عام 1106 هـ، نفس المرجع السابق ص 335.
27) مات عام 1136 هـ، نفس المرجع السابق ص 344.
28) ديوان اليوسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ج 32 ص 10.
29) انظر تفصيل ذلك في كتاب عبقرية اليوسي للدكتور عباس الجراري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401 هـ، 1981م ص 34.
30) مات عام 1106 هـ، انظره في التقاط الدرر ص 266، ونشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لابن الطيب القادري - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 2253 ج 2 ص 158، والسلوة ج 1 ص 200.

وجـــــاهـــــدتم وقـــــاتلتم فـــــأنتم
لـــــدين اللـــــه أقمـــــار تنير[31]

5) ومن هـذه المنشطـات أخيرا الاحتفـال بختم الكتب، حيث كـان المولى إسماعيل يحرص على حضـور بعضها بنفسه، ويشجع الشعراء المشاركين في هذه التظاهرة الثقافية بجوائز قيمة لا شك أنها كانت تخلق جوا من التنافس والإجادة بين الشعراء، جعل سوق الشعر رائجة، وأطلق لسان الشعراء بفيض من القصائد في الإشادة بمواقف المولى إسماعيل تجاه الثقافة والفكر[32]، على غرار قول الشاعر علي مصباح[33] بمناسبة ختم محمد بن أحمد المسناوي لكتاب «الشفا» للقاضي عياض :

هـــــذا أمير المـــــومنين أنـــــالكم
مرغـــــوبكم إكرام ختمكم الشفـــــا
تـــــادى برفـــع مقـــــامكم وعـــــلاكم
أنتم حمـــاة الـــدين أصحـــاب الشفـــا[34]

وتتحدث المصادر أن المولى إسماعيل قد أجاز صاحب القصيدة بكسوة ومائة مثقال، وذلك إذ ذاك من العطاء الباهظ، كما يقول ابن زيدان[35].

☆ ☆ ☆

وإذا نحن عدنا بعد هذا للنظر في مظاهر الثقافة في هذه المرحلة، وجدناها تتسع لتشمل واجهات مختلفة يمكن تبينها من خلال التصنيف الآتي :

1) الثقافة الشرعية

وفي هذا الإطار يبدو أن موضوعات متعددة قد حظيت باهتمام المثقفين، ونالت قسطا وافرا من اجتهادهم وعنايتهم.

ففي موضوع السيرة النبوية مثلا، يمكن الإشارة إلى بعض الأسماء اللامعة، أمثال أبي الفضل مسعود بن محمد جموع (ت 1119 هـ) صاحب «نفائس الدرر في سيرة خير البشر» و«الروضة الوسطى» و«الروضة الصغرى» وكلاهما في السير[36]، وأحمد بن عبد الحق الحلبي (ت 1120 هـ) صاحب «مناهل الصفا في جمال ذات المصطفى» و«مناهل الشفا في رؤية المصطفى» و«الحلل السندسية في مدح الشمائل المحمدية»[37]، ومحمد بن عبد الرحمن الدلائي (ت 1142 هـ) صاحب تأليف عنوانه «زهر الحدائق وخلاصة الحقائق من سيرة سيد الخلائق، وما يتتبع ذلك من النكت والدقائق» وصاحب أنظام كثيرة في الموضوع منها «الزهر الندي في الخلق المحمدي» و«فخر الثرى بسيد الورى»[38].

وفي موضوع الحديث نكتفي بالإشارة إلى محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي (ت 1144 هـ) صاحب الشرح على صحيح البخـــاري[39] وعلي بن أحمـــد الحريشي (ت 1145 هـ) واضع الشرح على موطإ الإمام مالك[40].

وفي موضوع الفقه والأصول والتوحيد يقف أمامنا أعلام نذكر منهم :

الطيب بن عبد القادر الفاسي (ت 1113 هـ) الـذي وضع شرحا على مقدمة جده في الأصول[41]؛

والحسن بن رحال المعداني (ت 1140 هـ) الـذي كانت «له عارضة كبيرة في الفقه واتساع في النوازل وصبر لطول مجلس الإقراء، فيصبر من طلوع الشمس إلى الزوال في مجلس درسه ولا يضجر، ويجيب عن كل ما يلقى إليه مع كثرة الباحثين»[42]؛

---

31) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير اليفرني، طبعة حجرية ص 262.

32) انظر تفصيل ذلك في المنزع اللطيف ص 71 ـ 72.

33) مات عام 1150 هـ، انظره في النبوغ المغربي ج 1 ص 315، والحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص 220، ومقدمة ديوانه بتحقيق محمد الحسني، مرقونة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

34) ديوان علي مصباح الزرويلي، تحقيق ودراسة محمد الحسني، ج 2 ص 72.

35) المنزع اللطيف ص 72.

36) التقاط الدرر ص 297.

37) نفس المصدر السابق ص 303.

38) البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية لسليمان الحوات، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 261 ص 509.

39) التقاط الدرر ص 357.

40) نفس المصدر السابق ص 359.

41) نفس المصدر السابق ص 283.

42) نفس المصدر السابق ص 339.

ومحمد بن عبد السلام بناني (ت 1163 هـ) الذي «كان ملازما لدرس مختصر خليل بمسجد القرويين بفاس، وكان يحضره جم غفير من طلبة المدارس وغيرهم»[43].

وفي موضوع التفسير والقراءات لا يمكن أن نغفل أبا العلاء إدريس بن محمد المعروف بالمنجرة (ت 1137 هـ) الذي «تخرج على يده كثير من القراء، بل لا ترى من سوس الأقصى إلى طرابلس ونواحيها إلا من قرأ عليه أو على أحد تلامذته، حتى إن من لم يقرأ عليه وبطريقته لا يعد قارئا»[44]، ومن تآليفه : «نزهة الناظر والسامع في إتقان الإرداف والأداء للجامع»، ومنظومة في القراءات مع شرحها [45]، وكذلك لا نغفل محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي (ت 1144 هـ) الذي نجد من بين تصانيفه تفسيرا لبعض الآيات والسور[46].

ونختم هذا اللون الأول من الثقافة بموضوع التصوف الذي تتعدد فيه الأسماء، والذي يمكن أن نقتصر فيه على ذكر بعضها من أمثال : محمد بن أحمد بن المسناوي الدلائي (ت 1136 هـ) صاحب كتاب «جهد المقل القاصر في نصرة غوث الورى الأكابر»[47]، والطيب بن أحمد المريني (ت 1145 هـ) صاحب تأليف «تبصرة الغافل وتذكرة العاقل»[48].

2) الثقافة العقلية واللسانية

وكما كانت العلوم الدينية متداولة في هذه الفترة، كانت العلوم العقلية واللسانية هي الأخرى تحظى باهتمام ملحوظ من قبل العلماء المغاربة، وإن لم يكن هذا الاهتمام قد بلغ مستوى العلوم الدينية، ومع ذلك نقف أمام بعض الأسماء البارزة في أنواع شتى من هذه العلوم.

ففي المنطق مثلا، نشير إلى عبد السلام بن الطيب القادري (ت 1110 هـ) من خلال نظمه المسمى «تنبيه المعرضين، عن آيات السماوات والأرضين»، وكذلك من خلال تصنيفه المسمى «النسيم المعبق في توجيه الخلاف في المنطق»[49].

وموازاة لذلك، تكاثر الاهتمام ببعض العلوم التجريبية كالطب حيث لا يمكن إغفال الطبيب الماهر أحمد بن محمد أدراق (ت 1116 هـ)[50]، وكذلك ابنه عبد الوهاب (ت 1159 هـ) الذي «انتهت إليه رئاسة الطب في هذه الأزمنة، وله صيت كبير وذكر شهير»[51]، وله أعمال منها : «أرجوزة في الطب» ذيل بها أرجوزة ابن سينا، وأخرى سماها : «هز السمهري فيمن نفى عيب الجذري»[52].

وإذا التفتنا إلى علم التنجيم وجدنا أغلب الأعمال فيه عبارة عن شروح أو تعاليق على بعض الكتب والأراجيز، ولا سيما : «روضة الأزهار للجادري في التوقيت، التي تميزت بعدة شروح منها الشرح الذي وضعه أحمد بن يعقوب الولالي (ت 1128 هـ)[53]، وكذلك «مقنع المرغيثي» الذي شرحه محمد بن محمد بن عبد الله الورزازي (ت 1166 هـ)[54].

أما فيما يتصل باللغة وما يتعلق بها من نحو وتصريف وبلاغة وعروض، فقد ظهرت فيها أسماء متألقة، ربما كان اليوسي أبرزها، نظرا لتضلعه في هذا الميدان، ذلك التضلع الذي أكده بنفسه من خلال الحكاية التي قال فيها : «كنت قدمت في أعوام الستين وألف في رحلتي في طلب العلم، وكنت إذ ذاك شابا، فدخلت الزاوية البكرية، فوجدت شيخنا أبا عبد الله محمد بن المرابط رحمه الله قد

---

43) نفس المصدر السابق ص 416.
44) سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر الكتاني، المطبعة الحجرية بفاس، ج 2 ص 272.
45) توجد المنظومة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 6479.
46) يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 1245.
47) التقاط الدرر ص 328.
48) نفس المصدر السابق ص 359.
49) التقاط الدرر ص 278 - 279.
50) نفس المصدر السابق ص 293.
51) نفس المصدر السابق ص 402.
52) نفس المصدر السابق والصفحة.
53) التقاط الدرر ص 312.
54) نفس المصدر السابق ص 425.

جمع خطبا وعظية[55]، وتقدم إلى أهل الوقت في بلده ليكتبوا عنها تقريظا، فكتب كل ما قدر له من نثر ونظم فلما رأيت ذلك كتبت أنا أيضا، فوقع في مكتوبي لفظة «القطائف» فاعترض علي[56]، ورام تبكيتي، وقال : إنا لا نعرف القطائف إلا هذه المفروشات، فقلت له : إن القطائف هنا جمع قطيفة بمعنى مقطوفة، فقال : هو صحيح في اللغة، ولكن الأدباء لهم الاختيار، وعندهم ألفاظ يستعملونها مخصوصة، فلا يرتكب كل ما يقع في اللغة، فقلت له حينئذ : هذا أبو محمد الحريري يقول في مقاماته :

فلا تعذلوني بعد ما قد شرحته
على أن منعتم في اقتطاف القطائف

فتلون وجهه رحمه الله، وخجل، ولم يراجعني بكلمة، فلولا معرفة المقامات واستحضار هذا البيت لأخجلني عوض ما كنت أخجلته»[57].

ويبقى معظم الأسماء في هذا الباب، أميل إلى الشرح والتحشية منه إلى الكتابة والتصنيف، كما أن منها من كان متصدرا لتدريس هذه العلوم كمحمد بن أحمد بن الشاذلي الدلائي (ت 1137 هـ) الذي تحدثنا كتب التاريخ والتراجم أن علم العروض انقطع مرة بفاس، ولم يوجد من بين علمائها من يتقنه سواه، فألح عليه الناس في إقرائه، فقبل مضرا على أن يقرئه في أسطوان داره حياء من التصدر، وكانت النتيجة أن تخرج عليه أكثر من واحد من المحققين[58].

3) الثقافة التاريخية والأدبية

لعل مما يمكن استنتاجه من مسيرة الأدب في المغرب أن معظم الشعراء كانت لهم مشاركة في أكثر من مجال، حيث إنهم كانوا يمارسون الإبداع الشعري إلى جانب اهتماماتهم بأصناف شتى من العلوم، ومن هنا نجد إنتاجا شعريا خصبا في عهد المولى إسماعيل، ليس وقفا على الشعراء الأقحاح وحدهم، ولكن كان يشاركهم فيه الكثير من الفقهاء والقضاة والأطباء وغيرهم.

وعموما نستطيع أن نقف عند هذا اللون من الثقافة من واجهة النثر أولا، ثم من واجهة الشعر ثانيا.

فأما النثر فقد تميز في هذه المرحلة بتنوع موضوعاته وتعدد اتجاهاته من ترجمة ومقامة وخطبة ورسالة ورحلة وغيرها.

وعلى سبيل المثال أشير في ميدان الترجمة إلى محمد بن المهدي الفاسي (ت 1109 هـ) الذي تذكر له المصادر مصنفات في الموضوع منها : «ممتع الأسماع في مناقب الجزولي والتباع ومن لهما من الأتباع»، و«الجواهر الصفية في المحاسن اليوسفية»، و«روضة المحاسن الزهية بآثار الشيخ أبي المحاسن البهية»[59].

وفي ميدان المقامة نقتصر على ذكر مقامات محمد ابن الطيب العلمي (ت 1134 هـ)[60] التي كانت تتميز بما يطعمها به صاحبها من أشعار متعددة، علاوة على إغراقها في السجع والتأنق.

وفي مضمار الرسائل لا يمكن أن نتجاهل الحسن بن مسعود اليوسي الذي كتب مجموعة مستفيضة من الرسائل، وفي موضوعات متباينة[61]، وكذلك محمد بن أحمد بن المساوي، في حين نشير في ميدان الرحلة إلى الرحلة العياشية لعبد الله بن محمد العياشي (ت 1090)[62]، ورحلة عبد المجيد بن علي المدعو الزبادي (ت 1163 هـ) في سفره إلى الحج[63].

---

55) عنوانه : البركة البكرية في الخطب الوعظية، ويوجد مخطوطا بخزانة الأستاذ حسن جلاب بمراكش.

56) الضمير يعود على محمد المرابط الدلائي.

57) المحاضرات لليوسي، تحقيق الدكتور محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1396 هـ 1976م ص 142.

58) البدور الضاوية ص 477.

59) التقاط الدرر ص 273.

60) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 78، الهامش رقم 158 وكذلك مقدمة ديوانه بتحقيق عبد الرحيم الراجي، مرقون بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

61) انظر كتاب «رسائل اليوسي» جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401 هـ - 1981م.

62) الرحلة العياشية أو ماء الموائد، المطبعة الحجرية بفاس، 1316 هـ.

63) التقاط الدرر ص 416.

ونختم الحديث في مجال النثر بالإشارة إلى بعض الأعمال التي وضعها أصحابها في مضمار التصنيف الأدبي والنقدي، رغم قلتها على كل حال، ولكنها كانت تمثل ما كان بعض المغاربة يتمتعون به من ذوق أدبي رفيع، وعمق في الرؤية، كالتأليف الذي وضعه عبد الرحمن الفاسي (ت 1096 هـ) في صناعة الشعر[64]، والكتاب الذي عمت شهرته وذاع صيته، نظرا لما يحمل بين دفتيه من معلومات أدبية شيقة، ومعارف تدل على سعة فكر صاحبه وشمولية إدراكه، وهو كتاب «المحاضرات» للحسن اليوسي[65]، علاوة على كتاب له آخر، هو «زهر الأكم في الأمثال والحكم»[66]، وهو كتاب وصفه عبد الرحمن بن زيدان بأنه «مؤلف نادر الوجود، غريب في بابه، يدل على علو كعب مؤلفه في الأدب وغزارة المادة في الاطلاع»[67].

أما الشعر فإنه قد عرف في هذه المرحلة ازدهارا واسعا وتطورا ملموسا، إن على مستوى الموضوعات أو على مستوى الأنماط والصياغات التعبيرية.

ولعل أول ما يلفت انتباهنا في هذا المجال، ظاهرة الدواوين الشعرية التي بدأ بعض الشعراء أو أقاربهم أو تلامذتهم يجمعون فيها ما أبدعه أصحابها من أشعار في مناسبات مختلفة، وهي دواوين، رغم قلتها نسبيا، تسعفنا بالملاحظات الآتية :

1 ـ من هذه الدواوين ما كان مقتصرا على فن من الشعر واحد، سواء كان ذلك من صنع الشاعر نفسه أو من صنع غيره. وفي هذا المضمار نشير إلى ديوان الشاعر محمد المرابط الدلائي (ت 1089 هـ) الخاص بالأمداح النبوية[68]، وديوان ابنه محمد (ت 1099 هـ) في نفس الموضوع كذلك[69]، وديوان عبد السلام بن الطيب القادري (ت 1110 هـ) الخاص بمدح أحمد بن محمد بن عبد الله معن[70].

2 ـ ومن هذه الدواوين ما كان يشمل موضوعات متعددة كديوان الحسن اليوسي الذي يضم أغراضا منها المدح والرثاء والتصوف والوصف والمساجلات والألغاز وغيرها[71]، وديوان أبي عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور المسمى «بالروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض»[72]، وديوان أبي العباس أحمد بن عبد القادر التاستاوتي الذي جمعه تلميذه أحمد بن عاشر في ثلاثة أجزاء ضخام[73].

3 ـ إن هذه الدواوين لم تكن تمثل كل ما قيل في هذه الفترة، وإنما هي بعض مما قيل، وإلا فإن النسبة الكبرى من شعر هذه المرحلة تبقى مبثوثة في كتب التراجم والطبقات والتاريخ وما إليها، أو ضمن مجاميع ذات اتجاهات وأغراض مختلفة. وعلى سبيل المثال أشير إلى «كتاب الإحيا والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش» لعبد الله بن عمر العياشي (من رجال القرن الثاني عشر)[74]، و«البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية» لسليمان الحوات (من رجال القرن الثالث عشر)[75]، و«المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي إسماعيل بن الشريف لعبد الرحمن بن زيدان العلوي (من رجال القرن الرابع عشر)[76].

وعموما، إذا نحن تتبعنا هذه الدواوين والكتب، وحاولنا أن نحيط من خلالها بشعراء الفترة، وجدناهم متعددين، ومعظمهم ممن جمع بين الثقافة الدينية والأدبية، أو العلمية والأدبية كما تقدم.

---

64) الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ص 115.

65) نشر محققا من قبل الدكتور محمد حجي.

66) نشر محققا من قبل الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1401 هـ ـ 1981م.

67) المنزع اللطيف ص 308.

68) يوجد مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط رقم د 3644.

69) يوجد مخطوطا مع ديوان والده، بنفس الخزانة والرقم.

70) التقاط الدرر ص 300.

71) توجد أربع نسخ من هذا الديوان بالخزانة العامة بالرباط تحت الأرقام ج 32 ـ ج 157 ـ د 79 ـ حجوي 60، بالإضافة إلى طبعة حجرية، وتحقيق غير منشور.

72) يوجد الديوان مخطوطا بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 357.

73) إتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس لعبد الرحمن بن زيدان العلوي.

74) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 1433.

75) سبقت الإشارة إليه.

76) سبقت الإشارة إليه.

ونستطيع أن نستعرض بعض الأسماء، كأبي محمد عبد الواحد البوعناني مفتي فاس ومدرس مسجدها الأعظم، إلى جانب كونه أديبا فصيحا بارع القلم[77].

وعبد السلام بن أحمد جسوس المدعو حمدون، الذي كان متضلعا في الفقهيات واللغويات إلى جانب اهتمامه بالشعر[78].

وعبد الوهاب بن أحمد أدراق الفقيه العالم الطبيب، الذي كانت له أنظام في الطب في أنواع من العشب والفواكه وخواصها ومنافعها، لو جمع ذلك لكان ديوانا، إلى أمداح وقصائد له في موضوعات مختلفة[79].

وعبد المجيد بن علي المدعو الزبادي الذي كان له الباع الطويل في علم الطب وفي مباشرته، وله براعة في نظم الشعر ومدح العلماء وآل البيت والصالحين، ولو جمع ذلك أيضا لكان ديوانا[80].

أما على مستوى الأنماط التعبيرية التي توسل بها شعراء الفترة، فلعلنا نلاحظ، إلى جانب ازدهار القصيدة الشعرية، ازدهار ألوان أخرى، وخاصة منها الموشحات والأراجيز.

ففي إطار الموشحات التي عرفت موضوعات مختلفة وخاصة منها المديح النبوي، تحتفظ لنا المصادر بأسماء متعددة كأبي عسرية بن أحمد الفاسي (ت 1117 هـ) الذي كان «أديبا له أزجال وتواشيح وأنظام»[81].

ومحمد بن الطيب العلمي الذي تنوعت موضوعات موشحاته بين مدح وغزل وغيرهما، وقد ضمن كتابه «الأنيس المطرب» الكثير من هذه الموشحات.

ومحمد بن زاكور الذي تنوعت موضوعاته كذلك من طبيعة ومدح وغزل وغيرهما، وجلها وارد في ديوانه[82].

أما الأراجيز فمجالها خصب ومادتها وفيرة، خاصة في الميدان التعليمي، بل إننا نجد من رجال هذه الفترة من كاد يختص في هذا المجال دون غيره. ولعلي أقتصر هنا على العالم الشاعر أبي زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت 1096 هـ)[83] الذي توسل بأسلوب الأرجوزة في مواضيع متنوعة كالتوقيت، في أراجيز كثيرة، كأرجوزة «عقد الجوهر في الربع المقنطر»[84]،

والفلك كأرجوزة «المدخل إلى علم النجوم»[85]،

والجداول والأوفاق، كأرجوزة «تبيين معنى المجمل في علوم الجدول»[86]،

والفقه كأرجوزته في علم الحسبة[87]،

والوعظ كأرجوزته في مزية العلم[88].

وأخيرا أعود لأختم بما بدأت به من أن هذه الفترة قد عرفت حركة ثقافية مزدهرة، وأن ما تناولته منها إنما هو إشارات خاطفة، وأنها كانت منطلقا لما درجت عليه الثقافة المغربية من تطور وتكامل إلى أن أدركت اليوم شأوها البعيد في ظل المثقف الأول جلالة الملك الحسن الثاني أيده الله ونصره.

---

77) انظر مصادر ترجمته في كتاب الشعر الدلائي ص 81 الهامش رقم 181.

78) نفس المرجع السابق والصفحة، الهامش رقم 182.

79) الشعر الدلائي ص 81.

80) نشر المثاني ج 2 ورقة 116.

81) التقاط الدرر ص 294.

82) الروض الأريض...

83) انظره في التقاط الدرر ص 230، وسلوة الأنفاس ج 1 ص 314، والحياة الأدبية في المغرب ص 114.

84) انظرها في مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2236 ص 63.

85) انظرها في مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2000 من ص 58 إلى ص 64.

86) انظرها في مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2000 من ص 173 إلى ص 183.

87) انظرها في مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2013 ص 2.

88) انظرها في مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم د 2187 ص 177.

ضريح محمد الخامس

المعلمة الحضارية لدولة الأشراف العلويين

للدكتور عثمان عثمان اسماعيل

أولا الأشراف العلويون ومسيرة الفن للحياة :

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الكاتب البريطاني جون رسكين (John Ruskin) من مفكري القرن التاسع عشر للميلاد : «إن الأمم العظيمة تكتب سيرتها في كتب ثلاثة : كتاب أعمالها، وكتاب أقوالها، وكتاب فنونها، وهو الأجدر بالثقة».

لهذا حاولت منذ أكثر من ربع قرن الإسهام في إرساء قواعد مدرسة مغربية في علم آثار الإسلامية، من عمارة وفنون تطبيقية... وعندما أقول (مغربية) فإن ذلك ينصرف بداهة إلى الكلمة بمعناها الشامل، منذ تأسست للإسلام دولة في المغرب الأقصى، طورت حضارته وعمارته وفنونه، نحو الإبداع بحرية واسعة الأبعاد استلهمت مبادئ العروبة، واستجابت لغايات الإسلام، واحتضنت اهتمامات القارة السمراء، واحتكت بحضارات أوروبا بكل تناقضاتها، وطرحت حلولا متقدمة لمشاكل العلم والعمران وحرية الفرد ونظام الجماعة، في نطاق الطاعة والولاء المطلق لأسس التوحيد الربانية.

ولاشك عندي أن الفنون المغربية كانت حصيلة تفاعلات حضارية، ضمن السياق التاريخي للمجتمع المغربي، ذلك المجتمع الذي مازال إلى اليوم، يطمح من خلال مهاراته الاجتماعية والواقعية، إلى مباهج الحياة الجمالية، منذ أصبح الفن جزءا لا يتجزأ من كيانه المادي والروحي.

ولا غرو فقد أكد المفكر المجري أرنولد هاوزر (ARNOLD HANSER) في كتابه «التاريخ الاجتماعي للفن» : «أن الفن جزء من التطور العام للبشرية، وهو التطور الذي يستهدف به الإنسان حياة أفضل»، ولما كان الإسلام هو دين الحياة، كان ارتباط الفن بالإسلام ارتباطا كبيرا، فلازال الإسلام دين التطور المنسجم مع مقتضيات الحياة في كل عصر وحين.

وإذا كانت فنون العمارة والصناعات الزخرفية عرفت عثرات خلال تاريخها الطويل لأسباب داخلية وأخرى خارجية، فقد كان ذلك بمثابة حادث سير، دفع إلى بناء حضاري جديد ترك علامات كبرى على صعيد الفن العربي الإسلامي ثم الإفريقي والأوروبي.

ونحن نهدف من دراسة فنون العمارة والصناعات الزخرفية في مجموعة مباني الضريح إلى الاستماع إلى اللغة التي استخدمها الفنان المغربي المعاصر في التعبير الفني والوجداني ومعرفة مدى التكيف والنمو الانفعالي والفكري بقصد قياس ما حققه المجتمع المغربي من تطور

حضاري عندما أفرغ زبدة أحلامه وتجاربه، وصب أعلى آماله وأرق مشاعره في أساليب هندسية علمية ظهرت في التخطيط والعمارة، وقوالب فنية وشاعرية انعكست في نقوش الحجر والخشب والجص والزليج، ففضحت كوامن النفس الإنسانية وأفصحت عن رقة الحواس ومجالات الإلهام والاشراقات الروحانية.

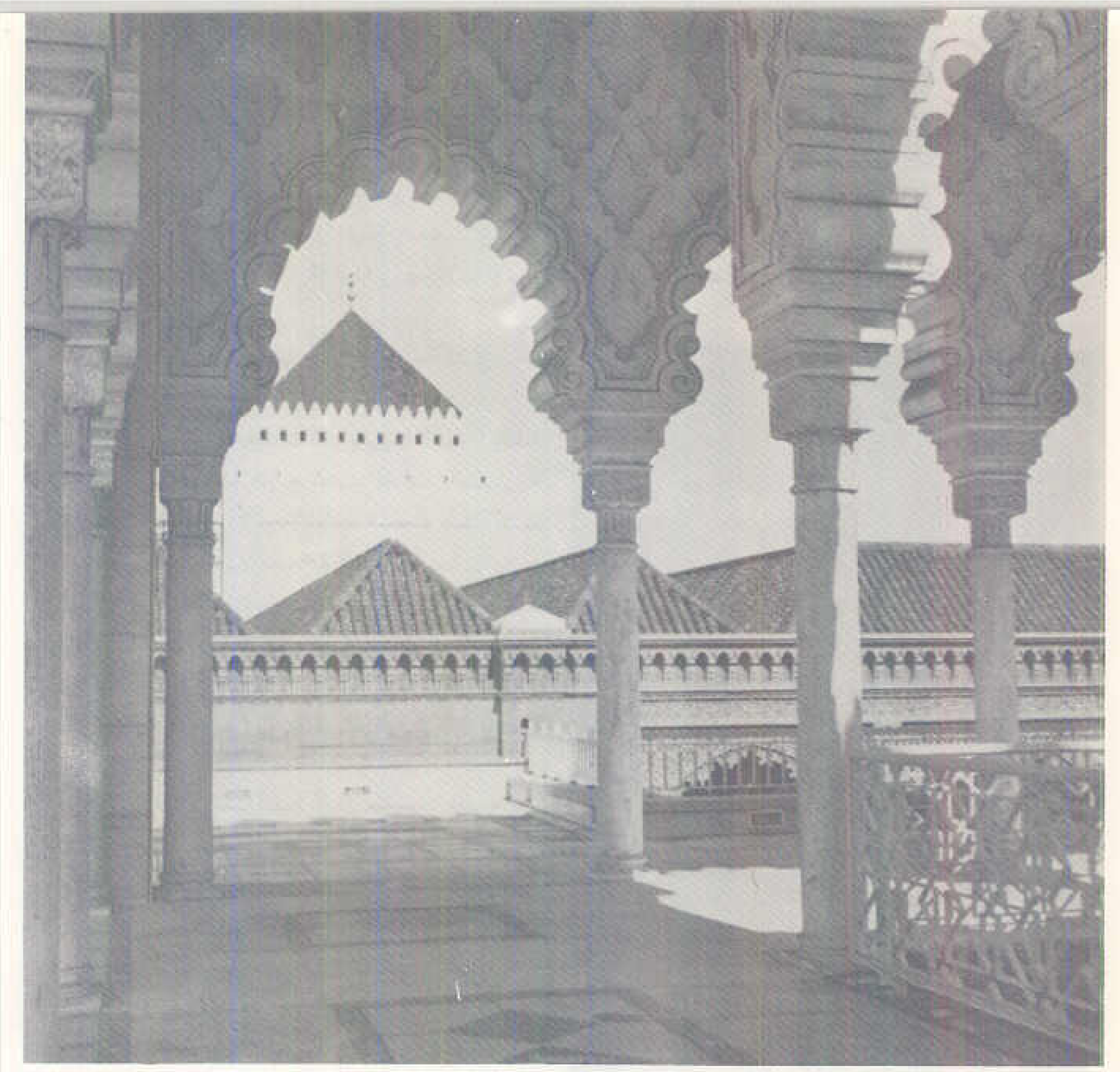
ثانيا مجموعة مباني الضريح معلمة لشرح تراث الدولة العلوية الشريفة :

وكنت قد نشرت عدة مقالات بجريدة الأنباء[2] ومجلة الفنون[3] حول مجموعة ضريح محمد الخامس المعمارية التي دخلت في عداد الآثار الإسلامية المسجلة طبقا للمادة الرابعة من قانون الآثار لجامعة الدول العربية بالمؤتمر الثالث للآثار المنعقد بفاس والذي شاركنا في أشغاله سنة (1959م)[4] باعتبارها تستكمل الخصائص التاريخية والفنية للتراث القومي، وكونها شيدت لتخليد عظيم من عظماء العالم العربي والإسلامي ونوابغه في ميادين الجهاد والفداء الوطني.

وكنت قد تمنيت لهذا القطر أن ينهمر غيثه في دراسة أفردها لمعلمة من أقدر معالم المغرب على شرح حضارة وتراث الدولة العلوية الشريفة[5]، تلك الدولة التي تعتبر بحق وريثة تراث الأشراف من أهل البيت[6] الذي شاء الله أن يبزغ نورهم[7] في مشارق الأرض، وأن يسبحوا بين مشرق الشمس ومغربها، وأن ينتشروا بين جليد الشمال بإسبانيا وحرارة الجنوب بالصحراء[8]... يرفعون فوق هضاب البر وعباب البحر وبسائط الفلوات ألوية العروبة والإسلام عالية وأعلام النور والحضارة خفاقة. وعبر تاريخ طويل حافل بالبطولات انعقد لهم لواء النصر معظم الجولات فرمموا الصدع وجبروا العثرات، وفتحوا الممالك وانشأوا المدن وأسوا الحضارات... كما اعتصموا بالصبر واستمرأوا الفداء وقدموا الشهداء كلما خذلتهم صروف الزمان، وصدوا للطعنات لا يريمون مكانهم زاهدين في عروشهم، جامعين صفوة السلالة الزكية في جحافل من أكابر الشرفاء تتدافع بهم العراب الصاهلة في المعارك الفاصلة دفاعا عن الوطن والدين.

منظر عام لموقع ووحدات مجموعة مباني ضريح محمد الخامس
فوق أرض مسجد حسان الموحدي
إلى الشرق قبة الضريح يليها مسجد محمد الخامس
بواجهته المطلة على صحن مسجد حسان

2) مقالنا، ضريح محمد الخامس بين المادة والروح، الأنباء 12 و13 و14 و15 دجنبر 1973.
3) مقالنا، ضريح محمد الخامس عدد اكتوبر ونوفمبر 1974 ص 50 ـ 58.
4) انظر كتاب الجامعة العربية عن المؤتمر طبع القاهرة 1961 المادة 4 من الفصل الأول ص 74.
5) منذ ما قبل أن أتشرف بتكليفي من قبل سعادة مؤرخ المملكة مدير الوثائق الملكية عن تأليف الكتاب.
6) قال تعالى : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى...﴾ الشورى 23، ووقت القحط بالحجاز 18 هـ خرج خليفة رسول الله عمر على الناس وعليه بردة الرسول ومعه العباس عم النبي قائلا : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا... وقال العباس وعيناه تنضحان : اللهم وقد توجه القوم به إليك لمكاني من نبيك... فاسقنا الغيث... فلم يبرح الناس من مكانهم حتى نزل المطر مدرارا.
7) لنشر الإسلام وهداية الإنسان وتنظيما للبشرية.
8) أرض فيلالة أو سجلماسة.



مجموعة ضريح محمد الخامس وتبدو عمارة المتحف غربا
يليها المسجد في قلب التخطيط
ثم قبة الضريح شرقا

فحرى بنا اليوم ونحن نلوذ بظلال أحفادهم الشرفاء العلويين من سعير المذاهب وانحراف العقائد أن نرسم بأقلامنا على ضوء ما تجيش به قلوبنا، وتهدينا إليه معارفنا وعلومنا، صفحة مشرقة لما سجلوه من جلائل الأعمال في سفر الوجود، وما خطوه من تاريخ العمارة على أبواب الخلود.

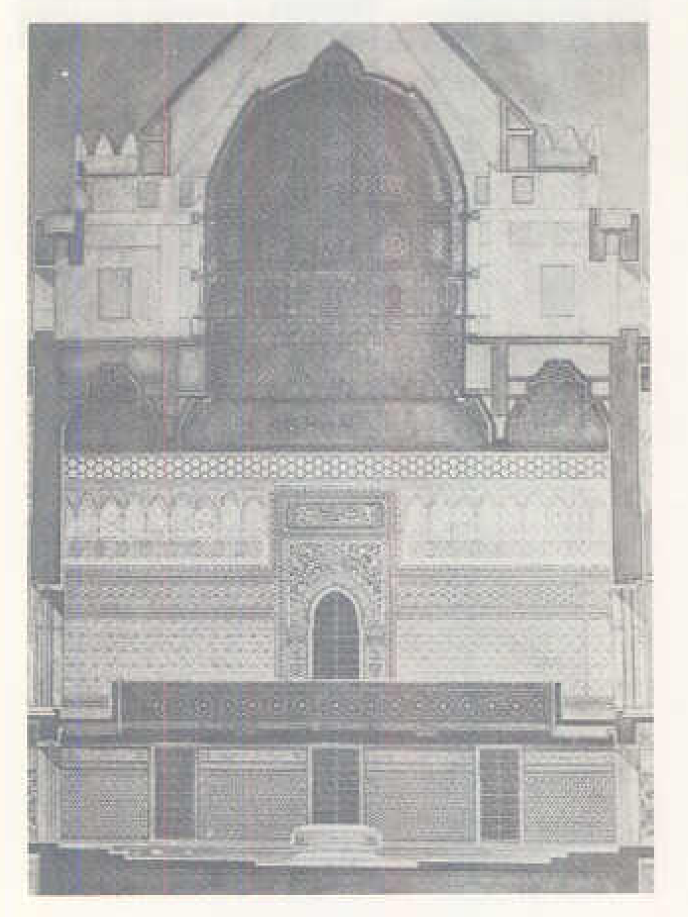
فعندما جمعت الأمة المغربية عزمها وجدت عواطفها في بناء ضريح محمد الخامس (لوحات 3 + 4 + 5) الحائز على المنح الآلهية من بارئ البريات ومجزل المعطيات، محمد الخامس صاحب الإشراقات القدسية والإمدادات النبوية فوق جميع المواهب الذاتية، الذي أفنى شبابه وضحى بسرير الملك في سبيل الاستقلال حتى استتب على

عمارة قبة الضريح والزخارف المعمارية الخارجية
وقت الغروب

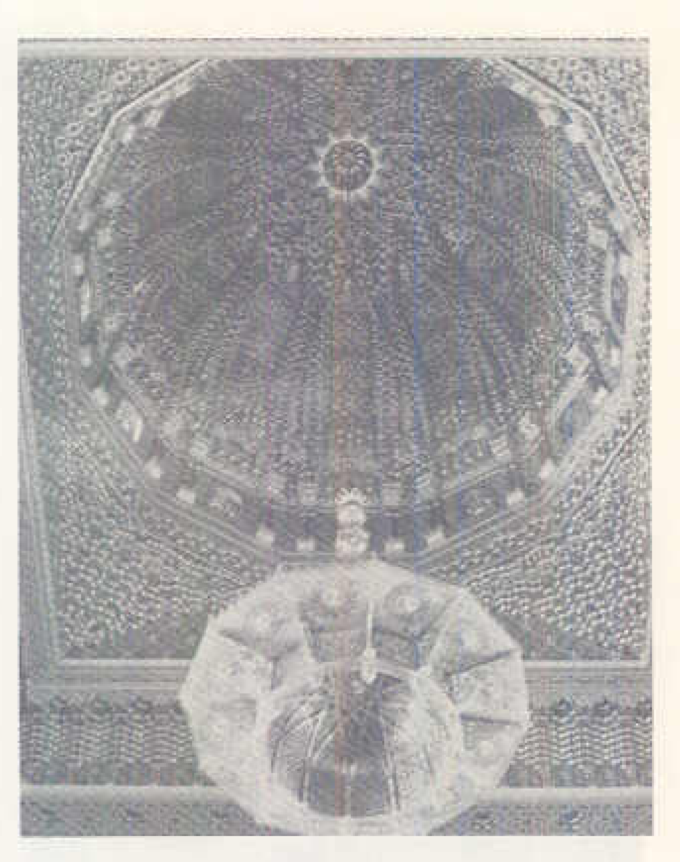
أفضل وجوهه وانتظم على أتقف تناسقه، شاركها عواطفها القومية وارث سره أمير المؤمنين الحسن الثاني حرصا على مسيرة التراث الإسلامي بالمغرب وتشييد الأثر الفني النموذجي الذي يشرح عظمة الحضارة الإسلامية وفلسفة الأمة المغربية ومنجزات الأسرة العلوية بعد أن جمع له حذاق الصنعة مع السخاء في النفقة إلى أن تم له ما أراد تشييدا وزخرفة.

ولعل نظرة عاجلة على منجزات الحسن الثاني في مجال المحافظة على التراث ومظاهر الحضارة الإسلامية وإضافتها إلى منجزاته الأخرى في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعمران... تقيم منارا عاليا لشموخ ذلك الملك العملاق... حيث اجتمعت فضائل النسب، وضروب الوطنية، ومعجزات التضحية، والقدرة على احتمال الشدائد، وصفوة العلم، في ذهن واحد خلاق... استطاع أن يتوج هام العمارة الإسلامية بأثر خالد يحكي شخصية وتاريخ الملك المجاهد دفين الضريح، ويستوعب اتجاهات وفلسفة الملك المعاصر وحقيقة انفعالات وقدرات الملك والشعب والمهندس والبناء والنجار والمزلج والجباص، تلك التي تعكس حالة المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية التي تمخضت عبقريتها عن إبداع ذلك العمل الفني.

وكان من دواعي اهتمامي بدراسة هذا الأثر المعماري والفني ما سمعته شخصيا من مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وما سجله بقوله : «قال لي جلالة الملك ذات يوم، من بين الأمور الكثيرة التي أنجزتها في عهدي



قطاع هندسي طولي لعمارة وتصميم
وزخارف قبة الضريح



تفاصيل العمارة الزخارف
الداخلية لقبة الضريح
من الداخل

أمران أضعهما في أعلى القائمة وبعدها لا أبالي : جمع مؤتمر القمة الإسلامي، وبناء ضريح والدي».

إنه تقييم عميق ودقيق لفكرة إنجاز المشروع فقد قال الأديب الفرنسي أندريه مالرو : «لقد اكتشف الفراعنة الخلود عندما اكتشفوا الحجر...» ومعناه أنهم وصلوا إلى الخلود بعد أن اهتدوا إلى تسجيل أفكارهم على الحجر، فقد انقطع عملهم من الدنيا لكنهم عاشوا على الحجر صنعة وخطوطا وألوانا وأشكالا... وقديما قال الشاعر العربي :

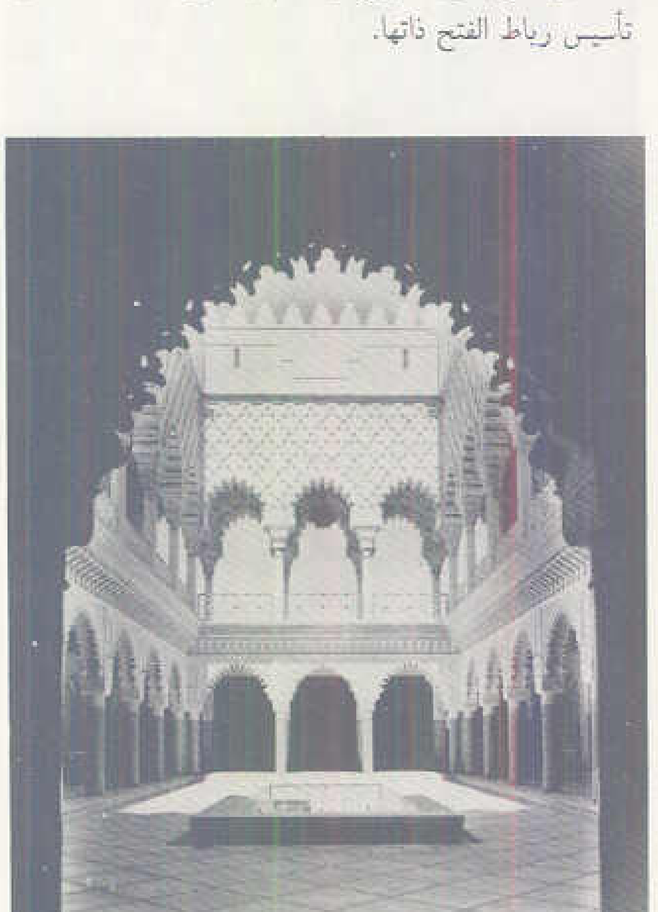
همم الملــــوك إذا أرادوا ذكرهـــــا
من بعـــدهم فبـــألسن البنيـــان

أو مـــا ترى الهرمين كم بقيـــا وكم
ملــك محـــاه حـــوادث الأزمـــان

إن البنـــاء إذا تعـــاظم قـــدره
أضحى يـــدل على عظيم الشـــأن[9]

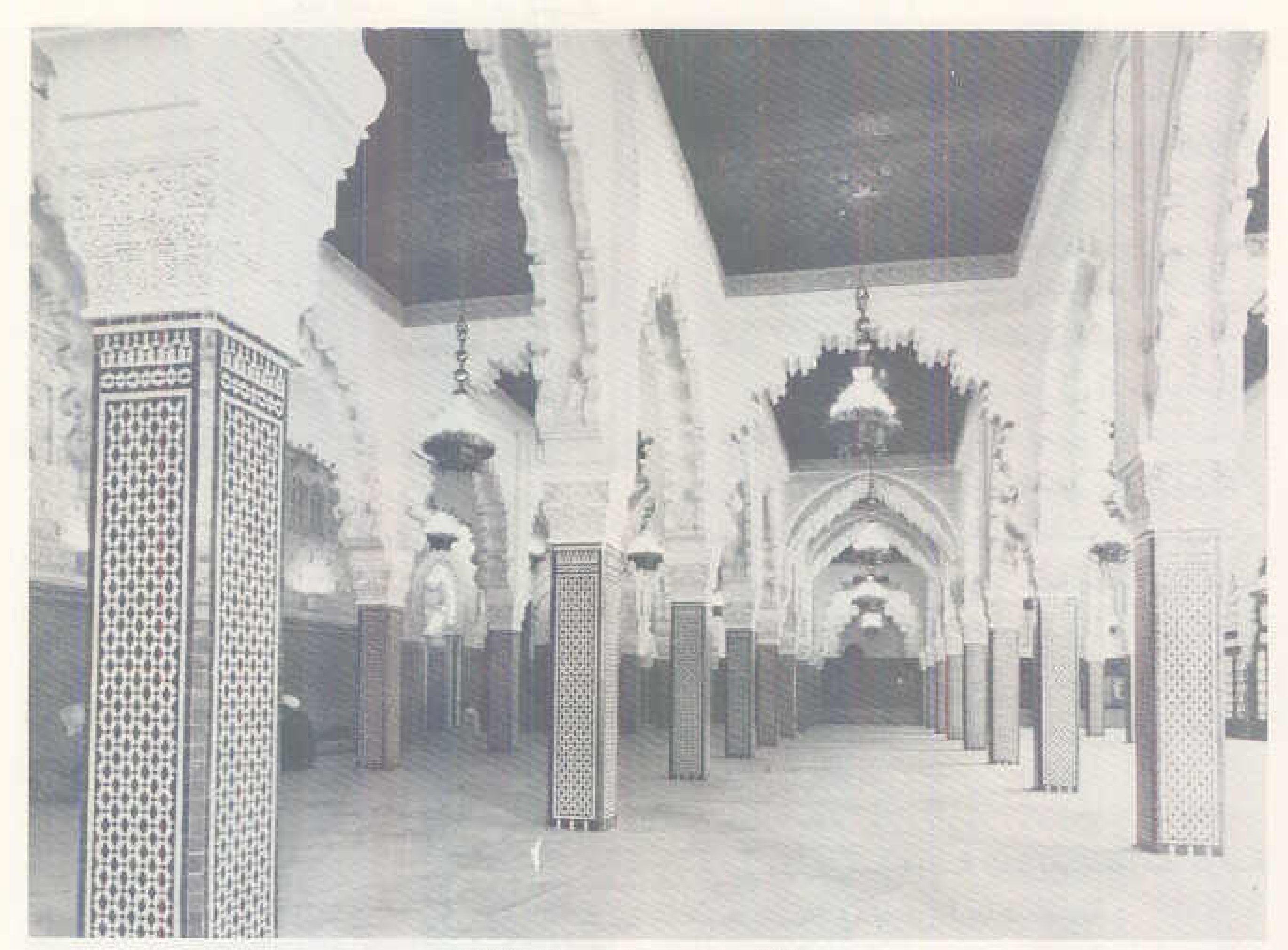
ثالثا شمولية الإنجاز المعماري والفني :

ومن جهة نظر الدراسات الأثرية جمعت مباني الضريح أصناف العمارة الإسلامية : المدنية ممثلة في المتحف الوطني (لوحة 6) والمتحف التذكاري، والدينية ممثلة في المجد (لوحات 7 + 8 + 9) والضريح والمصلى (لوحة 10)، بالإضافة إلى ذكريات العمارة الحربية المنبعثة من آثار مسجد حان في الموقع التاريخي للجهاد الديني المقدس على طول تاريخ الإسلام بالمغرب منذ ما قبل تأسيس رباط الفتح ذاتها.



هندسة وعمارة وزخارف المتحف الوطني الذي
يشغل القسم المغربي للمجموعة المعمارية

9) نفح الطيب 110/2.



بيت الصلاة بمسجد محمد الخامس ونظام البلالهات
والأساكيب والروافع المعمارية
الأكتاف والتيجان والعقود

وقد صرح الأستاذ روم لاندو (ROM LANDAU) في كتاب عن العلويين[10] أنه ليس من المستبعد ألا يصل بناء آخر في المغرب إلى ما وصله بناء الضريح من الإتقان الفني في أشغال البرونز والرخام والخشب المنحوت والزليج، وإذا كانت قرطبة واشبيلية وغرناطة تعتبر أكبر مراكز الفن الإسلامي الغربي، لكن المغرب بعد تشييد الضريح بالرباط أصبح ينافسها ويعلن امتلاكه لأكبر الآثار القائمة في يومنا هذا لتقنيات الفن المغربي، إنه من وجهة النظر الخاصة بالفلسفة الجمالية يفوق اعتباره مجرد مثوى لجثمان الملك الراحل، إنه إحياء لذكرى الملك المجاهد ومجمعا لإنتاج الفنانين المغاربة وتذكارا لعبقرية الحسن الثاني مؤسس الضريح.

والواقع أن البناء قد حظى بما يلزم من عمارة وتنجيد وزخرفة وسخاء في النفقة حتى استوفى الكمال وتم على نحو ما أراده له مؤسسه، وتولى النظر فيه معجزة زمانه المعلم الفنان المرحوم الحاج محمد بن عبد الكريم

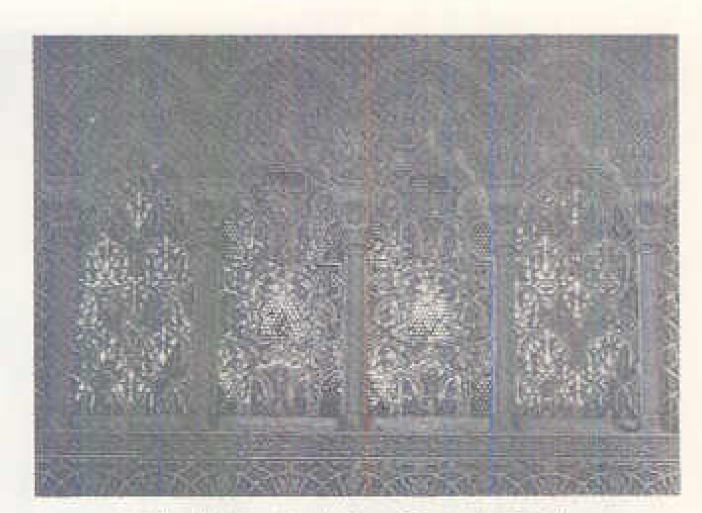
10) العلويون (بالإنجليزية) ص 42 + ص 45.

معلم الصنعة بدار المخزن (الحكومة) الذي كان كما شرح لي مرارا يمثل قنطرة بين فنون العمارة والزخرفة المغربية القديمة وبين الفنانين المنفذين لهذا الأسلوب الذي يمكن تسميته بالطراز الحسني، لهذا بات من واجبي دراسة العمل الفني النموذجي لعصر الانبعاث الحسني لتصنيفه في موقعه من كتابي «تاريخ العمارة الأثرية والفنون الإسلامية بالمغرب الأقصى منذ ما قبل الإسلام إلى اليوم».

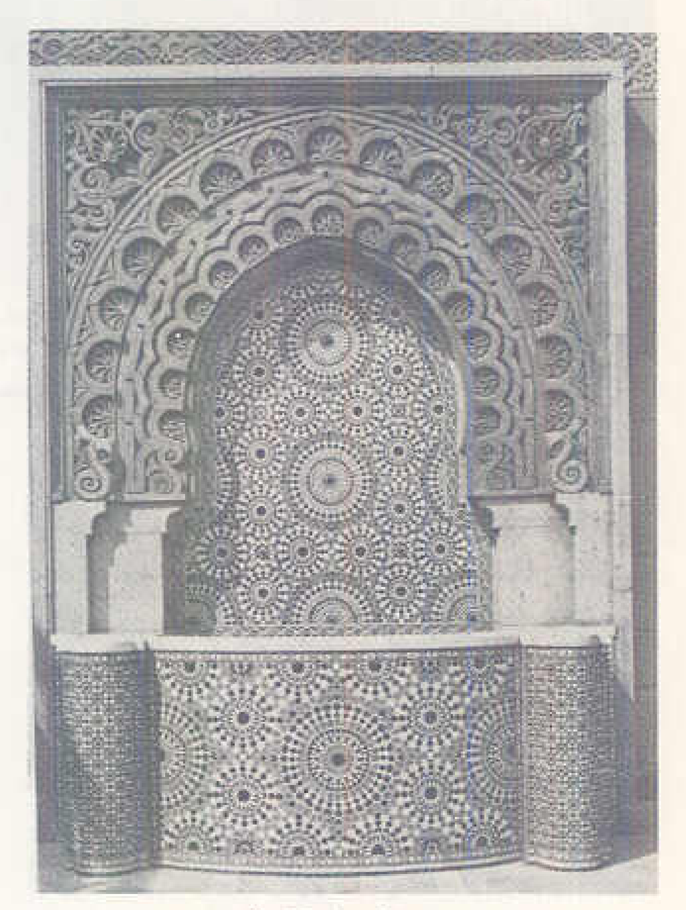
وقد دفعتني منهجيتي الخاصة إلى الاتصال المباشر مع محافظ الضريح مؤرخ المملكة ومدير الوثائق الملكية سعادة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور والسيد فوطوان مهندس المشروع والمرحوم المعلم محمد بن عبد الكريم المشرف الفني العام وكل صاحب صنعة امتدت يده لتخط آثارها في جوهرة العمارة والفنون المغربية، قبل تحليل عناصرها وتقييم أصولها التاريخية المعمارية والزخرفية، تمهيدا لتصنيفها في سلسلة التطور التاريخي التي تعنى بها الدراسات الحضارية.

رابعا دراسة معلمة الضريح استلزمت دراسة مسجد حسان وتأسيس الرباط العاصمة :

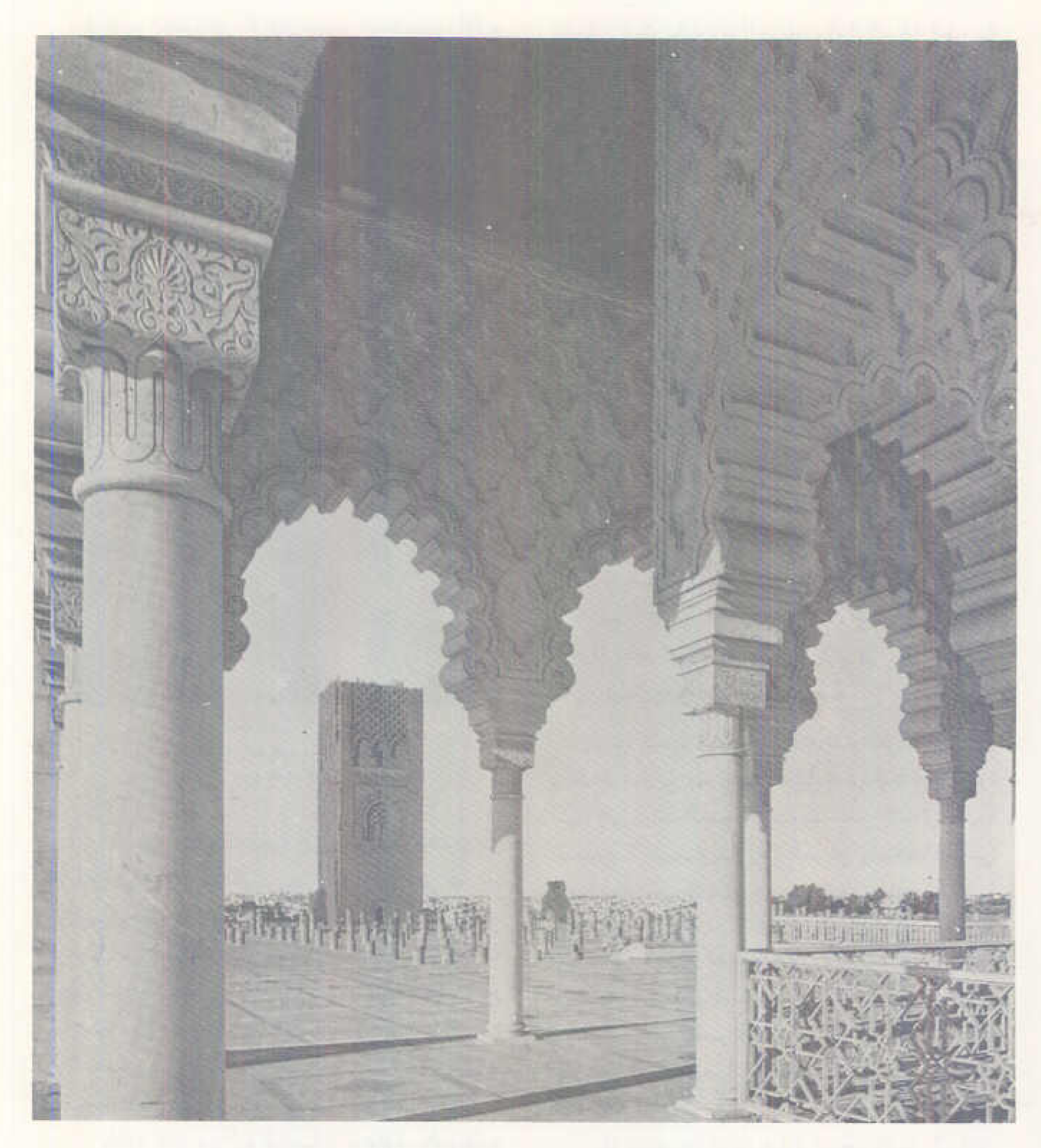
وإذا كانت السنوات قد امتدت بي وأنا بين إقدام وإحجام عن تقديم نتائج أبحاثي وجهودي المتواضعة فذلك لأنني حاولت أن أسد فراغا في البحث أمام علامات استفهام جمة، وأحسم الرأي في خلافات شتى، فالمسجد الموحدي الذي أقيم المشروع على جزء من أرضه، لم يستقر قرار المشتغلين بالتاريخ والآثار على تاريخ تأسيسه أو نهاية أشغاله كيفا وكما... (لوحة 11) كيف كان تخطيطه الأصلي، هل اكتمل بناؤه، ومتى، وكيف كان..؟ والصومعة (لوحة 10)، هل تمت ثم تهدم بعضها، أو أنها لم تتم أصلا ؟، بل أن الاسم نفسه (حسان) لازال موضع جدل، فمن هو حسان ذاك، هل كان مهندسا، هل كان قائدا، هل هو اسم قبيلة أو منطقة...؟ وهكذا كان لابد من التذرع بالصبر والأناة لمحاولة الإسهام في إزالة بعض الغيوم واقتراح بعض الحلول لمجموع المشاكل المتلاحمة قبل دراسة الضريح. لكن مسجد حسان وصومعته الشهيرة يعتبران من أبرز معالم



الزخارف المعمارية في حشوات تعلو حائط القبلة بها جص مخرم وزجاج ملون



زخارف معمارية في الحجر والزليج متعدد الألوان خارج الواجهة الشمالية لمسجد محمد الخامس



جانب من المصلى الصيفي الذي يعلو المتحف الوطني
ويرى جانب من مساحة مسجد حسان والأعمدة
الموحدية وصومعة حسان العتيقة

رباط الفتح العاصمة التي لازالت بحاجة إلى التحقيق الأثري على ضوء المعطيات الجديدة لنصوص تاريخية، استقرأت منها مفهوما جديدا أردت أن أنبه إليه الباحثين عى أن يكون من الممكن كتابة تاريخ المدينة وتطور عمرانها كتابة جديدة.

جانب من إحدى محاولات التنقيب الأثري
بالمسجد الموحدي منذ ما يقرب
من نصف قرن

لهذا وذاك، وضعت الجزء الأول من هذا الكتاب من سبعة فصول خصصت الأول منها لتاريخ تأسيس الضريح والاستراتيجية التاريخية والسياسية والحربية للموقع، وجعلت من الفصل الثاني دراسة تاريخية وأثرية مستقلة حول مسجد حسان وصومعته وتأسيس مدينة رباط الفتح معتمدا على نصوص أراها جديدة الاستقراء جديرة بالاستقصاء، بنيت عليها رأيا جديدا بالنسبة لتاريخ رباط الفتح وتطورها وتاريخ جامع حسان وتخطيطه.

ولعله كان من ألزم الواجبات المتعلقة بالموضوع تخصيص الفصل الثالث لإلقاء أضواء على تاريخ ساكن التربة الزكية المولى المقدس المرحوم سيدي محمد الخامس وأمير المؤمنين الحسن الثاني الملك المؤسس، فاستلزم ذلك بالضرورة التعريف بأصل الدولة العلوية الشريفة وأهدافها ومبادئها تلك المبادئ الإسلامية الإنسانية التي عايشتها في حياة الملكين المؤمنين ودفعتني إلى تسمية عصر محمد الخامس والحسن الثاني بعصر الملكية الإسلامية الشعبية.

وفي الفصل الرابع ألقيت نظرة عامة على المشروع تبدأ بوصف مشتملات المجموعة المعمارية ومواقع وحداتها والقصد منها، ثم تقييم فكرة إنجاز المشروع.

ونظرا لاشتمال المجموعة التاريخية على مسجد وضريح، أعددت بحثا دينيا يتعلق بمواقع المجموعة المعمارية وأهدافها يدور حول الدراسات المتعلقة بتحريم اتخاذ القبور مساجد وتحريم الدفن في المساجد، آثرت نشره بالجزء الثاني باعتبار أن القبة والضريح كانا الأصل في فكرة تنفيذ المشروع، وكل ما أستطيع قوله الآن بإيجاز أن مراعاة الملك المؤسس لحدود الدين ومحارمه كانت من وراء اختيار التصميم العام، كما تعمد الاعتدال في زينة وزخرفة حائط القبلة حتى لا يشغل شاغل دنيوي المصلين الذين ولوا وجوههم شطر المسجد الحرام.

ولما كادت تنقضي السنوات العشر التي شغلت فيها بأبحاث الضريح دون ظهور الكتاب، ارتأيت قصر الجزء الأول على دراسة المسجد وتزويد الجزء الثاني ببقية المجموعة المعمارية وهي الضريح والمتحف الوطني ومصلاه والمتحف التذكاري وملحقات المشروع الداخلية والخارجية، وهكذا جعلت الفصول الأربعة التالية مخصصة لدراسة مسجد محمد الخامس محور التخطيط ومركز الثقل في المجموعة المعمارية. فالفصل الخامس بأكمله يتناول التخطيط : وصفه ومميزاته وأصوله التاريخية، نظرا للمكانة التاريخية والاستراتيجية لموقع وتخطيط المسجد الجامع بالمدينة الإسلامية.

وقد عنيت عند دراسة عمارة المسجد بالفصل السادس بفكرة التفتح على الفضاء الداخلي التي لفتت انتباهي إلى عدة مفاهيم إسلامية وبيئية واجتماعية، وبعدها درست مواد البناء وعناصره والواجهات المعمارية وزينتها.

وجاء دور فنون الصناعات التي احتلت الفصل السابع بدراسة فنون الحجر والرخام والزليج والجص والخشب مع إشارة عابرة لصناعة النحاس بالثريات والأبواب التي أرجأنا دراستها المفصلة للجزء الثاني بحول الله مع نظيرتها بالضريح، وختمنا هذا الفصل بصناعة الحديد في الأبواب.

خامسا دراسة الأصول التاريخية المعمارية والفنية تؤكد أصالة فنون الأشراف العلويين والطراز الحسني :

ومنذ البداية نويت تخصيص مساحة كافية لدراسة الأصول التاريخية للتخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية، ولهذا فعلى الرغم من أنني تعرضت لها أحيانا بالفصول السابقة إلا أنني آثرت إفراد الفصل الثامن بأكمله لها تحقيقا لعدة أهداف، أولها إقناع الجيل المعاصر بأن النمو المنشود يجب أن يتغذى من جذورنا الخاصة وليس بالتلقيح الأجنبي عضويا، فقد أثبت التاريخ أن الازدهار الحقيقي يبدأ من الاقتناع بالصفة والميزة الأصلية، والتيقن أن بماضينا أشياء كثيرة تفيد مستقبلنا. وثاني الأهداف التأكيد بالأدلة الملموسة أن المغرب لم يكن طوال تاريخه أمة منعزلة خلف الجبال والمحيطات كما أشاع مستشرقو عهد الحماية، وإنما كان دولة حية نشيطة تفرعت نشاطاتها وامتدت أياديها في جميع الاتجاهات تأخذ وتعطي، فكثير من العناصر المعمارية والزخرفية وأساليب التخطيط دخلت المغرب وتطورت فيه وخرجت منه أكثر نماء وتطورا وازدهارا، وكثير من العناصر التي شهدت المولد والخلق والابتكار داخل الوطن أو الدولة أو الامبراطورية المغربية استوردها العالم الخارجي للإفادة بمبتكرات المغرب التقنية ومنجزاته العلمية والفنية. وثالث الأهداف اعتقادي أن الأصول التاريخية كانت هاجس المستشرقين الذين حاربوا التراث الإسلامي عن طريقه وأقبلوا على تفتيت العمل الفني المتكامل إلى عناصر وجزئيات محاولين رد كل منها إلى أصول بيزنطية أو ساسانية أو مسيحية، لتجريد فن الإسلام من عبقريته وأصالته، لسوف يجد هؤلاء، ومن نهج نهجهم مثارا لاهتماماتهم، ويشغلهم ذلك في دراساتهم المقارنة، فيطرح مشروع الضريح نفسه على الساحة العلمية. كما لا يفوتني هنا الافصاح عن تأكيد الروابط التاريخية الحضارية بشقيها الفكري والمادي بين المغاربة وموطنهم الأصلي في المشرق العربي وبينهم وبين الممالك التي نشروا فيها نور الإسلام ورواء فنونه وآلاء معارفه... شمالا بالأندلس وجنوبا بقلب القارة السمراء وشرقا بالشقيقات دول المغرب العربي.

وبعد، فهذه خطة الدراسة التي تجاوزتها إلى العناية بتسجيل أسماء المعلمين المبدعين المصممين والمنفذين لأشغال المجموعة المعمارية والفنية وشرح أساليبهم التقنية، حفظا لحقهم وتسجيلا لعبقريتهم، وأخرت إلى الجزء الثاني تفاصيل سيرهم ونوعيات مدارسهم الفنية ومنجزاتهم الفنية الكبرى. لقد كان ذكر الصناع المبدعين مقترنا بشرح الأساليب الوطنية وأسماء العناصر والمواد المحلية، ومساعدا على تسجيل المصطلحات المغربية ومقارنتها بنظائرها المشرقية وما يقابلها باللغات الأجنبية كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا.

وقبل أن أودع القارئ الكريم أود توجيه الشكر والتقدير إلى سعادة العلامة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور محافظ الضريح ومؤرخ المملكة المغربية على تفضله بالعون المديد والرأي السديد وما كشف لي من أسرار وزودني من أخبار، ما كان لهذا العمل أن يرى النور بدونها على النحو الذي أريد، تقبل الله عملنا خالصا لوجهه الكريم ونفع المسلمين ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ صدق الله العظيم.

دور محمد المختار السوسي في تأصيل وتطوير المدرسة العلمية العتيقة*

للأستاذ محمد خليل

تعتبر المدرسة العلمية العتيقة[1] في المغرب، رمزا للأصالة العربية الإسلامية في المغرب، وبرهانا على ما للعبقرية المغربية ـ على مر العصور ـ من حرص شديد على العلوم العربية، وعلى الثقافة الإسلامية، ذلك أن المغاربة كانوا ـ على امتداد تاريخهم الإسلامي العريق ـ حريصين على إنشاء هذه المدارس في مختلف المناطق : في الحواضر والقرى على السواء، وعلى رعايتها بشتى الوسائل. سواء من حيث الدعم والرعاية اللذين كانا لهذه المدارس من قبل ملوك المغرب عبر مختلف الحقب التاريخية، أو من حيث التسيير والتحويل والصيانة وغيرها مما كان الأفراد والجماعات يولونه لها، حتى تؤدي رسالتها التربوية والعلمية والفكرية على أحسن وجه[2].

وهكذا واصلت المدرسة العلمية العتيقة أداء رسالتها هذه، تلقن لتلاميذها مختلف العلوم : الدينية، كالتفسير والحديث والفقه. واللغوية : كالنحو والصرف والبلاغة، إضافة إلى مختلف فنون الأدب وباقي العلوم الدقيقة : كالفلك، والرياضيات والطب... إذ أن المآت من علماء المغرب المشهورين عبر مختلف العصور يعتبرون خريجي هذه المدارس المنبثة في مختلف جهات البلاد قديما وحديثا[3]، فحافظت بذلك ـ وما تزال ـ على هذه المكانة، مما يجعلها جديرة بأن تنال

---

*) نص محاضرة شارك بها الكاتب في الأيام الدراسية التي نظمها المجلس العلمي الإقليمي بتزنيت، أيام : 4 ـ 5 ـ 6 شعبان 1406 هـ (الموافق لـ : 14 ـ 15 ـ 16 أبريل 1986م) بمناسبة الذكرى 25 لتربع صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين، ومرور سنة على رحلة جلالته إلى الأقاليم الصحراوية. وكانت تحت شعار : «المدارس العلمية العتيقة وجهادها في سبيل العرش والدين».

1) يطلق مصطلح المدرسة العتيقة على المدارس العلمية التقليدية في المغرب، وذلك تمييزا لها عن المدارس «العصرية» التي أنشأتها سلطات الحماية، وكذلك رجال الحركة الوطنية. انظر كتاب : سوس العالمة للمختار السوسي، ص : 154 وما بعدها.

2) لمزيد التوسع في هذا الجانب يراجع :

أ ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي : ج 1 : لعبد الله كنون.

ب ـ الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين : للدكتور محمد حجي.

جـ ـ الحياة الأدبية في المغرب في عهد الدولة العلوية : للدكتور محمد الأخضر.

3) ورد في الكلمة الافتتاحية لمعالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية لهذه الأيام الدراسية، أن إقليم تيزنيت يحتضن إلى الآن حوالي 70 مدرسة علمية عتيقة تؤوي أزيد من 1600 تلميذ، وقد نظم المجلس العلمي خلال هذه الأيام الدراسية زيارات إلى ثلاث مدارس هي : مدرسة أكلو، ومدرسة بونعمان وهما بإقليم تيزنيت، ومدرسة إيفران بإقليم كلميم.

لدى الدارسين والباحثين ما تستحقه من عناية تستهدف تخليد أمجادها، والتعريف بأياديها البيضاء دينيا وثقافيا ووطنيا.

وتحقيقا لجزء من هذه الغاية، أرجو أن يوفق هذا البحث في إبراز دور محمد المختار السوسي (1318 هـ - 1383 هـ / 1900م - 1963م) في كونه يعتبر في مغربنا الحديث :

1 - نموذج التلميذ الذكي العبقري خريج المدرسة العتيقة.

2 - نموذج الأستاذ النبيه الموفق في تكوين أفواج التلاميذ العالمين والعاملين، وذلك من خلال المدرسة العتيقة.

3 - نموذج المجاهد المناضل في سبيل توسيع وتطوير المدرسة العلمية العتيقة.

4 - نموذج الباحث المؤرخ الذي خصص للمدرسة العتيقة قسطا وافرا من كتاباته ومؤلفاته.

☆ ☆ ☆

1 - التلميذ العبقري المتخرج من المدرسة العلمية العتيقة :

كان التعليم الذي تلقاه العلامة محمد المختار السوسي، تعليما تقليديا صرفا. وكانت المدرسة العلمية المغربية العتيقة المكان الوحيد الذي تلقى فيه تعليمه، والمنهل الوحيد الذي نهل منه ما استطاع به أن يحتل مكانة بارزة في كثير من المجالات الفكرية والعلمية، والأدبية والوطنية مما لا يسمح هذا الحديث بتناوله[4].

وقد تعددت المدارس العتيقة التي تلقى فيها صاحبنا دراسته بتعدد المجالات المعرفية والعلمية التي برز فيها، وتنوعت بتنوع المناطق الجغرافية التي توجد فيها : انطلاقا من سوس، ومرورا بمراكش وأحوازها، واختتاما بفاس والرباط. وكانت هذه الرحلة العلمية خلال الفترة المتراوحة بين السنة الحادية عشرة والثلاثين من عمره : أي أنها استغرقت عشرين سنة كاملة.

فقد وجه محمد المختار السوسي إلى المدرسة العلمية بعد أن حفظ القرآن الكريم الذي ختمه سبع ختمات في ظرف سبع سنوات على يد مجموعة من المعلمين - في مقدمتهم والدته رحمها الله[5] - وذلك على عادة المغاربة في حرصهم على تحفيظ أبنائهم كتاب الله الكريم مقرونا بتعلم القراءة والكتابة، قبل توجيههم إلى تعلم العلوم.

1 - وهكذا افتتح أولا في المدرسة الإلغية الواقعة بمسقط رأسه[6] على يد أستاذها حينئذ السيد أحمد البولوقتي، وكان ذلك سنة 1329 هـ / 1911م.

2 - وبعد بضعة شهور نقل إلى المدرسة الإيغشانية[7] حيث قضى بها حوالي سنتين، تلقى خلالهما على يد أستاذها العلامة عبد الله بن محمد الإلغي[8] مبادئ علوم العربية والفقه والأدب، وذلك من خلال مجموعة من المتون التي يفتتح بها التلاميذ السوسيون دروسهم العلمية : كالأجرومية والمرشد المعين «ابن عاشر» ولامية ابن مالك في الصرف، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وألفية ابن مالك، ولامية العجم.

3 - وفي شهر رمضان من سنة 1331 هـ / غشت 1913م، التحق بمدرسة بونعمان[9] التي كان يدرّس بها أحد كبار علماء سوس في ذلك الوقت وهو

---

4) لمزيد التوسع يراجع كتاب : محمد المختار السوسي : دراسة لشخصية وشعره. للكاتب.

5) الإلغيات للمختار السوسي : 215/2، وانظر ترجمة والدته في كتابه المعسول : 39/3 - 56.

6) ولد المختار السوسي في قرية دوكادير الواقعة وسط بسيط إلغ، الموجود في قلب الأطلس الصغير على بعد حوالي 80 كلم شرقي تيزنيت وحوالي 25 كلم جنوب غربي بلدة تافراوت.

7) توجد في الجزء الشمالي الشرقي من بسيط إلغ - وتبعد عن قرية دوكادير بحوالي 14 كلم.

8) توجد ترجمته في المعسول : 156/2 - 190.

9) توجد على بعد حوالي 30 كلم جنوب مدينة تيزنيت.

الأستاذ أحمد بن مسعود[10]، وعلى يديه أتقن محمد المختار مختلف العلوم التي تلقى مبادئها في المدرستين السابقتين[11] رغم أن مدة دراسته بها لم تتجاوز سنة واحدة.

4 ـ أما المدرسة العلمية السوسية الرابعة التي قصدها محمد المختار فهي مدرسة تانكرت الواقعة بمنطقة إفران الأطلس الصغير[12]، وكانت لهذه المدرسة في عهدها مكانة بارزة لا توازيها فيها أية مدرسة أخرى في سوس، إذ كانت تدار من قبل أشهر شعراء سوس في بداية مغرب عهد الحماية، وهو الأديب الطاهر الإيفراني[13]، وبمساعدة عالمين سوسيين شهيرين وهما : محمد بن الطاهر الإيفراني[14] ومولاي عبد الرحمن البوزكارني[15].

وفي هذه المدرسة قضى محمد المختار أزيد من أربع سنوات أي إلى أواخر سنة 1336 هـ[16] / 1918م، إذ لم يغادرها «حتى أصبح يتذوق الأدب الرفيع، وصار له إطلاع في آلاته وفنونه، مما أعانه على المضي فيه قدما»[17]، إلى جانب ما صار يبدو عليه من معالم النباهة والنبوغ في مختلف العلوم التي كان يتلقاها على أيدي هؤلاء العلماء، مما شجعه على التفكير في السعي إلى استكمال تكوينه العلمي خارج مدارس سوس، وخارج بيئته التي كانت كثير من مناطقه ما تزال تخوض معركة صدّ التوسع الاستعماري في هذا الجزء من الوطن[18]، الأمر الذي عمله على أن يقرر التوجه إلى خارج سوس لمواصلة طلب العلم، حتى يتأتى له أن يلقح ما تلقاه في مدارس سوس، وبعلوم أخرى في وسط جديد في بيئته وفي أساتذته وتلاميذه.

5 ـ وهكذا توجه في بداية الأمر إلى مدرسة الساعدات الواقعة في أحواز مراكش[19] حيث مكث طوال سنة 1317 هـ / 1918 ـ 1919م، تلقى خلالها علوما مختلفة على ثلاثة من أساتذتها.

6 ـ ومن هناك حلّ بمراكش لتكون جامعة ابن يوسف المرحلة الأولى من رحلته العلمية، عبر الحواضر المغربية، بعد أن استغرقت دراسته العلمية في المدارس العلمية البدوية حوالي تسع سنوات.

وفي جامعة ابن يوسف تلقى علوما متنوعة، منها ما سبق له أن درسه في مراحل دراسته السابقة، ومنها ما درسه لأول مرّة[20]، وكان ذلك خلال مدة استغرقت خمس سنوات، وعلى يد اثني عشر أستاذا.

7 ـ وكانت جامعة القرويين بفاس، المرحلة المدرسة السابعة التي قصدها محمد المختار، والمؤسسة الحضرية الثانية التي صقلت شخصيته وطبعتها بعلوم جديدة، إضافة إلى تعميق دراسته لعلوم وكتب كانت موضوع دراسته في المراحل السابقة، وقد دامت دراسته بجامعة القرويين حوالي أربع سنوات : من فاتح سنة 1343 هـ إلى متم سنة 1346 هـ الموافق لـ : 1924 ـ 1928م، وكان عدد أساتذته بفاس أحد عشر أستاذا، وعدد العلوم والكتب التي تلقاها سبعة عشر، الأمر الذي كان الأثر البالغ في نفسه فقال متحدثا عن ذلك : «في فاس استبدلت فكرا بفكر، فتكون لي مبدأ عصري على

---

10) توجد ترجمته في المعسول القسم الخاص بالمعدريين.

11) الإلغيات : 218/2.

12) توجد في السفح الجنوبي للأطلس الصغير على بعد حوالي 90 كلم إلى الجنوب الشرقي من مدينة تيزنيت، وحوالي 24 كلم شرق بلدة بويزكارن.

13) توفي في رمضان 1374 هـ / مايو 1955م. انظر ترجمته بتفصيل في المعسول 69/7 وما بعدها، وفي رسالة جامعية بعنوان : الطاهر الإيفراني : حياته وشعره، للأستاذ عبد الله درقاوي (توجد بمكتبة كلية الآداب بالرباط).

14) انظر ترجمته في المعسول : 238/7 وما بعدها.

16) الإلغيات : 219/2.

15) توجد ترمته في المعسول : 90/10 وما بعدها.

17) محمد بن عبد الله الروداني : مقدمة كتاب : إيليغ قديما وحديثا. ص : (يب).

18) لم يستسلم آخر معقل للمقاومة المغربية في سوس إلا في ربيع سنة 1934م.

19) تقع قرب بلدة شيشاوة على بعد حوالي 70 كلم غربي مراكش.

20) ترجم لهم محمد المختار السوسي في كتابه المخطوط : مشيخة الإلغيين من الحواضر.

آخر طراز، قد ارتكز على الدين والعلم والسنة القويمة»[21].

8 ـ وكانت الرباط المحطة الأخيرة في رحلته العلمية، وكانت السنة التي قضاها بها تمام العشرين سنة التي بلغتها مدة تلقيه العلوم، وفي العاصمة تلقى العلوم على ثلاثة من كبار مشايخها وهم : الشيخ أبو شعيب الدكالي، ومحمد السائح، والمدني بن الحسني[22].

يتجلى مما سلف أن محمدا المختار السوسي يعتبر بحق النموذج الأمثل للتلميذ النبيه الذي صرف كل مراحل دراسته في تلقي العلوم، من خلال مؤسسات تنتمي إلى طراز واحد من التعليم : إنها المدارس العلمية العتيقة، وكان لما تلقاه في هذه المدارس تأثير جد قوي في نفسه[23]، فصرف قسطا كبيرا من حياته ومن أعماله في خدمة هذه المدارس مما ستتعرف عليه بإيجاز في الفقرات الموالية.

☆ ☆ ☆

2 ـ نموذج الأستاذ الموفق في تكوين أجيال من خريجي المدرسة العتيقة :

دأب محمد المختار السوسي على اعتبار المدرسة العلمية التقليدية مؤسسة علمية صالحة لمواكبة ومسايرة ما يستجد في كل عصر وفي كل بيئة، اقتناعا منه بأن المحافظة على الأصالة المغربية ضرورة تحتمها عدة اعتبارات، وأن التعليم المغربي الإسلامي الأصيل يعتبر الدعامة الكبرى والفعالة بتكوين الإنسان المغربي القادر على الدفاع عن الإسلام وعن الوطن، والقادر على صد العدو الاستعماري وعلى المحافظة والدفاع عن السيادة الوطنية[24].

انطلاقا من هذه القناعات تخرج على يديه في مدرسته التي أسسها بمراكش أوائل سنة 1348 هـ / 1929م : عشرات الطلبة الذين سجلوا حضورهم في مختلف المجالات : الوطنية[25]، والعلمية[26]، والأدبية[27] وذلك بما كان يبثه في نفوس تلاميذه وطلبته من روح وطنية عالية مخلصة لدينها ولطنها ولملكها، ومتشبعة بروح إسلامية صادقة، متجلية فيما عرفوا به في مجال الكفاح ضد الاستعمار، وفي ميدان التعليم والتدريس، وفي مختلف المناصب الإدارية والسياسية التي تولاها بعضهم، إضافة إلى ما سجله عدد منهم في الساحة الأدبية انطلاقا من سنوات الثلاثين من هذا القرن وإلى اليوم. وقد كان للدور الفعال والخطير الذي كان يقوم به في مدرسته بحي الرميلة بمراكش الأثر المباشر والوحيد الذي حمل سلطات الحماية على اتخاذ قرار نفيه عن مراكش إلى إلغ ـ مسقط رأسه ـ ذلك القرار الذي نفذ فعلا يوم 28 ذي الحجة 1355 هـ (11 مارس 1937م).

وهو الأمر نفسه الذي حمله على الرحيل إلى الدار البيضاء في شهر ربيع الأول 1370 هـ / دجنبر 1950م[28]، أملا في النجاة من متابعة سلطات الحماية وعملها باشا مراكش حينئذ : «التهامي الكَلاوي». إلا أن

---

21) الإلغيات : 226/2، وقد ترجم المختار في كتابه : مشيخة الإلغيين من الحواضر لسائر أساتذته بجامعة القرويين الذين كان في مقدمتهم : مولاي العربي العلوي، ومولاي أحمد البلغيثي.

22) ترجم لهم المختار في كتابه الآنف الذكر. كما ترجم لهم المرحوم عبد الله الجراري في كتابه أعلام الفكر المعاصر في العدوتين : الرباط وسلا : ج 2. إضافة إلى أنه خصص لكل واحد منهم جزءا من سلسلته : شخصيات مغربية.

23) لمزيد التوسع يراجع الباب الأول من كتاب : محمد المختار السوسي : دراسة لشخصيته وشعره. لكاتب هذه السطور.

24) فصل محمد المختار السوسي آراءه هذه في أكثر من موضع من مؤلفاته وخاصة كتاب : الإلغيات، ومقدمة كتاب : المعسول.

25) من الوطنيين المقاومين الذي درسوا عليه : مولاي عبد الله إبراهيم، وأحمد النور وعبد القادر حسن المراكشيون، ومحمد الوديع الآسيفي وعمر المتوكل الساحلي الباعمراني.

26) يصعب إحصاء عدد العلماء الذين تخرجوا على يديه، وقد وضع تلميذه الأستاذ عمر الساحلي المتوكل لائحة أولية لهؤلاء العلماء في كتابه : المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة بسوس : ص : 434 ـ 444.

27) من الأدباء الذين تخرجوا على يديه : عبد القادر حسن صاحب ديوان : «أحلام الفجر» عرفة الفاسي، محمد الوديع الآسفي، أحمد الجوهاري، محمد الوداني، إبراهيم الإلغي.

28) معتقل الصحراء : 12/1.

الاستعمار كان يترقب حركات وسكنات محمد المختار في الدار البيضاء نفسها، فقرر اعتقاله للمرّة الثانية وإبعاده إلى صحراء تافيلالت وكان ذلك سنة 1372 هـ / 1952م[29].

وميزة محمد المختار الأستاذ : أنه كان مبدع منهجية تربوية جديدة في عصره، لم يكن التعليم التقليدي يعرفها من قبل، وهي منهجية نالت إعجاب زوار المدرسة من مشاهير رجال الحركة الوطنية على الخصوص، أمثال المغفور لهم : علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني[30] وعبد الله الجراري[31].

☆ ☆ ☆

3 - نموذج الأستاذ المجاهد في سبيل توسيع وتطوير المدرسة العتيقة :

لم يكن محمد المختار السوسي مجرد أستاذ اتخذ المدرسة العلمية العتيقة وسيلة لنشر علمه، وبث أفكاره الوطنية والإصلاحية في صفوف تلاميذه، بل طوال حياته يناضل ويكافح في سبيل الإكثار من المدارس العلمية الأصيلة، وفي سبيل تطويرها، سواء من حيث مناهج التدريس فيها - مما لا يتسع المجال لذكرها وقد أشرنا إلى أبحاث تناولت هذا الجانب في الهامشين رقم 30، 31 - أو من أهدافها البعيدة والعميقة الرامية إلى تكوين الإنسان المغربي الصالح دينيا ووطنيا وفكريا وسلوكا.

وسعيا منه إلى تحقيق هذه الأهداف نجده في مقدمة الشبان الذين استجابوا لاقتراح الفقيه محمد الغازي المكناسي بتحويل الزاوية الناصرية بفاس إلى مدرسة علمية، حيث تطوع إلى جانب هؤلاء الشبان - وكانوا جميعا طلبة بجامعة القرويين - بالتدريس بها، وكان قرار إغلاق هذه المدرسة التقليدية الوطنية من قبل سلطات الحماية سببا في اضطراره إلى التوقف عن الدراسة وبالتالي إلى مغادرة فاس.

ولما حلّ بمراكش، وبعد تأسيسه مدرسة الرميلة التي كانت في الأصل زاوية للطريقة الدرقاوية، سعي إلى الاتصال بنخبة من علماء مراكش الذين كانوا أساتذة بكلية ابن يوسف، فأقنعهم بالسير على خطته، وتم في ظرف بضعة شهور من حلوله بهذه المدينة إنشاء سبع مدارس على علمية على غرار مدرسته بحي الرميلة، وارتفع هذا العدد عند نفيه من مراكش - بعد حوالي ثماني سنوات - إلى أزيد من عشر مدارس.

ولم يقتصر جهده على السعي إلى تأسيس المدارس العلمية داخل مدينة مراكش فحسب، بل تعداه إلى المناطق المجاورة فكان يتصل بقادة ورؤساء القبائل، ليحثهم على ذلك حيث لقيت دعوته استجابة عدد من هؤلاء الرؤساء في حاحة وعبدة والرحامنة[32]، وكان ينتدب لتلك المدارس تلاميذه النجباء الذين يأنس فيهم مقدرة على نشر أفكاره من خلال تلك المدارس.

وفي سنوات الأربعين ترأس بمراكش لجنة بناء مجموعة مدارس ابن دغوغ بروض العروس، والتي صارت تعرف فيما بعد بمدارس محمد الخامس الذي تفضل - رحمه الله - فترأس حفل تدشينها في شهر أبريل سنة 1950.

---

29) ذهب تخوف المستعمرين من تلاميذ مدرسة الرميلة إلى حد اعتبارها أشد خطرا على وجودهم من تكنة عسكرية (انظر مقالا للأستاذ محمد إبراهيم الدفالي، نشره بمجلة الإيمان س 12 ع 113 - 114 ص 92).
وذهب بهم الأمر إلى أبعد من هذا فشبهوها بمدرسة المهدي ابن تومرت بتينملل : (انظر الإلغيات : 49/1).

30) انظر مقال الأستاذ الدفالي الآنف الذكر، وآخر للأستاذ أحمد معنينو نشر بمجلة الفنون التابعة لوزارة الشؤون الثقافية ع 2 س 4 دجنبر 1977 ص 111، ولنفس مقال آخر أشار فيه إلى الموضوع ذاته نشر بمجلة الإيمان السالفة الذكر ص 80 - 84.

31) انظر كتاب : عشرة أيام في مراكش للمرحوم عبد الله الجراري (مخطوط).

32) تعتبر مدرسة القائد العيادي ببلدة ابن كرير القائمة إلى اليوم ثمرة من ثمار مساعيه خلال سنوات الثلاثين من هذا القرن.

4 ـ نموذج الباحث الذي كتب الكثير عن المدرسة العلمية العتيقة :

إذا كان محمد المختار السوسي جديرا بلفت : «التلميذ النموذج» للمدرسة العلمية العتيقة، وجديرا كذلك بلقب «الأستاذ النموذج» لهذه المدرسة، وبلقب «المجاهد في سبيل إحيائها وتوسيعها»، فإنه جدير كذلك بلقب «الباحث والمؤلف النموذج» الذي خصص في كتاباته حيزا كبيرا للمدرسة العلمية العتيقة وخاصة بسوس، وقد تناولت كتاباته هذه كثيرا من جوانب هذه المدارس :

أ فقد عرّف بمدارس سوس على الخصوص من حيث تأسيسها، وتطورها، وعناية الأهالي بها، وعرّف بمحتويات خزاناتها وبالعلوم والمعارف التي تلقنها لتلاميذها، وعرّف بالإشعاع الذي كان لها على الصعيدين المحلي الإقليمي والوطني.

ب كما ترجم لأساتذتها، وشيوخها، وتحدث عن آثارهم المتجلية فيما خلفوه من آثار، وما كوّنوه من تلاميذ، وما أسهموا به سبيل مقدمة العرش محثلا في إخلاصهم له وجهادهم في سبيله ونصرتهم له، وخاصة في المواقف الصعبة التي تعرفها البلاد من حين لآخر، وكذلك مساهمتهم في خدمة الدين ممثلا في محاربتهم البدع، وتصديهم للشعوذة، ودأبهم على نشر العقيدة الصحيحة باعتمادهم على الدعوة إلى المتمسك بالكتاب والسنة وبالمذهب السني المالكي.

جـ ـ وترجم لتلاميذ هذه المدارس النجباء سالكا في ذلك المسلك نفسه الذي سلكه في الترجمة لأساتذتها.

ورد هذا كله في مؤلفاته العديدة التي وضعها لهذا الغرض وهي مؤلفات على نوعين :

1 ـ النوع الأول : خاص بالمدارس العلمية منها :

- سوس العالمة (مطبوع).

العلامة المرحوم سيدي محمد المختار السوسي

وفي السنة الأولى من عهد الاستقلال سعى إلى تأسيس المعهد الإسلامي بتارودانت، الذي صار يعرف فيما بعد : بمعهد محمد الخامس، ثم بثانوية محمد الخامس للتعليم الأصيل، وهذه المؤسسة العلمية العتيقة فتحت أبوابها في أكتوبر 1956، وفي ظرف وجيز صارت لها فروع في سوس ونواحي الصويرة، ونواحي ورزازات، وكانت تحتضن في أوائل سنوات الستين أزيد من 2000 تلميذا، يتلقون دراستهم في نظام داخلي، على يد أساتذة معظمهم من قدماء تلاميذ محمد المختار السوسي بمدرسة الرميلة بمراكش.

- مدارس سوس والعلماء الذين درسوا فيها (مخطوط).

- رجالات العلوم العربية في سوس (مخطوط).

- علماء لا معون من سوس أخذوا من القرويين (بحث منشور)[33].

- مجموعة فقهية في فتاوي السوسيين.

- المدارس العلمية في أحواز مراكش (منشور)[34].

2 - أما النوع الثاني فيتعلق بمجموعة من مؤلفاته نالت فيها المدارس العلمية قسطا وافراً منها :

- المعسول (مطبوع في 20 جزء).

- خلال جزولة (مطبوع في 4 أجزاء).

- مترعات الكؤوس في آثار طائفة من أدباء سوس (مخطوط).

- المؤلفون السوسيون (مخطوط).

وبعد : فإن من أبرز سمات شخصية محمد المختار السوسي رحمه الله أنه لا يثار جانب من جوانب البحث أو المعرفة، إلا وتوجد لهذه الشخصية آثارها الواضحة في هذا الجانب، إنه شخصية من الشخصيات النادرة التي جاد بها الزمن على مغرب النصف الأول من هذا القرن، شخصية تجود على كثير من مجالات حياتنا الفكرية الحديثة بأنماط من السلوك ومن العطاء كفيلة بأن نقتبس منها معالم لحياتنا الفكرية الحديثة والمستقبلة.

33) نشر في الكتاب الذي صدر عن جامعة القرويين بمناسبة تخليد ذكرى مرور أحد عشر قرنا على تأسيسها.

34) نشره في حلقات بجريدة رسالة المغرب خلال سنة 1950م.

معالم على طريق التاريخ :

المرتبات التاريخية والحضارية للموقع المغربي

للأستاذ المهدي البرجالي

يقوم قدر من الارتباط بين الوضعية الجغرافية لبلد من البلدان، وبين عدد غير محدد من الوقائع والتطورات والظواهر التي تطفر ـ على مدى الأجيال والدهور ـ في حياة ذلك البلد بمستوياتها المختلفة، وترسم للتاريخ والحضارة في أكنافه سبيلا معينا.

والوقائع والتحولات والظواهر التي نعني في هذا المقام، تشمل الجانب المادي في التاريخ والحضارة، كما تشمل الجوانب المعنوية كذلك، فسواء من حيث الكيفية الملموسة التي تظهر بها أوجه شتى من حضارة القوم، أو بالنظر إلى طبيعة ومجرى التفكير الذي أدى ـ محليا ـ إلى تكييف الصورة الحضارية كما هي قائمة فعلا، وسواء كذلك، باعتبار الاتجاهات التي اتخذها مسار التاريخ في هذا النطاق المحلي، فإن من الجائز في كثير من الحالات من هذا المعنى، أن تجد اتصالا ـ تقل أهميته أو تكثر ـ بين ما تلحظه من ظواهر وتغيرات وتكيفات وتبلورات، وبين الوضع الجغرافي للبلد الموضوع موضع الملاحظة بهذه الصورة.

وبحكم هذا الاتصال، يستطيع المرء ـ إذا ما توفرت له عناصر التقييم اللازمة ـ أن يستقصي ـ في طي الحالة التي يوجد عليها الوضع الجغرافي لقطر معين ـ جملة من المؤثرات ذات العلاقة السببية بالاتجاه الذي يكون قد اتخذه تاريخ مجتمع ذلك القطر، كما يمكنه أن يستشف من خلال ذلك، عددا من العوامل التي تضافرت على تشكيل فكر المجتمع المعني، وثقافته وصياغة الطابع الخاص بهما. وبما يتيحه له ذلك من مساعدة بصدد تحليل بعض مقومات المدنية القائمة في هذا الإطار، ودواعي اتخاذها الشكل واللون الذي تتميز به.

إن الأثر الناجم عن تفاعل الإنسان مع المحيط، كثيرا ما يفرز في سياق البحث، عناصر ذات دلالة مهمة إذا ما اتجه همّ الباحث إلى استخلاص حقائق بهذه الطريقة.

المحورية الاعتبارية للموقع المغربي

يمكن ـ عند دراسة الملابسات المتصلة بالموقع الجغرافي للمغرب، تعيين عدد من النقط الدالة على أثر هذا الموقع في تحديد وجهة التاريخ والثقافة والحضارة هنا، وما كان له في هذه الخصوص، من انعكاسات بعيدة الغور أحيانا على الصورة التي ظهرت بها هذه البلاد في حقب تاريخية مختلفة.

ومن المسلم به، أن خصائص الموقع المغربي وملابساته ومميزاته، هي من بين أغنى وأخصب ما يتوافر لموقع جغرافي ذي مضمون اجتماعي وسياسي وحضاري معين، ومن ثم، غنى وخصوبة الأحداث والتطورات التي

أفرزها المحيط المغربي، على امتداد التاريخ به، أو التي ساهم في إفرازها، ضمن النطاق العربي أو الإسلامي، أو الإفريقي، أو المتوسطي أو الأوروبي، نتيجة لتفاعلاته الواسعة والمتعددة أبعادا، مع تيارات التاريخ والمدنية في هذه الآفاق، ومن الطبيعي، أن يتسع للموقع المغربي ما اتسع له من هذا المجال الرحب للأخذ والعطاء، وهو الذي يستقطب أو يشارف أبعادا أرضية وبحرية في مثل الأهمية التي تكتسيها حدوده والآفاق الدولية المجاورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة له، وهو الذي أمكنه - بفضل ذلك - أن يعايش ويتبادل شتى المؤثرات مع قدر كبير من التيارات الفكرية والمتغيرات التي شهدتها المنطقة الحساسة التي تحتضنه. ولاستجلاء الصورة أكثر، نستشرف - أولا - المعالم الكبرى التي يتحدد بها الموقع المغربي، لنخلص - فيما بعد - إلى استبانة المترتبات المختلفة التي ارتبطت - باستمرار - بالتوجهات التي اتخذها مار الزمان به، ومن أبرز المعالم التي تذكر في هذا العدد، وجود الموقع المغربي، في الطرف الأقصى من أربعة عوالم كل منها له صفة مميزة خاصة به، مستمدة إما من حيثية جغرافية أو دينية أو قومية أو تاريخية؛ وهذه العوالم تبعا للترتيب الذي ذكر، هي العالم الإفريقي والعالم الإسلامي والعالم العربي، ثم ما دعي - اصطلاحا - بالعالم القديم، كما كان يتصور في الأذهان قبل اكتشاف نصف الكرة الغربي؛ ففي هذا النطاق الشاسع الذي توجد فيه كل هذه العوالم، يقع المغرب في الحد الأقصى من الغرب، مقابلا - بصورة مطلقة - الحد الآخر، الحد الأقصى إلى الشرق؛ وقد تهيأت بهذه الحال للكيان الجغرافي المغربي، مميزات موقعية ذات شان في المستوى الإقليمي أو الجهوي، ضمن حوض البحر المتوسط، أو في المستوى القاريّ (الطرف الغربي الشمالي من افريقيا) أو على الصعيد العالمي (المحيط الأطلسي).

وهي حال في الموقع، تتيح للمغرب إشرافا مباشرا على قارتين هما أوروبا وإفريقيا، والأولى من هاتين القارتين دانية من المغرب، على بعد كيلو مترات قليلة منه، والثانية وثيقة الصلة به، لأنه جزء منها، كما تتيح هذه الحال الموقعية أيضا للمغرب، إشرافا غير مباشر على قارتين أخريين في جملة القارات الرئيسية في العالم، وهما آسيا من جهة، ونصف الكرة الغربي من الجهة المقابلة، ومن ثم، فيمكن أن يُرى من منطلق نظرة معينة - أن الموقع المغربي - وإن بدا متطرفا في النهاية القصوى للامتداد الآسيوي الإفريقي، فإنه يحتل - مع ذلك - مقاما ذا صبغة مركزية أو محورية من حيث توسطه بين العالم القديم والعالم الجديد، وأيضا من حيث التأثير المتجدد الذي مارسه طويلا عبر المناطق المتوسطية القريبة منه (الأندلس الإسلامية مثلا)، وما كان لنشاطاته في هذا المجال من انعكاسات مهمة في مناطق مختلفة من العالم.

رسالة المغرب الأندلسية من خلال حتميات موقعه

وبطبيعة الحال، فهذا الاستقطاب الذي ساعدت عليه الوضعية الجغرافية للمغرب، قد لزم عنها ما لزم من تحمل هذا الكيان لجملة من الأعباء التاريخية التي كان بعضها بعيد الأثر في مجرى التاريخ، وذا طبيعة حاسمة في عدد من وقائعه وتطوراته، كما نجم عن هذا الأمر من جانب آخر، أن توفرت ظروف تاريخية مواتية لمصلحة الكيان المغربي، بما في ذلك ما حصل من توافر بيئة مناسبة لتلاقي عدة تيارات إيجابية في حضارته، وتفاعلها بأوجه شتى، تحت تأثيره؛ هذا وبالنظر لما حصل من كون المغرب قد اتخذ شخصيته الكاملة والناضجة في عهده بالإسلام، واستقامت له - من ثمت - مكونات القدرة على الاضطلاع بمسؤوليات تاريخية ضخمة فإن تحملات المغرب من هذا القبيل، تلحظ - بأوضح وجه منذ عصوره الإسلامية الأولى، وانطلاقا من بداية تلك العصور بالذات؛ وتظهر هذه الصورة في تحمل المغرب الإسلامي - كمعبر ومصدر مدد بشري ومادي ولوجيستي لحركة الفتح الإسلامي للأندلس، وقد كانت تلك الحركة - كما يعلم - حركة إسلامية في حوافزها الروحية، عربية في توجيهها، مغربية في مرتكزاتها العملياتية وعمقها الإستراتيجي، وفي جانب مهم من قدرتها القيادية ومددها البشري، وقد كان

لموقع المغربي الجغرافي تأثير حيوي في حصول ما حصل من هذا الارتكاز التاريخي حوله، متصلا بامتداد العروبة والإسلام عبره إلى البر الآخر على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط.

ولنا أن نعين نقطتين أساسيتين في هذا السياق، تُفسران ـ بقدرما ـ هذه الحتمية التي اكتساها الارتكاز حول المغرب، في الامتداد الإسلامي إلى العدوة الأخرى عبر المجاز.

أولى هاتين النقطتين : وقوف الفتح الإسلامي لشمال افريقيا عند شواطىء المغرب باعتبار أن هذه الشواطىء تشكل نهاية المطاف في الخط الأفقي الذي اجتازه ذلك الفتح في انطلاقته من المشرق.

النقطة الثانية : وجود الساحل الأوروبي في امتداداته الإيبيرية، عند أقرب نقطة من إفريقيا في موقع مضيق جبل طارق حيث يتقابل المغرب مع العدوة الأوروبية تقابلا مباشرا، ويتدانيان أحدهما من الآخر، إلى حد يكاد يكون تلامسا من منظور الخرائط الجغرافية.

لقد كان على حركة الفتح الإسلامي ـ وقد بلغت عند الموقع المغربي ـ نهاية الشوط في امتدادها الأفقي ـ أن تثني العنان للاتجاه عموديا إمّا نحو الشمال، عبورا للمضيق، وإما إلى الجنوب مرورا بالصحراء، محفوزة في كل ذلك بديناميتها القوية التي لم يكن ليقف أمامها شيء في السبيل إلى نشر إشعاعاتها الهادية، وفي هذا بإطلاقه، كان المغرب مرشحا حتما، وبصورة لا بديل عنها، ليكون مركزا للانطلاق الجديد المفتوح في الاتجاه العمودي نحو الشمال، بحكم أن الموقع المغربي كان موجودا في نهاية حركة الفتح الآتية إليه عبر الشرق عبر مسار أفقي. ولقد كانت مداناة المغرب لأوروبا عبر بحر الزقاق، عاملا جوهريا لتأكيد هذا الترشيح، بل ولجعله ضرورة حيوية من أجل تأمين ذلك الاتصال الأوّلي الذي حصل بين الإسلام كدين ذي مضمون فكري وثقافي وحضاري، وبين المحيط الأوروبي. وطبعا فكما كانت المهمة التاريخية من هذا القبيل ذات وزن ثقيل في منطلقها وملابساتها، فإن المترتبات التي أنجزت عنها في الأمد القريب أو البعيد، لم تكن بأقل جسامة وتطلبا لباهظ التحملات، بل إن التبعات التي نجمت عن طبيعة ومضمون الدور الذي ناطه التاريخ بالمغرب في مجرى فتح الأندلس، كانت من جنس اقتضى من هذا البلد، أن يكون أطول نفسا وأشد مراسا، وأوسع استعدادا لأن تستغرقه الوضعية الإسلامية الأندلسية. وتمتص جملة كبرى من اهتماماته وجهوده طوال قرون متعاقبة إلى نهاية الوجود العربي الإسلامي بالعدوة؛ ويتمثل ذلك ـ بكيفية أساسية ـ فيما طوق به المغرب من أعباء الدفاع عن المجتمع الإسلامي الأندلسي وشد أزره، وهو منفرد وحده في قارة لا سند له فيها إلاَّ قُرْبَةَ من الأرض المغربية، والتحامه سياسيا وعسكريا بالمجتمع في هذه الأرض؛ ولا مغالاة في القول، أن المغرب اضطلع في نطاق هذا الدور ـ الذي تحمل عبئه بطواعية وبفيض حماس ـ بمواجهة تجمع صليبي كثيف وقوي الشكيمة، كان عليه ـ وبصورة مركزة ـ أن يصاوله ويجاوله بكل ما في وسعه، ولأمد جد طويل؛ وهو دور تهيأ له المغرب طبيعيا بحكم مجاورته للأندلس، مثلما تهيأ له فكريا ونفسيا بعمق وعيه الإسلامي، وحرارة تشبعه بالقيم والمثل التي ما برحت تحدو خطواته في هذا السبيل.

حينما حال المغرب دون انتشار الزحف الأوروبي مبكرا نحو إفريقيا

لقد ترتب عن نهاية الوجود العربي الإسلامي بالأندلس، بعد مضي قرون عديدة أتيح فيها لهذا الوجود الاستمرار نتيجة للجهد الدفاعي المغربي عن العدوة ـ أن خلا المجال للجحافل الإيبيرية التي أصبحت مشرفة ـ مباشرة من مواقعها في أقصى الجنوب الأندلسي ـ كي تحاول الزحف على الضفة الجنوبية من البحر المتوسط؛ وفي هذه الحال، كان المغرب ـ للاعتبارات الجغرافية المتعلقة بموقعه الداني من العدوة الأندلسية ثم أيضا، للاعتبارات التاريخية المتمثلة في كونه ظل ـ منذ أواخر القرن الهجري الخامس الرافد الأساسي للصمود الإسلامي الأندلسي وركيزته ـ كان المغرب إذن لهذه الاعتبارات جميعها، الهدف المركزي الذي ألحت عليه الإستراتيجية الهجومية للإيبريين، وهم بصدد

الانقضاض على ما يقابلهم من الشواطىء الإفريقية، وبيت القصيد فيما توخّوه من ذلك.

وشغل هذا الوطن في غضون الحقبة التي تلت سقوط الأندلس ـ الإسلامية ـ بمدافعة موجات المد الإيبري التي تواترت في فترات متعاقبة على امتداد سواحله الشمالية والغربية، وقد اقتضاه موقعه أن يكون في تلك الملاحم التي خاضها من أجل حماية ثغوره، ووقف الزحف الكثيف الذي تعرضت له، وتصفية آثار ورواسب حالات الاحتلال التي خضع له بعضها ـ بمثابة خط دفاع عن عمق القطاع الغربي من القارة الإفريقية، إذ من الواضح أنه لولا صرامة المغرب في التصدي للهجمات الإيبيرية التي انهالت عليه، ولولا رباطة جأشه وشدة بأسه ومصابرته القوية في مواجهتها، لكان منه ـ ساعتها ـ منفذ للغزاة الأوروبيين إلى أعماق الغرب الإفريقي، وفي وقت أكثر تبكيرا مما حصل في التاريخ فعلا.

ومن هنا، يتبين المرء إلى أي حد كانت أهمية صفة الفصل أو الحسم في معركة وادي المخازن؛ لقد تجاوزت طاقة الحسم في هذه الملحمة ـ النطاق المغربي والعربي ـ الإسلامي الخاص، لتنعكس آيتها أيضا على صعيد إفريقيا السوداء، ولتكتسي بذلك ـ في نهاية التحليل ـ صبغة تؤهلها لأن تصنّف في عداد الوقائع الكبرى التي تغير بها مجرى التاريخ العالمي عامة، وتكيفت بها وجهته على نحو مختلف عما سبقها.

وتعميقا لآثار وادي المخازن، توالت الملاحم التي خاضها المغرب في تلك الحقبة ضارية حامية، إلى أن توصل في خاتمة المطاف إلى تصفية وجود الغزاة على شواطئه إلا ما كان من سبتة ومليلية والجزر الشاطئية.

على أنه إذا كان تجاور المغرب والأندلس قد صهر تاريخهما ـ في خلال حوالي ثمانية قرون ـ ضمن بوتقة مشتركة، فإن ذلك أيضا كان له أثره العميق على العدوتين من الناحية الفكرية والثقافية والحضارية، أدبا وعلما وتعميرا وعادات وممارسات مختلفة، حتى إنه ليسوغ القول، إن المغرب بقدر ما كان درع الأندلس جهاديا، فقد كان كذلك شريكها الحميم في مضمار الثقافة والحضارة، والمؤتمن على تراثها الفني والأدبي والعلمي، بعد أفول نجم العرب هناك.

☆ ☆ ☆

ومن مترتبات كون الموقع المغربي موجودا على البحر، أن توفرت له الدواعي ليكون خلال عصور مختلفة من تاريخه ـ دولة بحرية مرموقة بما لها من أساطيل ومرافىء وتجهيزات وأوراش وصناعات وأطر تتعلق بالاستعمالات البحرية؛ وقد بلغ المغرب في هذا المضمار ـ على مدى أشواط عديدة من ماضيه القريب والبعيد ـ مبلغا جعل منه قوة بحرية ذات وزن كبير في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وعنصرا يحسب حسابه في المعادلات الدولية التي كانت تقوم في عصر أو آخر بهذه المنطقة.

إن الجمل البحري، لمن بين أهم جوانب التاريخ المغربي في العصر الوسيط أو فيما بعده، سواء على المستوى الحربي أو التجاري أو نحوه. وتزخر الوثائق والمستندات المغربية (ما يتعلق بالصلات الديبلوماسية أو المعاهدات الدولية الخ) بفيض من الشواهد على هذه الأهمية التي ما فتئت تحيط بوضع المغرب كقوة بحرية ذات فاعلية.

علاقة رائدة بنصف الكرة الغربي

لقد استقطب الموقع المغربي بوضعيته في نهاية العالم الإفريقي والعربي والإسلامي، والعالم القديم ـ وبممكناته المادية والبشرية، ديناميكية التاريخ في منطقة شاسعة تشمل الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط والغرب الإفريقي على امتدادات فسيحة منه إلى الجنوب، ومن جهة أخرى، فإن مقابلة المغرب للعالم الجديد، ومن موقع النهاية في العالم القديم، قد أتاح لهذه البلاد علاقة ذات صفة رائدة بنصف الكرة الغربي، وبطبيعة الحال، فلم يكن التقابل الجغرافي وحده خلاصة كل العوامل التي أدت إلى انطلاقات العلاقة المغربية مع عالم ما وراء المحيط الأطلسي، منذ نشوء الولايات المتحدة الأمريكية، بل كان هناك أيضا ـ كعامل مهم ـ تأثير حيوية النشاط المغربي على الصعيد الدولي عامة وأهمية المكانة التي له، والدور الذي ما برح يضطلع به في الحوض المتوسطي وفي غيره.

الثقافة العربية الإسلامية

في غرب إفريقيا "السودان" على عهد المرابطين

للدكتورة عصمت عبد اللطيف دندش

قامت دولة المرابطين على أساس نشر المذهب المالكي، ومحاولة بعث القوى الإسلامية، واستنهاضها، والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى عهد السلف الصالح، واعتمدت في التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلنت على البدع والمنكرات التي انتشرت حربا لا هوادة فيها، فحطمت دنان الخمر، وكسرت آلات الطرب، وطالبت الناس بالقيام لفروض دينهم، ولذلك لقيت دعوة المرابطين الترحيب أينما حلت، واستنجد بها الفقهاء والعلماء لتخليص البلاد من المفاسد، والمظالم، وفتحت البلاد والمدن أبوابها لهؤلاء المجاهدين الذين لا يبغون من الحياة الدنيا سوى الإصلاح، وقد توسعت هذه الدولة من مبدأ الجهاد، وأعادت إلى الأذهان صورة الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين، فعاشت من أجل الجهاد طوال فترة حكمها القصير، وسخرت كل مواردها لهذا العمل، وجعلت من البلاد معسكرا ضخما تدوي فيه طبول الجهاد، وبرغم انشغالها الدائم في الجهاد، فإنها لم تغفل النواحي الاجتماعية، والحضارية في هذه البلاد، فأرست قواعد الأمن، والطمأنينة بين الناس فازدهرت الحياة الاقتصادية والثقافية في أرجاء الدولة[1].

1) ابن أبي زرع : روض القرطاس، ص 157.

2) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، ص 325.

وقبائل الملثمين التي قامت على أكتافها دولة المرابطين، كانت قبائل بدوية، ولكنها امتازت بأنها قبائل بناءة غير مخربة، فلم تكن تغير لمجرد السلب والنهب، وإنما من أجل نشر عقيدة سامية، كانت تغير لكي تقوم، وتصلح ما اعوج، وكان الفضل في ذلك كله راجعا إلى إمامهم الشيخ عبد الله بن ياسين، فقد أثرت فيهم الحياة العقلية الرفيعة التي مارسوها في بدء حياتهم في رباط ابن ياسين، الذي فتح عقولهم للثقافة الإسلامية، والتراث العربي، وتركت تعاليمه في نفوسهم أبلغ الأثر، فبدءوا منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامهم أرض المغرب، يقبلون على المدارس في شغف، فلم يتخلفوا عن الركب، ليتابعوا حياة الإغارة والعدوان، بل انكبوا على الثقافة والعلم ينهلون ويأخذون منه بنصيب وافر[2].

وكان لانتشار المرابطين صوب السودان في الجنوب، وامتداد سلطانهم على الأندلس، أن جمعت دولتهم بين المؤثرات الأندلسية والمغربية والسودانية، فألفت بين تراث هذه البلاد ذات الحضارات المختلفة، والثقافات المتباينة، فازدهرت مراكش عاصمة هذا الملك الشاسع، وبلغت أوجها

3) عبد الواحد المراكشي، المعجب ص 164.

فكانت «حاضرة الدولة ومقر السلطان وكعبة القصاد، وفد إليها العلماء من كل فج لينعموا بالحياة قريبا من الأمراء، فينالوا رفدهم، وعطاءهم، وقصدها من كل فحوله، حتى أشبهت حضرة بني العباس في صدر دولتهم»[3].

ومع أن المؤثرات الأندلسية، كانت موجودة في المغرب قبل عهد المرابطين، إلا أنها لم تكن تتعدى الإقليم الشمالي، الذي انتشرت فيه المدن، ذات الماضي المجيد، في تاريخ الحضارة الإسلامية مثل فاس، لا تكاد تتخطى هذا النطاق إلى الجنوب، فلم يكن هناك تعاون أو اتفاق بين إقليم السهول، وإقليم الصحراء، وأصبح هذا التباين بين قسمي المغرب الأقصى، عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية، وبين أن تعم البلاد.

وفي عهد المرابطين استطاعت المؤثرات الأندلسية، والمغربية بالتالي أن تتخطى جبال درن في الجنوب، موغلة في إقليم الصحراء، حتى وصلت إلى السودان، حيث الحضارة الزنجية البكر، وحيث وجدت هذه المؤثرات الأندلسية الراقية، والمتقدمة من يشجعها من المرابطين، ويأخذ بيدها ويشد أزرها، ويدل على ذلك أن الأمير أبا بكر بن عمر كان يصحب معه الشيخ الفقيه أبا بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي[4] الذي عرف باختصاصه في علوم الاعتقادات، وهو أول من أدخلها المغرب الأقصى، ونزل بأغمات وريكة، فلما عزم الأمير أبو بكر بن عمر التوجه إلى الصحراء ولاه قضاء أزكى[5] من صحراء المغرب وبقي بها إلى أن توفي عام 489 هـ / 1096م).

حل الشيخ الفقيه أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير محل شيخه المرادي، وكان يختلف من مراكش إلى أغمات وبعض مدن المغرب، يأخذ طلبة العلم عنه، ومنهم القاضي عياض الذي ذكره ضمن شيوخه بقوله : «قرأت عليه أرجوزته الصغرى التي ألف في الاعتقادات، وحدثني بالكبرى وبكتاب التجريد لأبي بكر المرادي شيخه، وعنه كان أكثر أخذه».

وتوفي أبو بمراكش عام 520 هـ / 1126م)[6].

وظهر من فقهاء المرابطين الفقيه أبو القاسم بن عذرا، وأخوه الفقيه سليمان ابن عذرا الجزولي، وكانا قد توليا أمور المرابطين الدينية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن ياسين.[7]

ومن شيوخ المرابطين الشيخ أبو محمد يرزجان بن محمد الجزولي الضرير الذي صحب الإمام أبا بكر بن العربي، ثم قدم مراكش واستقر بها إلى أن مات.[8]

وذكر القاضي عياض[9] الشيخ لمتاد بن نصير اللمتوني الذي بلغ منزلة كبيرة في علمه حتى أن المثل يضرب بفتياه في بلاد الصحراء، وتعظيم أمرها».

ومنهم أيضا أبو عبد الله الملك مروان اللمتوني الذي ذكره صاحب التشوف في عداد الأولياء والزهاد.[10]

وكان بعض الأمراء الذين لا تمكنهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والاختلاف إلى مجالس العلم، والعلماء، يرسلون في طلب أعلام الفقهاء والعلماء إلى قصورهم، فيجلسون إليهم، ويأخذون العلم عنهم، ويتفقهون في الدين على أيديهم، فذكر عن الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أنه كان يرسل في طلب الفقيه الجليل الشيخ على الصدفي،[11] ليسمع عليه الحديث وينتفع بعلمه وفضله، واتصل به الفتح بن خاقان.[12] الكاتب المشهور وباسمه طرز كتاب قصائد العقيان.

4) التادلي : التشوف في رجال التصوف، رقم 11، ص 106 وانظر مقدمة كتاب السياسة للمرادي الذي حققه الدكتور سامي النشار.

5) انظر الروض المعطار.

6) التادلي : م. س. من 106، الغنية، رقم 97، ص 226.

7) القاضي عياض : ترتيب المدارك، ص 3، 4 ص 780.

8) التادلي : م. س. رقم 114، ص 267.

9) القاضي عياض: م، س، ص 780.

10) التادلي : م، س، رقم 93، ص 238.

11) كان إماما مشهورا في العلوم من حديث وفقه، وولي القضاء في عدة أماكن وقصده الناس لأخذ العلم عنه حتى وفاته 514 هـ.
ابن الأبار : التكملة، ج 1 ص 144 : 146.

12) هو أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب كتابي مطمح الأنفس وقلائد العقيان، اتصل بملوك الطوائف فلما جاءت دولة المرابطين اتصل ببعض أمرائهم، وكانت وفاته بمراكش في أحد الفنادق وجد فيه قتيلا سنة 529 هـ / 1134م.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3 ص 193، ابن الأبار : المعجم، رقم 275.

واتخذ المرابطون العلماء لتهذيب بنيهم، فيذكر ابن خلدون[13] ذلك بقوله : «فقد نقل عنهم من اتخاذ المتعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتناء الأئمة للصلوات في نواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم، وقضاياهم».

وكان الأمير علي بن يوسف يرسل أبناءه إلى الأندلس لتلقي العلم، ويتشدد في تعليم أولاده، ويظهر ذلك من الرسالة القصيرة التي أرسلها علي بن يوسف إلى ابنه أبي بكر الذي كان يقوم على رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان بن زهر، وكان على ما يبدو أن الأمير أبا بكر لم يكن منكبّا على الدرس منصرفا إلى التحصيل، مما دعا والده إلى تقريعه ونهره، يقول فيها : «كتابنا ألهمك الله رشد نفسك من حضرة مراكش ـ بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان ابن الوزير أبي العلاء بن زهر، محل أبينا، يشكو ما يكابده ويقاسيه من تضريبك، فأمسك عليك رمقك، وخذ من الأمور ما يسر، وإلا أنقذناك إلى ميورقة»[14].

وأقبل أمراء المرابطين وعمالهم على الحياة الثقافية، ينهلون منها ومن مواردها في تواضع المستفيد، لا في كبرياء الحاكمين، مثال ذلك الأمير ميمون ابن ياسين الصنهاجي الذي عني بالرواية وسماع العلم وحج البيت الحرام، وسمع منه الناس، وحدث عنه أبو القاسم بن بشكوال، وغيره وتوفي هذا الأمير 530 هـ ـ 1106م.[15]

وكان من أجل مظاهر تسامحهم في الاستعانة والاستفادة بمعظم الكتاب والشعراء الذين خدموا ملوك الطوائف، حتى الذين استمروا على ولائهم، وإخلاصهم لدولهم الزائلة، فشجعوا العلماء منهم، خاصة في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين.[16]

وكان الفنانون والصناع يلقون من أمراء المرابطين، وولاتهم الشيء الكثير من التشجيع والحماية، فعندما حضر المهندس عبد الله بن يونس الأندلسي إلى مراكش في سنة 470 هـ ـ 1077م في عهد الأمير يوسف بن تاشفين ولم يكن بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين لأن الماء في هذه المنطقة ليس بعيد الغور، استخدم السواقي بعد أن قام بحفر آبار مربعة كبيرة من أعلى إلى أسفل، فكثرت البساتين فأكرمه الأمير يوسف طوال إقامته بمراكش.[17]

وصار للتأثير الأندلسي صداه في السودان الغربي، ويظهر ذلك من شواهد القبور التي كشفت عنها في منطقة النيجر، والتي صنعت في مدينة ألمرية بالأندلس، إذ وجدت شواهد منها في احدى المقابر وتحمل تاريخ 494 هـ ـ 1100م[18] كما عثر على شواهد قبور من عهد المرابطين أيضا في منطقة النيجر الأوسط، منقوشة بالعربية والإسبانية.[19]

كما يبدو هذا التأثير أيضا في قصور ملوك غانة التي وصفها الإدريسي فقال : «قد أوثق بنيانه، وأحكم إتقانه، وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان، وشمسيات الزجاج، وبنيان هذا القصر عام 510 هـ / 1112م).[20]

إلا أن التأثيرات المغربية في السودان الغربي كانت أكثر وضوحا وهذا أمر طبيعي، لأن الإسلام دخل هذه البلاد عن طريق المغرب، فحمل معه إلى غرب إفريقيةتقاليد المغرب وثقافته «يرتدون عمائم بحنك مثل

---

13) ابن خلدون : العبر، ج 6، ص 208.

14) د. حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني 1954، ص 68، 718.

15) ابن الأبار، المصدر السابق رقم 1823 الصفحة 718.

16) من هؤلاء الأدباء، والكتاب ابن القصيرة، والفتح بن خاقان، وأبو القاسم بن الجد، وأبو بكر بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وأبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه أبو مروان، والكاتب المؤرخ ابن الصيرفي مؤلف كتاب «الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية».
ابن خاقان : قلائد العقيان ص 104، 106، 109، 115، 148، 175، 181.
ابن بشكوال : الصلة رقم 1137، 1149، 1178،
ابن الأبار، م. س، رقم 743 11، 2045.

17) الإدريسي صفة المغرب وأرض السودان ص 67، 68.

18) حمد أحمد المغربي موريطانيا ومشاغل المغرب الإفريقية، ص 14.

19) Bovill, E.W., The Golden Trade of the Moors, p. 101, note 1.

20) الإدريسي : م، س، ص 6.

المغرب، وملبسهم شبيه بلبس المغاربة، جلباب ودراريع، بلا تفريج، وهم في ركوبهم كأنهم العرب».[21]

وكانت مدارسهم تكاد تكون مغربية صرفة، حتى طريقة الكتابة نفسها تأثرت بالطابع المغربي، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي، بل لقد كانت تدرس نفس المناهج المغربية، وكانت الكتب والأدوات المتداولة، هي كتب المالكية مثل كتب القاضي عياض،[22] وموطأ الإمام مالك والمدونة الكبرى للفقيه سحنون وغيرها من كتب المالكية.

كما ظهر تأثر السودان بتعاليم ابن ياسين المالكية من التزام أمور الدين وأداء فروض الشريعة إلى أبعد الحدود، ومع أن الرحالة ابن بطوطة زار هذه المناطق بعد عصر المرابطين بحوالي قرنين، إلا أنه أشار إلى التزام السودان بهذه التعاليم وعلى مواظبتهم على الصلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وازدحام المساجد بالمصلين، حتى إذا لم يبكر المرء بالذهاب إلى المسجد، لم يجد موضعا، وحرصهم الشديد على حفظ القرآن، وتعلم الدين، ومعاقبتهم أولادهم بوضع القيود في أرجلهم لعدم حفظهم القرآن، وكانوا يستفتون الفقهاء ويأتمرون بأمرهم، بل أن من لجأ إلى المسجد، أو دار الفقيه، أو الخطيب أمن العقاب، ولم يتعرض له أحد بسوء.[23]

ونتج عن امتزاج التقاليد الإسلامية التي نقلها المرابطون بالتقاليد الزنجية المحلية أن ظهرت تقاليد إسلامية زنجية، فنرى في حياة الملوك والرعية المظاهر الإسلامية والعربية، فيذكر الإدريسي مركب ملك غانة فيقول : «ومن سيرته قربه من الناس، وعدله فيهم، وله جملة قواد، يركبون إلى قصره، في صباح كل يوم، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه، فإذا وصل إلى باب القصر سكت، فإذا اجتمع إليه جميع قواده، ركب وسار يقدمهم، ويمشي في أزقة المدينة، ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة، أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره، ويتفرق قواده، فإذا كان بعد العصر، وسكن حر الشمس، ركب مرة ثانية وخرج وحوله أجناده، فلا يقدر أحد على قربه، ولا على الوصول إليه، وركوبه كل يوم مرتين، سيرة معلومة، وهذا مشهور من عدله».[24]

فإذا كان الملك يخرج لتفقد الرعية مرتين في اليوم، فإن هذا يدل على عدله، وخشيته من وقوع الظلم على أحد، أو عدم وصول شكوى مظلوم ضعيف إليه.

وبلغ من تأثر ملوك السودان بالحضارة العربية الإسلامية أن حاولت الأسر الحاكمة أن تدعي الانتساب إلى الأصول العربية، وإلى البيت العلوي، فملك غانة كان ينسب نفسه إلى ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.[25]

واعتمد المرابطون على دعاتهم في نشر الإسلام منذ بدء دعوتهم، فكان الشيخ عبد الله بن ياسين يرسل الدعاة بعد تدريبهم في رباطه إلى القبائل الملثمة، والزنجية لترغيبهم في الإسلام، فاعتنق ملك التكرور «وارجابي بن رابيس» الإسلام على أيديهم، وطبق أحكام العقيدة الإسلامية بنجاح في مملكته، فاعتنق أهل المملكة الإسلام، وقام وارجابي بجهاد ما يليه من أهل السودان، وأرسل الدعاة لنشر الإسلام، ونجح في نشره بين أهل سلي، وحسن إسلام ملكهم، فقام بدوره في حركة الجهاد ونشر الدين الحنيف في البلاد المجاورة خاصة قلنبو الوثنية.[26] وتكون من التكرور دعاة للإسلام بين قبائل الولوف والفولبي والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية في السودان الغربي،

21) القلقشندي : صبح الأعشى، ج 15 ص 281.

22) من هذه الكتب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وكتاب إكمال المعلم في شرح مسلم، كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك وكتاب الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

23) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار، ج 2 ص 193.

24) الإدريسي : م، س، ص 6.

25) ن، م، ابن خلدون، م، س، ج 5، ص 443.

Ford Dary II., Agentes of Islamization, Islam in Tropical Africa : p. 24.

26) البكري : م، س، ص 172.

Ifemesia, C.C., States of the Central Sudan, p. 50

Trimingham, I.S., A history of Islam in West Africa, p 28.

واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة حتى إنهم قلدوهم في ملابسهم.[27]

وقد ازدادت أهمية الدور الذي يقوم به دعاة المرابطين بعد الفتوحات الكبيرة التي قاموا بها في المنطقة، فكان دعاتهم يتعقبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الإسلام وليعملوا على تدعيم الدين، ويرجع الفضل في تحول كثير من أهالي البلاد المفتوحة إلى الإسلام إلى جهود الداعي منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، فيسير على المبادئ القائمة على الإخاء والمساواة ومحاربة الطبقية، وكان هؤلاء الدعاة يحظون بأوفى نصيب من التقدير والاحترام. وفي بعض قبائل إفريقيا الغربية كانت كل قرية تضم دارا لاستقبالهم وضيافتهم، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير، ويحتلون بين الماندنجو مكانا أعظم شأنا، وينالون احتراما يلي احترام الملك، ويعتبر الرؤساء التابعون لغيرهم أقل منهم هيبة، وفي دول السودان الغربي التي اتخذت القرآن أساسا للحكم من المسائل الدينية، تحتاج الدولة لخدماتهم، احتياجا شديدا ليفسروا لهم معاني القرآن.[28]

ولضمان استمرار التأييد الكامل للدولة المرابطية المتسعة كان من الضروري خلق إدارات مركزية ذات سلطات مطلقة، يربطها بمركز الدولة اتصالات مستمرة لضمان السيطرة على أطرافها، كما كان من الضروري أيضا لضمان الولاء الكامل للدولة خوفا من نزعة أي من هؤلاء الحكام الإقليميين إلى الاستقلال بإقليمه عن المرابطين، فكان الإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يكفل كلا الغرضين ويحققه، فبنموّ المدارس الإسلامية والمعاهد في السودان الغربي ظهرت طبقة متعلمة مثقفة تضم بعض العلماء الذين استطاعوا تنظيم إدارات الإمبراطورية، وتجارتها على أكمل وجه، وهذه الطائفة لم تستغل مركزها أو قرابتها، وإنما استطاعت أن تشيع الأمن والنظام في إدارات الامبراطورية المختلفة.[29]

وقد بلغ إجلال الناس لأشخاص هؤلاء الدعاة المعلمين أنه كان لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات لا يعادي بعضها بعضا فحسب، بل يتقاتلون مع بعضهم البعض في حرب، فيحترمهم الناس مثل هذا الاحترام الشديد، لا في البلاد التي انتشر فيها الإسلام وحدها، بل في القرى الوثنية التي يؤسسون فيها مدارسهم، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم، وكانت هذه المدارس إليها الأطفال، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الإسلام وشعائره، فإذا ما نجح الداعي على هذا النحو، بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة، فإنه لا يتوانى عن التأثير في الأهالي الذين جاء ليعيش بينهم، ويساعد على ذلك أن من عاداته وطباعه في الحياة مايشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه.[30]

ولعل أبرز خصائص انتشار الإسلام في بلاد السودان، أنه ابتدأ بالطبقات العليا والأسر الحاكمة، ثم انتشر بعد ذلك بين الرعايا[31] وتوضح لنا قصة إسلام أول ملوك مالي هذه الحقيقة التي أوردها البكري.[32]

ومع أنه لم يوضح اسم الملك الذي ذكره بالمسلماني، والذي أورد قصة إسلامه فقد أوضح أنه كان يوجد ببلاده

---

(27) Mahoney, F., X Idewa, H.O., The peoples of Sengambia, P.P.135-136.

(28) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم ص 391، 392.

(29) Ronald, Olivar et Fage, I.D., A Shart History of Africa, p.88

(30) توماس أرنولد : م. س، ص 392.

(31) Chailley, Marcel, Histoire de l'Afrique Occidental Francaise p. 33

(32) يقول البكري : عرف ملك مالي بالمسلماني، لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرئ القرآن، ويعلم السنة، فشكا إليه الملك مادهمهم من ذلك، فقال له : أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه السلام، وأقررت برسالته، واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك، وأن تعم الرحمة أهل بلدك، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناواك، فلم يزل به حتى أسلم، وأخلص نيته، وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه، وعلمه الفرائض والسنن مالا يسع جهله، ثم أجله إلى ليلة جمعة، فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا، وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده، وبرزوا إلى ربوة من الأرض، فقام المسلم يصلي، والملك عن يمينه، يأتم به، فصليا من الليل ما شاء الله، والمسلم يدعو والملك يؤمن، فما انبلج الفجر إلا والله قد أعمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدطاكير (أي الأصنام) وأخرج السحرة من بلاده، وصح إسلامه، وإسلام عقبه وخاصته، وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكهم منذ الوقت بالمسلماني. البكري : م.س، ص 178.

أحد العلماء المسلمين الذين يقومون بالدعوة الإسلامية، وأن الإسلام لم يكن غريبا في مالي عندما أسلم هذا الملك، فلم يكتف المرابطون بتحول الإسمي للإسلام، بل أرسلوا العلماء بين القبائل السودانية لبث العقيدة الصحيحة، فنشطت حركة انتشار الإسلام في مملكة مالي الناشئة.

ولم تكتف مملكة مالي باعتناق الإسلام، والحرص على مظاهره وتكريم علمائه، وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين، وأخذت ترسل بدورها الدعاة لنشر الدين بين هذه القبائل، بل لقد اقترنت جميع فتوحاتها الحربية بالدعوة إلى الإسلام، يقول العمري : «وملك مالي في جهاد دائم، وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان».[33]

وبعد سيطرة المرابطين على مملكة غانة تحمس ملكها لنشر الإسلام، حتى أن بعض العشائر من السوننكي تكاد تختص بالعمل في الدعوة إلى الإسلام فقط، وكلمة سوننك من أعالي نهر غمبيا استخدمهاالماندنجو الوثنيون مرادفة لكلمة داعي، مما يدل على الدور الكبير الذي قام به سوننكي غانة من نشر الإسلام بعد إسلامهم،[34] وفي أغلب الأحيان كان هؤلاء الدعاة يتزوجون من أهل البلاد، وبذلك يرحب الأهالي بدخولهم في نظامهم الاجتماعي، فيتوطد نفوذهم، وتستقر أحوالهم، وهكذا تزداد مهمة الداعي سهولة، ويستطيع نشر الإسلام بينهم بيسر.[35]

كما كان لبساطة التعاليم الإسلامية ووضوحها أثر كبير في جذب هذه الشعوب للإسلام، علاوة على أن العقيدة الإسلامية بسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية يصعب فهمها، كما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، فهو دين فطرة بطبيعته سهل، لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكيف والتطبيق على مختلف الظروف، وأن وسائل الانتساب إلى الإسلام أيسر، إذ لا يتطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين، حتى ينضم إلى جماعة المسلمين، كما أن الإسلام لم يفرض على القبائل الزنجية التي اعتنقت الإسلام، أن تغير من نظام معيشتها أو تفكيرها الديني، إلا ما يخالف العقيدة الإسلامية[36].

وقد استمر هؤلاء الدعاة في نشاطهم حتى بعد سقوط دولة المرابطين، يعملون في دأب ونشاط، وأشار البرتغاليون الذين استعمروا بعض المناطق في غرب إفريقيا في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي أي بعد المرابطين بأكثر من ثلاث قرون إلى وجود الدعاة من صنهاجة اللثام ومن العرب الذين كان لهم تأثير كبير بين التكرور والولوف والماندنجو.[37]

33) العمري : مسالك الأبصار، مخطوط رقم 530 بمعهد المخطوطات العربية ورقة 507.

34) Trimingham, I.S., Islam in West Africa, p.p.13.14

35) Froelich, I.C., Essai sur les Causes et Methodies de L'Islamisation de l'Afrique de L'Ouest des XIe siecle au XXe siecle, p. 121.

36) Chailley, Marcel, op-cit. p.35
Trimingham, I.S., Tohe phases of Islamic expansion et Culture Zones in Africa, p.16
هو بيرديشان : الديانات في إفريقيا السوداء، ترجمة أحمد صادق، ص 128.

37) Lewis, I.M., Regional review of distribution of Islam, p. 16

شرح الأكسير في علم التكسير

لأبي عبد الله ابن القاضي

تقديم وتحقيق : الأستاذ محمد العربي الخطابي

هذا تصنيف آخر في علم المساحة الفراغية لمؤلف مغربي من أعلام القرن الحادي عشر الهجري، وهو يتمم رسالة أبي عبد الله ابن الرقام الأوسي المرسي ورسالة أبي العباس ابن البنا اللتين حققناهما ونشرتا في العدد السابق من هذه المجلة.

وتصنيف ابن القاضي هو بمثابة شرح للرجز المسمى «بالأكسير في مبتغى صناعة التكسير» لأبي عثمان سعد (أو سعيد) ابن أبي جعفر أحمد ابن ليون التجيبي، أحد شيوخ الوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني (ت 776 هـ / 1374م)[1].

قال عنه أبو العباس المقري : «هو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح، وله تواليف مشهورة منها :

- اختصار بهجة المجالس لابن عبد البر.
- واختصار المرتبة العليا لابن راشد القفصي.
- وكتاب في الهندسة.
- وكتاب في الفلاحة.
- وكتاب كمال الحافظ وجمال اللافظ في الحِكَم والوصايا والمواعظ[2].

وذكره ابن الخطيب فقال عنه : «شيخ مولع بالتأليف والتدوين، فتميز بذلك في بلده... وكان شديد التخلق، متعلقاً بأهداب الفنون أشد التعلق، شهيرَ الإيثار، بعيداً عن الجمع والاستكثار، بضاعته خزانةٌ جمعت البنين والأمهات... حسن المجلس، خفيف الروح... وشعره يُلِمُّ بالإجادة أحيانا»[3].

وكان ابن ليون «مولعاً باختصار الكتب، وتواليفه تزيد على المائة، ومما حكي عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلا طُوالاً فقال لمن حضره : لو رآه ابن ليون لاختصره، إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب»[4].

ذكر المقري من بين مؤلفات ابن ليون كتاباً في الهندسة وآخر في الفلاحة، والمرجَّح عندي أن المقصود بالكتاب الأول رجزُه المسمى بالأكسير[5]، والكتاب الثاني هو أرجوزة في علم الفلاحة[6].

1) انظر ترجمة ابن الخطيب لنفسه في الإحاطة 4 : 459.
2) نفح الطيب 5 : 543 ـ 544.
3) الكتيبة الكامنة، مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 1756، ص : 43.
4) نفح الطيب 5 : 543 ـ 544.
5) توجد من هذا الرجز مخطوطتان بالخزانة الحسنية، رقم : 752 / مجموع ورقم 850 / مجموع.
6) توجد منها نسخة خطية بالخزانة الحسنية.

أما رجزه في علم التكسير فيبلغ عددُ أبياته ثلاثة ومائتين، ومطلعه :

الحمـــــــد للـــــــــه على أن يَسَّرا
من منهـج التَّكسير مـــا قـــد عَسُرَا،

وقد رتبه الناظم على أبواب أولها : «الكلام في مقدمات علم التكسير وحقيقته، ومما قاله في ذلك :

حقيقـــــة التكسير صنعــــــة تري
كميـــــة الممســــــوح للمختبر

وهي في السطــــوح والمجسمــــات
تبين مـــا في الكـلّ من مربعـــات

وتناول في بقية أبواب الأرجوزة قوانين استخراج مساحة السطوح والمجسمات كالمربع والدائرة والمكعب والكرة وغير ذلك.

توفي ابن ليون عام 750 هـ / 1346م من جراء الوباء الذي اجتاح البلاد.

ومن شراح رجز الأكسير ـ فضلا عن أبي عبد الله ابن القاضي ـ أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية (ت 1025 هـ / 1616م)، وهو عم أبي عبد الله، ومؤلف «درة الحجال» و«جذوة الاقتباس»[7]، وقد سماه الشارح : فتح الخبير بحسن التدبير»[8].

أبو عبد الله ابن القاضي :

هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن محمد بن محمد بن قاسم بن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي، عالم مشارك برز في الحساب والفرائض وعلم المواقيت، واشتغل بالتنجيم والأوفاق.

أخذ عن ابن عمه أبي العباس أحمد ابن القاضي المكناسي مؤلف جذوة الاقتباس، كما أخذ عن أحمد المقري والعربي الفاسي.

رحل إلى المشرق للحج، ولقي عددا من الشيوخ.
من مؤلفاته :

- البرق الوامض في الحساب والفرائض.
- تفجير الأنهار خلل روضة الأزهار (في التوقيت).
- شرح الأكسير في علم التكسير، لابن ليون.

توفي ابن القاضي قتيلا عام 1040 هـ / 1630م بعد أن قام من مجلس تدريسه بجامع القرويين في فاس، وذكرت في سبب قتله غدرا أقوال متناقضة لا محل لذكرها في هذه الترجمة الموجزة[9].

شرح الأكسير :

يمتاز هذا الشرح بالوضوح والإيجاز وبما اشتمل عليه من بيانات وقوانين وبراهين، وقد اهتم الشارح بتحقيق المقاييس التي كان العمل جاريا بها في عصره كالشبر والقصبة والباب والأشل والذراع العادية والذراع الرشاشية التي وضعها محمد بن الفرج القام القرطبي، وأورد المؤلف ـ فضلا عن ذلك ـ قوانين رياضية لاستخراج العمود من قبل المسقط والضلع المائل، وتكسير المثلثات وجبر العرائض، وتكلم في سطوح المركبات وتكسير أشكال لم يذكرها ابن الرقام ولا ابن البنّا كالفنيقة والقبورى والبيت المنحني والشكل الصنوبري وغيرها.

والشرح مع ذلك موضح بعدد من الرسوم والأشكال الهندسية، وسوف نثبتها جميعا في الكتاب الذي نعده للطبع والذي سيضم نصوصا مغربية في علم الهندسة[10].

7) الصفوة 77، الإتحاف 1 : 326، معجم المؤلفين 1 : 236.
8) المجلد الثالث من فهارس الخزانة الحسنية ص 111 ـ 112.
9) انظر سلوة الأنفاس 3 : 287، والإتحاف 4 : 40.
10) اعتمدت في تحقيق النص على مخطوطتين محفوظتين بالخزانة الحسنية، رقم 53 / مجموع (3)، ورقم 5296.

شرح الأكسير في صناعة التكسير

لأبي عبد الله محمد ابن القاضي

يقول العبد الفقير إلى رحمة مولاه محمد بن أبي القاسم ابن القاضي كان الله له بمنه :

«نحمدك يا مَنْ مَنَّ علينا بالتيسير لمعرفة صناعة التكسير، ونُصلي على نبينا محمد ﷺ ذي المعجزات التي لا يستوفيها التفسير، وعلى آله وصحبه ذوي المجد الشهير.

وبعد، فهذه نبذة جمعتها في علم التكسير قصدت بها محاكاة نظم الإمام ابن ليون المسمى بالأكسير، وجعلتها كالشرح له، وبينت فيها ما لابد من بيانه، فكانت مكملة، والله أسأل أن ينفع بها كالنفع بأصلها المذكور، وأن يجعلها من العمل المقبول والسعي المشكور.

الكلام في مقدمات علم التكسير

وأولا في حقيقته وتنويع المكسر والمكسر به.

حقيقة التكسير صنعة تبين كمية الشيء الممسوح والمكسر، وهي في كل من السطوح والمجسمات تبين ما في كل واحد منها من الأشكال المربعات المتساوية الأضلاع مذروعا ذلك إما بشبر أو بذراع أو بقصبة أو بباب أو بأشل كل جهة وكل إقليم باصطلاحه[11].

تحقيق مقدار الشبر والقصبة والذراع المعتبرات في التكسير

فالشبر نصف الذراع، وذلك إثنا عشر أصبعا، والإثنا عشر أصبعا هي ثلاث قبضات بإجماع من حد للمأمون[12] مقدار الذراع من المهندسين.

وأما الذراع الرشاشية التي وضعها محمد بن الفرج القسام (القرطبي) فإنها من ثلاثين أصبعا[13]، والشبر من خمسة عشر.

وأما الذراع الهاشمية فإنها من اثنين وثلاثين أصبعا والشبر من ستة عشر.

تحقيق مقدار الأصبع المعتبرة في التكسير

فقدر الأصبع المعتبرة في التكسير ست حبوب من حبات الشعير ظهرا لبطن، أي كل شعيرة على حرفها، **وقدر حبة الشعير** ست شعرات من شعر البردون وهو الفرس الهجين، أي الدنيء من الخيل، لأن شعره أرق من شعر الجيد، فالجيد شعره أغلظ.

تحقيق مقدار القصبة والباب والأشل التكسيريات

(اعلم أن **القصبة أربعة أذرع، والباب** ستة أذرع أو ثمان، ويحتمل الوفاق والخلاف. **والأشل**[14] عبارة عن ستين ذراعا، وقيل عبارة عن اثنين وسبعين ذراعا، وهو الصحيح والمعتمد عليه، واستحسن أهل الصناعة وضع علامات على أجزاء الأشكال كالثلث والربع وما أشبه)[15].

ما ينبغي تقديمه عند تكسير الأشكال

وذلك أن تحصر الحدود أولا قبل عملك حتى يظهر لك الشكل هل هو مثلث أو مربع أو غير ذلك، وبعد ذلك خذ في تكسيره على ما يأتي ـ إن شاء الله ـ

---

11) جاء في «فتح الخبير» شرح أرجوزة ابن ليون في علم التكسير أن التكسير «صناعة يتوصل بها لمعرفة كمية البسائط والمجسمات بالقياس الذي وقع به التقدير من مرجع أو ذراع أو شبر أو قصبة أو أشل بحسب عرف البلاد، ويختلف باختلاف اعراف البلدان».

12) الخليفة العباسي عبد الله المأمون (170 ـ 218 هـ / 786 ـ 833م).

13) الذراع الرشاشية ـ نسبة إلى محمد بن الفرج القسام المعروف بابن الرشاش القرطبي، وهي ذراع وربع بالذراع المأمونية، وهي التي تمسح بها زيادة النيل ونقصانه من زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه ـ وكانت تسمى الذراع المنصورية نقلها إلى الأندلس ابن الرشاش المذكور. قال ثابت بن قرة في كتابه «علم الهيئة»، الذراع المأمونية هي ذراع اليد التي اجتمع عليها العلماء في أيام المأمون لما قسموا له ما بين الرقة وتدمير. انظر مخطوطة «فتح الخبير».

14) الأشل (بفتح الهمزة وضم الشين) : الحبل الذي تمسح به الأرض.

15) فقرة ساقطة في أ، ألا أن أحدهم ألحقها بالهامش، وهي بخط مغاير.

هذا في السطوح، أما في المجسمات فلابد أن تزيد السمك - وهو الارتفاع - وإذا عسر عليك الشكل فانقل حدوده لشكل آخر : إما من مربع لمثلث أو بالعكس، أو لدائرة أو نصفها أو ما أشبه. وإذا تعذر التحقيق فعين الشكل الذي تعين لك واكتف بالتقريب كالمدورات[16] والقطعات من السطوح والمجسمات.

تحقيق الحد التكسيري وكيف يؤخذ استواؤه

فالحد على التحقيق ما ذرع من محقق إلى محقق يعن - أي يعرض - فإذا أردته على استواء فأقم علامة كحجر أو غيره في طرف ذلك الشيء، وانظر من أول الشيء إلى شيء جعلته في النصف إلى تلك العلامة التي في الطرف فإن تسامت خط البصر فالحد على استواء.

وهذه الخمسة أصلها الشكل المثلث مع المدور، وكلها إما سطح - أي بسيط - أو مقعر - أي ذو خفض كداخل الدائرة - أو محدب - أي ذو ظهر، وهو خارج الدائرة.

الكلام في المربعات

وأولا في تقسيمها :

أما المربعات فهي على خمسة أقسام : مربع متساوي الأضلاع، ومستطيل، ومعين، وشبيه بالمعين، ومنحرف وتحته أنواع وكلها بأربع زوايا، وهذه الزوايا تساوي أربع زوايا قائمات وإن كانت موضوعة على اختلاف.

تكسير المربع المتساوي الأضلاع

ويسمى المطلق والصحيح[17]، وشرط صحته صحة المستطيل.

فأول المربعات **المربع المطلق**، وهو الذي يقال له **الصحيح**، فإذا ضربت ضلعا منه في ضلع آخر يظهر لك تكسيره. وشرط قطريه التساوي أبدا، وكذلك في **المستطيل** فإن قطريه أبدا متساويان، فابل ذلك (أي فاختبر ذلك) بالتذريع أي بالكيل.

تكسير المربع المستطيل

والمستطيل عرضه إذا ضرب في طوله فإن تكسيره يحصل في الخارج من الضرب، وما بقي من المربعات فإنه يذكر - إن شاء الله - ويوضح بعد الفراغ من ذكر المثلثات، فهو أوضح وأبين.

الكلام في المثلثات

وأولا في شرط المثلث وخاصة زواياه :

وضع[18] كل مثلث يعتبر فيه أن ينقص كل ضلع عن الضلعين الباقيين، أي ضلعين شئت، وزواياه الثلاث تساوي قائمتين أبدا.

والزاوية ملتقى الخطين، فإذا وقع في المثلث من الزوايا الثلاث - التي هي **القائمة والحادة والمنفردة** سوى الحادة، وذلك القائمة والمنفرجة - فلا يكون إلا واحدة أبدا إما قائمة أو منفرجة، ولا يكون أبدا في مثلث قائمتان أو منفرجان أصلا، وأما الحادة فتكون حادتان أو ثلاث.

تقسيم المثلثات وما ينبغي تكسيرها عليه

اعلم أن المثلثات على ثلاثة أقسام بحسب أضلاعها : إما مثلث **متساوي الأضلاع**، أو **مختلف الأضلاع**، أو متساوي الساقين. وعمل كلها وتكسيرها مبني على معرفة العمود والمساقط حسبما يأتي إن شاء الله.

---

16) في ب : بالمدورات.

17) واو العطف محذوفة في ب.

18) في أ : موضع.

حقيقة المسقط وكيف تستخرج المساقط

فالمسقط هو مسقط الحجر من أي زاوية قدرته. أما المتساوي الأضلاع فلا يسقط الحجر أبدا إلا على النصف من كل ضلع من أضلاعه، وهو - أي مسقط الحجر - في المثلث المتساوي الساقين النصف من الضلع المخالف لهما.

وأما **المثلث المختلف الأضلاع**، فاجعل أي ضلع شئت قاعدة وربع الضلعين الباقيين، واطرح أقل المربعين من أكثرهما، وما بقي فاقسمه على القاعدة التي عينت، وما خرج في القسمة خذ نصفه وزده على نصف القاعدة، فما اجتمع فهو المسقط الأطول، وإن طرحت ما زدت من نصف القاعدة بقي المسقط الأقصر.

والمسقط الأقصر لا يكون أبدا إلا لجهة الضلع الأقصر، والمسقط الأطول لا يكون إلا لجهة الضلع الأطول.

أصل في تمييز المثلث المختلف الأضلاع من قبل زواياه

إذا كان مربع الضلع الأطول يساوي مجموع مربعي الضلعين الباقيين، فالمثلث زواياه قائمة.

وإن كان مربع الضلع الأطول يزيد على مربعي الضلعين الباقيين فالمثلث زاويته منفرجة.

وإن كان مربع الضلع الأطول ينقص عن مربع الضلعين الباقيين، فالمثلث زاويته حادة كالمتساوي الأضلاع والمتساوي الساقين.

القانون في استخراج العمود من قبل المسقط والضلع المائل

إذا أردت معرفة العمود فافرض المسقط مع المائل الذي يليه والعمود مثلثا قائم الزاوية فيخرج حينئذ العمود المجهول بالصناعة التي نذكر لك الآن - إن شاء الله - لأن كل ضلع من أضلاع المثلث القائم الزاوية تبينه وتظهره الضلعان الباقيان، لأن مربع الضلعين القائمين - وهما العمود والمسقط - يساويان مربع المائل - وهو الضلع الذي يوتر الزاوية القائمة، فإن طرحت أحد المربعين : إما مربع العمود أو مربع المسقط منه - أي مربع المائل - وأخذت جذر الفضل الباقي فإنه يكون الضلع الآخر، فإن كنت طرحت مربع العمود فإن جذر الفضل هو المسقط، وإن كنت طرحت مربع المسقط فجذر الفضل هو العمود، وجذر هاذين المربعين هو الضلع المائل.

فهذا التنويع يستخرج العمود والقطر للمربعات والضلع المائل، فإذا أردت استخراج العمود الذي نحن بصدده فربع المسقط الذي تريد واطرح مربعه من مربع الضلع المائل الذي يليه ويقرن به، وجذر ما بقي هو العمود المطلوب.

تكسير المثلثات كلها

والوجه في تكسير المثلثات كلها كيف كانت : أن تضرب نصف العمود في القاعدة أو نصف القاعدة في العمود أو أحدهما في الآخر وتأخذ نصف الخارج.

خاصة في تكسير المثلث القائم الزاوية وما ينفرد به المتساوي الساقين منه

إذا كان المثلث قائم الزاوية فاضرب أحد الضلعين القائمين في نصف الضلع الآخر الذي قام معه، فإن تساوي الضلعان القائمان وكانا منطبقين لا يكون الضلع الثالث إلا مغلقا.

قانون تكسير المثلثات كلها من غير استخراج مسقط ولا عمود

ويسمى تكسير الفضول.

اعلم أن في المثلثات كلها وجه عام يعرف بتكسير الفضول.

تـأخـذ نصف ذرع الأضلاع كلهـا وتنظر بكم زادت هذه العدة عن كل ضلع وتثبت الزيادة كلها وتضرب بعضها في بعض ومـا خرج تضربـه في نصف ذرع الأضلاع ومـا خرج خذ جذره يكن التكسير. فـإن قسمت هـذا التكسير على نصف ضلع من تلك الأضلاع يخرج عمود ذلك الضلع.

تقريب في المثلثات كلها

فإذا أخذت الذرع من أي زاويـة شئت على استقامـة إلى قاعدة تلك الزاويـة ثم ضربت نصف تلك القاعـدة في العمود الذي ذرعت يخرج التكسير.

الكلام في سائر المربعات

وأولا في تكسير المعين والشبيه بالمعين.

المربع المعين له قطران أحدهمـا أطول والآخر أقصر، فاضرب نصف أحدهما في كامل الآخر.

وأما المربع الشبيه بالمعين فـاقسمه مثلثين وكسر كل مثلث على حدة واجمع التكسيرين.

وتجري هـذا الوجه أيضا ـ إن شئت ـ في ذلك، أي في المعين، فتجعله مثلثين.

تكسير العرائض من المنحرفات وشرط صحتها

وفي العريضـة ـ التي هي من نوع المربع المنحرف احذف عدة رأسها من عدة قـاعـدتهـا يبق مثلث خذ عموده على ما مر واضربه في نصف مجموع الرأس والقاعدة لذلك تستحيل العريضـة إن لم يفضل مجموع الفضل بعـد الحذف مع الضلع الأقصر على الضلع الأطول.

وهكذا العمل في العريضة المقنبعـة ـ وهي المختلفـة الأضلاع ـ وفي العريضة المنفرجة.

وأمـا نصف عريضـة فـاضرب الضلع القـائم في نصف مجمـوع الرأس والقـاعـدة، ولابـد أن تـلاحـظ مـوازاة الرأس للقاعدة في كل العرائض لأنه شرط فيها.

القانون في جبر العرائض

أعني جبرهـا حتى تصير مثلثـا، وذلـك بقسمـة رأسهـا على فضل القاعدة على الرأس، وما خرج في القـسمـة اضربه في عمـودهـا يخرج مـا يـزاد عليـه فيصير عمـودا لمثلث، واضربه أيضا في ضلعها يخرج ما يزاد على كل ضلع.

تكسير سائر المربعات القريبة من المنحرفات وشرط تكسيرها

كل ما بقي من المربعات المنحرفات فاقسمه بمثلثين وكسر كل مثلث على حدة، وشرطها كلها أن يكون مجموع ثلاثة أضلاع أكثر من الضلع المربع الأطول.

تقريب في تكسير المربعات القريبة قيام الزوايا

ويسمى عمل الجمع والتنصيف.

اعلم أن في تكسير المربعـات وجـه بتقريب حيث تكـون الـزوايـا قريبـة القيـام : تضرب نصف الضلعين المتقابلين في نصف الضلعين الآخرين المتقابلين أيضا.

تكسير المربعات المقعرات والمحدبات القريبة قيام الزوايا والتقريب فيما كان فيه تقعير أو تحديب

اذرع أضلاعهـا على الـوسـط ثم اضرب الطـول في العرض إن كانت الزوايا قريبـة القيام، وجميع الحدود في المقعرات والمحدبات لا تعملها إلا بـالـذرع لا بغيره من الأعمال.

الكلام في الدائرة

وأولا في استخراج قطر الدائرة ومحيطها وتكسيرها.

القطر هو الخط المار على المركز، فاحفظ ثلاثة

وسبعا بما يثبت القطر والمحيط، فاضربها في القطر يخرج المحيط، واقسم المحيط عليها ـ أي على ثلاثة وسبع ـ يخرج القطر. وإذا ضربت نصف قطرها في نصف محيطها خرج تكسيرها. واضرب أحدهما في ربع الآخر أو أحدهما في الآخر ويؤخذ ربع الخارج.

تكسير الدائرة المستطيلة

اعلم أن لها قطرين : أطول وأقصر، فربع مجموع نصفي القطرين واطرح من المربع سبعه ونصف سبعه يبق تكسير سطحها.

وإذا ضربت مجموع نصفي القطرين في ثلاثة وسبع يخرج دورها.

الكلام في القطعات

وأولا في تمييز القطعة.

مهما كان السهم مماثلا لنصف الوتر فالقطعة نصف دائرة، وإن كان السهم أقل من نصف الوتر فالقطعة أصغر من نصف دائرة، وإن كان أكثر فالقطعة أكبر من نصف دائرة.

استخراج القطر من قبل الوتر والسهم

إذا ربعت نصف الوتر وقمت المربع على جميع السهم، ثم تريد ما يخرج للسهم مطلقا في القطعة ـ كبر أو صغر ـ يخرج القطر، لأن كل خطين يتقاطعان في وسط دائرة فمسطحاهما متساويان أبدا.

استخراج القوس من قبل السهم والقطر

إذا زدت على السهم سبعه وجمعت ذلك إلى القطر يكن القوس، هذا إذا كانت القطعة نصف دائرة، وإن تكن أكبر من نصف دائرة فإنه يزاد على هذا العدد المذكور ـ وهو مجموع السهم مع سبعه ومع القطر ـ ما بين نصف القوس والسهم، وإن كانت القطعة أصغر من نصف دائرة ينقص ما بين نصف القوس والسهم من العدد المذكور، وهو مجموع القطر مع السهم وسبع السهم.

تكسير قطعة كيف كانت

إذا ضربت نصف قوس القطعة مطلقا ـ كبرى أو صغرى ـ أو نصف دائرة في نصف القطر يخرج الأصل لتكسير كل قطعة، فإن كانت القطعة نصف دائرة فذلك الأصل هو تكسيرها، وإذا زادت على نصف دائرة فاضرب نصف الوتر فيما زاد سهمها على سهم نصف دائرة فما خرج زده على الأصل يكن تكسيرها، وإن نقصت عن نصف دائرة ضربت ما نقص سهمها عن سهم نصف دائرة وما خرج فانقصه من الأصل يبق تكسيرها.

تكسير القطاع وربع الدائرة

اضرب أحد ضلعيه في نصف القوس ـ أي قوس القطاع ـ يخرج تكسيره.

وهكذا تفعل في ربع الدائرة لأنه في الحقيقة قطاع أيضا.

الكلام في السطوح المركبات

وأولا في كلياتها.

كل ما سوى الأصول الأربعة التي هي المربع والمثلث والمقوس مركب منها عند تفصيلها.

والوجه في تكسير السطوح المركبة أن تكسر كل سطح على حدة وتجمع تكسير تلك الأشكال كلها التي جمعها هذا الشكل المكسر.

وحيثما نقص شكل فانقص تكسيره من تكسير الجملة كالأشكال المربعات أو المثلثات إذا كانت أضلاعها مقوسات

فانقص تكسير ما نقص كما إذا كان التقويس داخلا، وزد تكسير ما زاد كما إذا كان التقويس خارجا، وخذ كل شكل مركب على هذا الوجه مثل الشكل الهلالي فإنك تكسر القطعة الكبرى والصغرى وتطرح الأقل من الأكبر يبق تكسيره.

وكذلك شكل الحلقة : تكسر الدائرة الكبرى والصغرى وتطرح الأقل من الأكثر يبق تكسير الحلقة، وكذلك تفعل في بعضها، ومثل ذلك أيضا الشكل البيضي.

تكسير ذوات الأضلاع الكثيرة واستخراج أعمدتها

اضرب عدة الأضلاع لأذرعها في ذرع ضلع منها، وما خرج فربعه واطرح ما ربعت من مربعه، وما بقي فاقسمه على ثلاثة عشر ونصف، وما خرج فهو التكسير، هذا في المتساوي الأضلاع والأعمدة على وجه التقريب.

وإذا ضربت في عمود هذا الشكل النصف من ذرع جميع الأضلاع يصح لك التكسير أيضا.

وحيثما التقى عمود ضلعين فهو مركز هذا الشكل.

تفصيل ذوات الأضلاع الكثيرة

إذا شئت فرد[19] للمثلثات كل شكل كثرت أضلاعه أو رده للمثلثات والمربعات، لكن هذا إذا كانت عدة أضلاعه زوجا، وأما في غير ذلك فليس إلا للمثلثات خاصة.

تكسير المطبل

وهو شكل مركب من عريضتين فاضعف وسطه واجمع الضعف للرأسين وخذ ربع المجموع واضربه في العمود يخرج التكسير، وإن شئت فرده لعريضتين وكسر كل واحدة على حدة.

قانون التقطيع

إذا كانت معك أرض وأردت أن تأخذ منها جزء مرجع[20]، أي جزء شئت، كثلث أو ربع، أو أردت أن تأخذ منها عدة مراجع : ففي الوجه الأول سم الجزء الذي تحتاج من طول الأرض وخذ من العرض على مثل تلك النسبة الخارجة في التسمية، أو سم من الطول، وخذ من العرض لا فرق.

وفي الوجه الثاني - وهو إذا أردت أخذ مراجع معينة - فاقسم عدتها على الطول وخذ من العرض بقدر ما خرج في القسمة، وإن شئت بالعكس فاقسم على العرض وخذ من الطول بقدر ما خرج.

الكلام في سطوح المجسمات

وأولا في كلياتها.

إذا اختلفت السطوح في المجسم فكسر كل سطح على حدة واضم تكسير بعضها إلى بعض كالشكل القبوري فإنه مشتمل على عريضتين وعلى مربع - وهو قاعدته - وعلى مثلثين.

وإن تساوت السطوح، كالمكعب ذي الجهات الست أو غيره، فكسر سطحا واحدا واضرب تكسيره في عدة السطوح.

تكسير سطح الكرة

اضرب ثلاثة وسبعا في مربع قطر الكرة يخرج تكسير سطحها لا داخلها[21] وهو ما حوى تكويرها لأنه يأتي - إن شاء الله - في تكسير الأجسام.

19) في ب : فزد.

20) المرجع : شكل مربع متساوي الأضلاع قائم الزوايا كل ضلع من أضلاعه الأربعة أربعون ذراعا رشاشية، وقد يكون المرجع خمسين ذراعا عرضا وطولا وذلك حسب عرف كل بلد.

21) في أ : لإدخالها، وهو تصحيف، إذ المقصود داخل الكرة أي حجمها.

تكسير سطح قطعة الكرة

اعلم أن سطح كل قطعة من الكرة يساوي أبدا سطح دائرة، وتلك الدائرة نصف قطرها أبدا مثل الخط النازل من نقطة[22] القوس الأعلى للمحيط فيوتر هذا الخط النازل السهم ونصف الوتر، فانقل حديها واعرف السهم واستخرج الوتر - وهو الضلع المائل - بما تقدم في المثلثات، وضعفه هو قطر الدائرة المماثل تكسيرها لتكسير سطح القطعة، فإذا عرفت الدائرة كسرها وزد على تكسيرها تكسير قاعدة القطعة يحصل المطلوب.

تكسير سطح الأسطوانة

اجمع تكسير دائرة الرأس مع تكسير دائرة القاعدة ثم اضرب الارتفاع في المحيط واجمع الخارج من الضرب للتكسيرين.

تكسير سطح المخروط الأسطواني

اضرب نصف دور قاعدة المخروط فيما يليه[23] يخرج تكسير سطحه دون قاعدته، فكسر دائرة القاعدة وزد تكسيرها على تكسير سطحه يكن المطلوب.

تكسير سطح مقطوع المخروط

اجبر المقطوع المخروط على قاعدة جبر العرائض المتقدم، ثم كسر المخروط المزيد على حدة وانقص تكسيره من تكسير سطحه المتمم، وهو تكسير المخروط بكماله، لكن هذا العمل إن كان رأس المقطوع مع قاعدته متوازيين متشابهين في الخلقة، ثم كسر القاعدة والرأس وزد تكسيرهما على ما معك يكن المطلوب.

والمراد بالرأس والقاعدة في الجبر هنا القطران. وإن عدم التوازي والتشابه فكسره بالتفصيل.

تكسير سطح الصنوبري

الصنوبري هو نصف كرة ضمت لقاعدة المخروط. فخذ محيط نصف الكرة واعلم قطره وربعه وضعف المربع وانقص[24] من الخارج سبعه ونصف سبعه، واجمع الباقي للخارج من تكسير المخروط على قاعدته المتقدمة يحصل المطلوب.

النوع الثاني في المجسمات منها

وأولا في تقسيمها وتكسير القائم زوايا الارتفاع.

اعلم أن المجسمات على أضرب، منها : المسطح والمقبب والمركب والمكعب والغيري واللبني واللوحي والعمودي - وهو الذي يلقب عند أهل الصناعة بالتيري - وكذل المعين والشبيه بالمعين والزنبوري والعريضة والأسطوانة، وكل ما كان مستديرا كالأجانة - وهي الجفنة المدورة - وقطع المدورات كلها على تعميمها والمنشور المتقدم إن كانت كلها وما شابهها زوايا ارتفاعها قائمة لكي يكون الرأس مساويا للقاعدة في الشكل والمقدار.

فإذا أردت تكسير هذه كلها فاضرب السمك في تكسير قاعدة الشكل كيف كانت القاعدة يخرج المطلوب.

الوجه الأشهر في تكسير المنشور إذا فرض رأسه خطا

اضرب في الارتفاع نصف جملة تكسير قاعدته يخرج المطلوب.

---

22) في ب : من قطعة.
23) في ب : فيما إليه.
24) في ب : وأن نقص.

تكسير المخروط ومقطوعه

اضرب ثلث ارتفاع[25] المخروط في تكسير قاعدته يخرج المطلوب لأن كل مخروط ثلث المجسم الذي خرط منه، وإن كنت جبرته كما تقدم فكسره مجبورا، وبعد ذلك كسر المزيد وانقصه يبق المطلوب.

تكسير الفنيقة

إن شئت جبرتها حتى تصير على شكل المخروط بقاعدة الجبر المتقدمة في العرائض.

وإن شئت فكسر الأسفل منها والأعلى ثم اضرب ضلع الرأس في ضلع القاعدة واجمع هذه الأعداد الثلاثة، والمجموع اضربه في ثلث الارتفاع يخرج المطلوب.

الحاق قطعة المخروط والمطمورة بالفنيقة في التكسير

اعلم أن قطعة المخروط والمطمورة تكسيرهما مثل الفنيقة المتقدمة بالوجهين المذكورين.

تكسير الفنيقة المستطيلة

خذ فضل الطولين ـ طول الرأس وطول القاعدة ـ وفضل العرضين ـ عرض الرأس وعرض القاعدة ـ وسطح الفضلين، وخذ ثلث الخارج واحفظه، ثم خذ طول الرأس واحمل عليه نصف فضل طول القاعدة على طول الرأس، واضرب ذلك في عرض رأسها واحفظ الخارج، ثم خذ الفضل بين العرضين ـ أي عرض القاعدة وعرض الرأس ـ وخذ نصفه واضربه في طول الرأس واحفظ الخارج والمحفوظات الثلاث، اضرب في الارتفاع يخرج التكسير، وشرطها مناسبة الأضلاع.

تكسير القبوري

اضرب الشوكة ـ وهو الخط الواصل بين مثلثيه ـ في نصف العرض، وأضف الخارج إلى تكسير القاعدة واضرب المجموع في ثلث السمك.

تكسير البيت المنحني

زد على طول الحائط نصف ارتفاع سقفه ـ وسقفه هو ما زاد على الحائط ـ ثم اضرب ذلك في الخارج من ضرب الطول في العرض.

وإن شئت فكسر سقفه كأنه منزوع سواء كان قبوريا أو منشورا أو مقطوعا على ما مر، وبعد ذلك فاجمعه لما معك يكن المطلوب.

تكسير حوت الطعام وعرمته

كسر حوت الطعام كتكسير القبوري المتقدم، وكسر عرمة الطعام كتكسير المخروط المدور المتقدم.

تكسير الكرة

اضرب سدس قطر الكرة في تكسير سطحها، وإن كانت كرة مستطيلة فاضرب نصف سدس القطرين معا في تكسير سطحها يخرج المطلوب فيهما.

25) في ب : ارباع.

تكسير قطعة الكرة

اعلم أن قطعة الكرة تلحق في التكسير بالمخروط المدور لأن نسبة العمود للسهم الذي تبين تظهر كنسبة سائر القطر الذي يتبين لها مع نصف القطر الذي تقص من جملة القطر إذا كان السهم معلوما فكرر السهم بقدر تلك النسبة يخرج العمود، فاضرب (أيضا) ثلث هذا العمود في تكسير قاعدتها يخرج المطلوب.

تكسير المجسم المركب من غيره

كسر المجسم المركب مفصلا كل سطح على انفراده واجمع ذلك يكن المطلوب.

تكسير ذوات القواعد الكثيرة

اجمع في شكل القواعد الكثيرة تكسير كلها واستخرج عمود قاعدة منها، واضرب ذلك التكسير في ثلث العمود يخرج المطلوب لأن عملها كعمل المخروط المتقدم.

قانون في تجزئة المكسر أو تقسيمه لفرش أو رقم أو كتابة أو نقش أو وزن

إذا أردت تجزئة أو فرشا أو رقما أو كتابة أو نقشا في ثوب أو غيرها فاقسم على تكسير القدر الذي فرضت تكسير الشكل بكماله فما خرج في القسمة هو المطلوب.

وإن سميت تكسير قدر ما افترض من تكسير الكل إما من الموزون أو المكيل فالخارج في التسمية هو نسبة البعض المفروض من تكسير الكل المفروض كالقطعة من الستر أو الفضلة من الشقة.

وبالله تعالى التوفيق، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

على يد العبد المذنب المخطئ المفتقر إلى رحمة ربه المعطي محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد اللمطي شهرة، اللمتوني نسبا وأصلا، الفلالي دارا ومنزلا، لطف الله به لطفا جميلا، وكان له وليا وحفيا وكفيلا. انتهى كتبه من خطه عبد الله محمد بن عبد العزيز الدادسي السجلماسي بمحروسة فاس أمنها الله يوم السبت أواخر المحرم الحرام تسعة وعشرين ومائة وألف بعد الرحلة التونسية.

يوم المجد

للشاعر محمد العثماني

جرى التاريخ في مد العباب ... يسجل خاشعا يوم الشباب
وأصغى الدهر للذكرى فأملت ... على أيامه فصل الخطاب
وقفت أراجع الأمجاد همسا ... وذكراها تبين كالكتاب
فصلصل وحيها فدنا وناجى ... يحركني إلى «عالي الجناب»
دعتني الذكريات إلى لقاء ... على محرابها زاكي الرحاب
فتحت كتابها فرأيت فيه ... سطورا قاتمات كالضباب
محت أحلامها الأيام إلا ... صبابا من شراب أو سراب
لقد كانت تناديني فتلفي ... لدي هوى يسابق في انتداب
لقد كانت تناجيني فأجني ... شهيا من أمانيها العذاب
فجاءت بعد عهد تقتضيني ... على شعر يعطر بالشباب
ألم تعلم ؟ ألم تر ما توالى ... على شرخ الشباب من التباب ؟
وددت - وكيف ؟ لو كانت بحالي ... على علم، فتتركني لما بي !
ولكني بقيت لها أسيرا ... تلح على ابن جنبي في اصطحاب
دعته إلى مطارحة القوافي ... فيدعوني إلى طرح النقاب
تذكر إذ نغازلها كأنا ... ترشفنا رضابا من كعاب
ولم أهجر رياض الشعر كرها ... ولكن حيل بين هوى وصابي
دعوت الشعر فاستعصى عنيدا ... وملت إلى اليراع فلم يجاب
أناديه فكنت كمن ينادي ... حبيبا بان في الطلل اليباب

أصر على البلى قلمي فلما ... حملت عليه صر بلا جواب
فلم أهتف بهذا الشعر إلا ... «لعيد العرش أو عيد الشباب»

☆ ☆ ☆

زعيم الشعب هذا أنت أحيي ... صباحا جاد بالأمل المجاب
صباحا كان للتاريخ فجرا ... وخلص مجدنا من الاستلاب
نعيش اليوم تاريخا وذكرى ... تعود بنا إلى الشرف اللباب
إلى مجد قواعده حماها ... أبوك الشهم من أيدي الخراب
شهاب أنت منه إذ توارى ... كسيف الحق عاد إلى النصاب
رمى التاريخ منه إليك أمرا ... وأعباء مثقلة العياب
فكنت بها الكفيل بلا ارتباك ... وكنت لها الأمين بلا ارتياب
إذا التاريخ لم يحرس قوي ... معاقله يصير إلى انتهاب

☆ ☆ ☆

شبابك - رائد الأجيال - خصب ... شباب الفكر والنظر العجاب
شباب العقل ليس له كفاء ... يعود به الكهول إلى الشباب
حميت - ولاتني - الوطن المفدى ... برأي لا يهون على الصعاب
وسست بحكمة شعبا أبيا ... بلاها في الخطوب وفي الخطاب
فألفاها أحد من المواضي ... وأمضى في الأمور من الشهاب
يسوس الحاكمون - ولست منهم - ... رعاياهم بأفئدة صلاب
ويلهون الشعوب بمعجزات ... تواروا من رؤاها بالحجاب
شعارات تخدر وهي منهم ... خيال الشعر أو غزل التصابي
إذا خطبوا بها كانوا خطوبا ... بدنياهم، وأشأم من غراب
تئن شعوبهم جوعا وجهلا ... فأعطوها الكلام بلا حساب
ومنوها بقلب النار نورا ... فأعطوها انقلابا في انقلاب
وكانوا من مصائبها فصبوا ... على أحرارها سوط العذاب
ومن يبحث عن النبلاء يفشل ... ويعثر في الثياب على الذئاب
وليس بسيد في الناس إلا ... شجاع كاره ذل الرقاب

☆ ☆ ☆

إليك يزف شعبك كل يوم ... عرائس من ثناء مستطاب
فتحت لكل عقل فيه بابا ... وللعمل المعمر ألف باب
فسار - وأنت رائده - ليحيي ... حياة القاعدين على السحاب

ملأت سهوله ماء وأمنا ... فسالا في البطاح وفي الهضاب

وبكر الأرض تبسط معصميها ... عروسا للملاب وللخضاب

لتكسوها السدود حلى وتبرا ... وتجلوها مضمخة التراب

فتبسم وهي تشكر أو تحي ... مشيدها بأزهار الروابي

فليس يعز في أرض شعوبا ... كخصب في الأباطح والشعاب

☆ ☆ ☆

إمام الدين والدنيا هنيئا ... بذكرى العمر دائمة الإياب

وعاها الشعب عاطفة وعقلا ... كعيد للريادة والصواب

يثيبك فيه بالإخلاص فاهنأ ... بهذا العيد أو هذا الثواب

إذا ما الشعب أخلص في رضاه ... فكل الشانئين إلى التباب

إذا احترف النباح سفيه قوم ... فإن الصمت أبلغ من خطاب

وإن خرج الغبي عن الصواب ... يعامله اللبيب على التغابي

صباح العيد والأمجاد شكرا ... ندي الصوت من شعب الشباب



غرست لنا فقطفنا الجنى

للشاعر محمد بن علي العلوي

لفك الرقاب من الربقة ... شرعت الفداء أبا الثورة
وثرت على الغاصبين الجناة ... تفك القيود عن الأمة
وجاهدت في الله حق الجهاد ... لأجل المواطن والملة
وغادرت عرشك تفدي البلاد ... كما شئت بالنفس والأسرة
تدافع عن أمة بينها ... وبينك عهد على المقة
تبادلك الحب طيعة ... وتحفظ حبك في المهجة
فأنقذتها من نيوب العدا ... وحررتها من ذوي القسوة
وأخرجتها من ظلام الحياة ... لدنيا الحضارة والبهجة
ومن قبضة البغي أطلقتها ... بفضل المهارة والحنكة
أعدت لها العز بعد الضياع ... ونورتها بسنا الحكمة
وأعليت رايتها في الوجود ... فأضحت ترفرف في الذروة
صنعت المفاخر تعلي البلاد ... وترفع شعبك للقمة
سلام عليك عظيم الملوك ... سلام عليك أبا النهضة
سلام على شهداء الحمى ... رجال البطولة والغيرة
سلام على الشهداء الكرام ... ليوث الملاحم والنجدة
لقد وهبوا القطر خير الدماء ... وباعوا به النفس بالجنة
وقد منحوا القطر ما يملكون ... لينعم شعبك بالعودة
وتحيا مواطننا حرة ... تفاخر بالأمة الحرة
لقد وهبوك النفوس كما ... وهبت حياتك للأمة
وقلت لمن غره بأسه ... وظن المواطن كاللقمة

ألا فافعلوا كل ما شئتموه ... فلست أفرط في أمتي
ولست أخاف جيوش العدا ... ولا أرهب السجن في الغربة
ومهما تكن قوة المعتدين ... فليست تلين لها قوتي
ولن يبلغ القوم ما يشتهون ... ولو وضعوا الشمس في قبضتي
جزاك الإله فقيد الحمى ... وضاعف أجرك ذو المنة
وطيب ذكرك في الخالدين ... وأعلى مقامك في الجنة
جزاك الإله على ما بذلت ... لأجل العروبة والملة
وبلغك الله ما قد أردت ... وحقق ما شئت للأمة
جزاك الإله أبا حسن ... وبارك للشعب في العترة
لقد كنت للوطن المفتدى ... زعيم التقدم والنهضة
وقاومت أعداءه المجرمين ... فلم يظفروا بسوى الخيبة
وكنت ضياء النهى والعيون ... منار الهداية في الظلمة
شرعت الفداء فكان الفدا ... طريق الخلاص من المحنة
وأوقدتها حين آن الأوان ... ضروسا على الشر والفتنة
وخضت المعارك منتصرا ... على زمر البغي والغلظة
تقود البلاد وأبطالها ... إلى قمة المجد والرفعة
أريت «المقيم» وأذنابه ... فنون البطولة والعصمة
فأدرك أن لن ينال المراد ... بغير الجريمة والزلة
وكيف يرى الحق مستعمر ... خلي الوفاض من الفطنة
أتى ليلة العيد مستكبرا ... ينفذ ما شاء بالقوة
وأبدى الغشوم جريمته ... يريد القضاء على الأمة
وكم أظهر الغر في صلف ... ضروب الدناءة والخسة
فلم تجد «كَيوم» غطرسة ... ولا ما أعد من العدة
ولم ينفع القوم ما افتعلوه ... لطمس الحقائق من ضجة
هو الحق يعلو على غيره ... وتهوي الأباطيل في الحفرة
جهادك أيقظ عزم النفوس ... وحرك شعبك للثورة
فثار كما ثرت يفدي البلاد ... وكنت له أحسن الأسوة
وأرشدته لسواء السبيل ... فشق الطريق إلى الذروة
وشمر يقفو الخطى للفداء ... يطالب بالعتق والعودة
وثار على البغي مقتلعا ... جذور الفساد من التربة

فلم يجد كَيوم، ما ارتكبت ... حماقة أفكاره الفجة
ولم تنفع الغِرزلته ... ولا ما بناه على الزلة
وعاد «المقيم» بخفي حنين ... يعاني كثيرا من الغصة
يعض الغشوم أنامله ... لفرط الندامة والحسرة
فما لبث الغر أن قد رأى ... جهاد الأشاوس بالمقلة
وهب الرجال لتلقينه ... دروس المقاومة الحقة
مقاومة أظهرت للعدا ... ليوث المعامع والنجدة
مقاومة في جبين الكفاح ... تلوح مدى الدهر كالغرة
وأبطالها في جهاد العدا ... أسود تسابق للوثبة
لقد كنت قائدها العبقري ... ورائد شعبك للقمة
وثرت على الغاصبين الجناة ... فشكرا جزيلا أبا الثورة
كسرت القيود وحطمتها ... ولم تبق غلا على لبة
وأكسبت موطننا عزة ... وما العيش إلا مع العزة
وعدت لعرشك منتصرا ... تبشر شعبك بالرفعة
وما ضاع حق له طالب ... إذا ما تمسك بالعروة
جهودك يا سيدي أثمرت ... وأطلعت الزهر في المنبت
وأكسبت الوطن المفتدى ... صنوف الحضارة والروعة
غرست لنا فقطفنا الجنى ... شهي الحلاوة والنكهة
وأعليت من فوق هام السهى ... بنودا لأمتنا الحرة
وأورثت عرش العلى «حسنا» ... فكان لنا أعظم النعمة
يقود الجنود ويرعى الحمى ... ويبني المفاخر للأمة
وكم حقق الملك مفخرة ... وكم قاد للمجد من ثورة
وكم أبدع الملك معجزة ... وكم نفس الملك من كربة
وها هو ذا قد غدا في العلى ... مثال البطولة والحكمة
مواقفه ومفاخره ... عن الوصف والحصر قد جلت
تغني بها حركات القلوب ... وتشدو المشاعر بالبهجة
وتشدو البلاد بمفخرة ... أعادت لها نعمة الوحدة
وها هي ذي اليوم صحراؤنا ... توالي التقدم في غبطة
فشكرا لعاهلنا حسن ... عظيم الملوك ضيا المقلة

يا شعب عشرين غشت

للشاعر عبد الكريم التواتي

الله كبر، وحي المفتدى الحسنا ... والعرش حي، وحي الشعب، والوطنا
وغازل الذكريات الغر طافحة ... بالمأثرات، وطرح عهدها الحسنا
وراود الشعر، وامرح في بدائعه ... ونضد الدر من تيجانه فننا
وذكر الشعب، إن الذكرى نافعة ... وانشر ملاحم من قد طاولوا الزمنا
وارقص على فرحة الذكرى ونشوتها ... وغن زهوا، وخل الشجو والشجنا
فالدنيا غيداء، والأطيار هاتفة ... والنهر سكران يغري بالهوى الحصنا
والروض أزهاره ماست معطرة ... أنسام زهر الربى، واغدودنت مننا
والورد توجه طل الندى بردا ... أسر للكون أحلاما، بها افتتنا
والشعب أنغام موسيقى مهفهفة ... أحناؤه وقعتها رقصة وغنا
والكون نشوان من ذكرى مجلجلة ... للمجد، للعز، للعليا زهت وثنا
ذكرى مليك وشعب لو حما قدرا ... والخير محضا أرادا، والهدى سدنا
واقرأ على مسمع الدنيا صحائفنا ... غراء، كللها تاج السنى مننا
صحائف، ما وعى التاريخ أجمعه ... لها مثالا، ولم يشهد لها زمنا
عنوانها : الثورة الكبرى : وما شهدت ... أيام (غشت) وما نادت به علنا
فذكر الكون (غشتا) إنه علم ... من العظائم، تاهت رفعة وسنى
و(غشت) شهر مدى الأزمان بذكره ... المغرب العربي رمزا، وبشرى هنا
يا يوم (عشرين غشت) كم بكم حفلت ... أيا منا، وبكم حققنا كل منى
ستحتفي كل أجيال الحمى شغفا ... به، وتهتف نشوى : إنه غدنا

ظن البغاة ـ وقد أملت أمانيهم   عليهم كذبا أن شعبنا ارتهنا
فأجمعوا أمرهم تعسا لهم، وبنوا   على الرمال قصورا، جللت أفننا
قد صدهم عن سبيل الرشد ويلهم   شيطانهم، فسقوا الأحقاد والإحنا
وأرجفوا وأشاعوا كل بائقة   وأوقدوا فتنة، كانت لهم فتنا
ودوك يا (غشت) للأحرار مأتمهم   فكنت يا (غشت) للأحرار نعم هنا
إن يمكروا، فلمكر الله آخذهم   ومكر ربك يردي الظلم والفتنا
وشعبنا أسد غاب لاتضام، ولا   تعنو لباغ، ولكن تفتدي العرنا
وأرضنا حرم، مر مراتغها   على العدا، من يرد شرابها بطنا

===========

غيظ العدا (غشت) إذ بأت أمانيهم   بخيبة مرة، والحلم قد طعنا
غيظوا بعهدك، قد ظنوه منقذهم   فكان مهلكهم حقا، وكان ضنى
يا هول ما بهم قد حاق من عنت   وما أذيقوا وسيموا من بلا وعنا
والله أركسهم، يا بئس عقباهم   وسوف يلقون غيا مخزيا نتنا
ودمروا، تلك عقبى الظلم، ما سلموا   من بطش ربك : لا روحا ولا بدنا
وتلك دورهم تعوي الذئاب بها   والريح فيها يدوي، يندب الظعنا
والله أورثنا ما أثلوا : سلبا   أرضا، ودورا، وأموا لا، ربت دخنا
من يعمل السوء يجز السوء عاقبة   ولا يجد دونه منجى ولا سكنا

============

قد أقسم (الخامس) الغلاب آسره   أن يمحق البغي والعدوان والدرنا
ويملأ الأرض عدلا، والدنى أملا   والعرش يفدي، ويفدي الدين والوطنا
لم يخش ما بيت الأعدا، وما جمعوا   لكن تحدي العدا، بالله قد يقنا
ووعد ربك حق لا مراء له   فنال نصرا، وتمكينا، وما غبنا

============

يا (غشت) حياك شعب فيك مبعثه   أهل شمسا، وهلت شمسه هتنا
حالت بعثا وإشراقا وتوعية   وكنت مشعل نور بدد الدجنا
أذكيت (ثورتنا الكبرى) التي شهدت   بأننا أمة لا ترهب المحنا
وهجت عفريت هذاالشعب فانصدعت   قماقم كان في أغوارها سجنا
فكسر القيد، والأغلال حطمها   وثار بركان نار يحرق الرسنا

يـا من رأى (الخـامس) الفـداء أمتـه ... وشبلـه (الحسن) الآبـاء والـوطنـا
تـلاحمـوا في وثـاق لا فكـاك لـه ... ووحـدوا القصـد والأهـداف والسننـا
وراهنـوا مخلصي النيـات، لا ضعفـوا ... ولا استكـانـوا الضيم، أو رضـوا وهنـا
وأقسمـوا أن ينيلـوا الشعب بغيتـه ... وأن يـذيقـوا العـدا التقتيـل والشجنـا
وأن تحرر هـذي الأرض رافلـة ... أرجـاؤهـا في نعيم يـذهب الحـزنـا
فحقـق اللـه مـا رامـوا ومـا قصـدوا ... وكـان ربـك معـوانـا لهم وغنـا

============

يـا شعب (عشرين غشت) بـوركت بلـد ... قـد أنجبتـك، وزكت فعلـك الحسنـا
مـا زلت تعلي دنى الأمجـاد سـامقـة ... آطـامهـا، وتشيـد للحمى القننـا
ولم تـزل في مسيرات مظفرة ... لم تعرف الأين يـومـا، لا، ولا الـوهنـا
مسيرة لنمـاء الخير، هـادفـة ... (صحراءنـا)، والقرى ترتـاد والمـدنـا
أظهرت فيهـا جـلادا، لا مثيـل لـه ... وعـزمـة يتحـدى عـزمهـا الـزمنـا
الـدين أس، وتـوحيـد الخطى هـدف ... والعرش حصن حمـانـا : ديننـا ودنى
ومغرب الحسن الثـاني حمى أسـد ... تحمي العرين، وتبني المجد خير بنـا
تستنكف الجبن، والسـوأى لهـا أبـدا ... تجتث مـا قـد بـدا منهـا ومـا بطنـا

============

يا شعب : شعب المثنى المجتبى حسن ... اللـه خـار لـك الإحسـان والحسنـا
أثبت أنـك شعب ليس يهـزمـه ... شيء، ولكنـه الأعـداء قـد وتنـا
فـاسلم لعرش حبـاك اللـه نعمتـه ... وكن بمـا تبتغي من عـزه قمنـا
فـالعرش للمغرب الأقصى مجنتـه ... والعرش رمـز وعنـوان لأمتنـا

============

يـا ثـاني الحسنين عهـدكم أمـل ... الشعب يهفـو بـه، يهـواه مفتتنـا
أبقـاكم اللـه لـلأوطـان عـدتهـا ... وللحنيفـة عشتم حصنهـا الأمنـا
وصـان ربي ولي العهـد ريقـة ... أيـامـه، والرشيـد البـدر.. والـوطنـا

وفاء لأرواح الشّهداء

للشاعر محمد بن محمد العلمي

شهر (غشت) على البلاد أهلاً، فتنادى التاريخ : أهلا وسهلا !

فالتحام الشعب الوفي وثيق بمليك كالشمس فينا تجلى

جمعتنا أواصر من كفاح وطني قد راق روحا وشكلا !

تلك ذكرى (ابن يوسف) الشهم عادت حيث حلت فوق الثريا محلا

ذلك النفي لم يكن غير بدء لانتهاء المستعمرين أطلا !

وعلى البدر صورة لذكاء، نِعم من كان للسنى مستهلا !

(كورسيكا) أخت (أنتسيرابي) قد زاد فيهما (ابن يوسف) نبلا

إنه كان جوهر الأسرة الفضلى، فمرحى إذ صار يصحب شبلا !

فولي العهد الجليل المفدى (الحسن) ازداد منه عزا وفضلا

ذلك الحب بين عرش وشعب، وحد المخلصين قولا وفعلا !

قد غدا الكون كله يشهد (الخا مس) يرتاد مغربا مستقلا

كان إيمانه أعز سلاح، رغم أنف الدخيل، لا... لن يفلا !

☆ ☆ ☆

لن ينال المستعمرون فتيلا، من بلاد عليهمو لن تحلا !

كل فرد منا يقاوم حقا، أكثر المرء جهده أم أقلا !

صفحة تلك من صمود وصبر، زادها الله في الملاحم صقلا

إنما المؤمن الصدوق المجلي، أبدا عن إيمانه ما تخلى !

من يجاهد في الله حق جهاد نال في المكرمات حظا وكفلا

وتباهى به الجلال، وأهدى له وردا وياسمينا وفلا !

تلـك عقبى الفـداء، فـوق الثريـا، بسجـل الخلـود تـزداد وصـلا
أي شـأو هـذا ؟ وأي مقـام ؟! ليس منـه أرقى، ولا منـه أعلى !
وحيـاة البقـاء في كـل مجـد، تركت للضمير عطرا وظـلا :
فمن الأرض للسمـاء تـوالت حسنـات بهـا المجاهـد أولى،
والـوفـاء العظيم للـوطن الغـالي، بـه قيمـة المنـاضل أغلى
والعطـاء الكريم مهـد للبعـث، فلم يرض لـلأكـارم ذلا
وجنـود الحـق المبين صبـاح مشرق إذ غـدوا إلى المجـد رسلا
لم يخفهم روع، ولا حمـلات من دخيـل قـد سـاء وزرا وحمـلا :
فهـو من كـان يـزرع الظلم والرعـب، فكم في أخطر المـواقف زلا،
وهمـو عرفـوا بخير بـلاد، غبنتهـا الأعـداء حقـدا وجهـلا !
قلعـة البـأس : موئـل الطهر، كـانت حـومـة للـوغى، وكـانت مصلى !
بـالطـواغيت لا نبـالي، ولكن نحن أهـل التـوحيـد، عـزا وحـولا
إننـا صـولـة على الغـاصب الطـاغي الـذي لم يجـد لـدى البـأس طـولا

☆ ☆ ☆

ذكرونـا بمجـدنـا، ذكرونـا، ليس من تلكم البطـولات أحلى !
قـد تنـاءى عهـد الحمـايـة، وانجـابت غيـوم، وذلـك الليـل ولى
وتسـامى للمـؤمنين أمير، ليس يـألـو جهـدا، ولا هـو مـلا
وغـدا (غشت) حـامـلا خير ذكرى، قـدرهـا عـز في البـلاد وجـلا
وأتت صحـوة، فعـاش ضمير مستفيـق يريـد لـلأمر حـلا
إنهـا ثـورة لأحرار قـومي ليس تنسـاق في عسى ولعـلا :
بـذرى الأطلس المنيـع تـوالت ثـورات تردي المغير العتـلا
وبـأنـوال كـابـد الكفر عـارا، وشنـارا، فبئس مـا كـان يصلى !
منـذ أن لاح في البـلاد ظهير بربري.. لم يقبـل الشعب فصـلا
إننـا مسلمـون أصـلا وفرعـا، ما رضينـا التنصير ! حـاشـا وكـلا !
إذ يـد اللـه بـالفضـائـل عليـا، ويـد الكفر بـالرذائـل سفلى
كـل جهـد لصـدنـا عن يقين، بـات من بيننـا ضعيفـا وضحـلا
منـذ (إدريس) نحن في كـل جيـل قـد شـددنـا بشرعـة اللـه حبـلا
وسنبقى مـدى الـزمـان جنـودا لمعـان من الطريقـة مثلى !
إننـا بـالقرآن زدنـا اعتصـامـا، لا نـوالي من قـد غـوى وأضـلا
منـذ كنـا بمغرب العـز، يكفي أننـا لا نضيـع فرضـا ونفـلا !

☆ ☆ ☆

ومضينا نحو الجهاد حشودا، قد سعوا لاستشهادهم ليس إلا
وتوالت لبأسنا حلقات، أحبطت للدخيل مكرا مملا
وبـ(أنفا) لقد تجلت وعود بانعتاق.. فنحن ندرك سؤلا
وبـ(ينايـر) الوثيقة كانت حجة تقمع الدخيل الأذلا :
ومراس الشعوب جد، فما كا ن يسيرا، ولم يكن قط هزلا،
فهي تزداد وحدة وانسجاما، لخلاص مما به هي تبلى،
إذ نراها قد حطمت من عداها بالجهاد المشهود قيدا وغلا !

☆ ☆ ☆

نحن في أسرة الشعوب جميعا، لن نظل العضو الضعيف الأشلا !
منذ كنا، ونحن أحرار شعب ألمعي لم يرض في الحق ختلا
تلك خيراتنا، ونحن ذووها، أبد الدهر نشجب المستغلا !
وأتت رحلة لطنجة هزت مهجة الغاصبين عقلا ونقلا :
عزنا في العروبة اليوم والإسلام، نعم التوحيد فرعا وأصلا !
ومضى وعينا بأهدى طريق، فرجعنا بالطبع للمجد أهلا !
والصراط القويم فيه ثراء، وأمان !.. من اهتدى ليس يقلى !
وغدا صوتنا بكل مجال، في شعوب الدنيا الأعز الأجلا !
ولقد عاد للبلاد كريما، (خامس) من به العدو اضمحلا !
ألف شكر للّه من أذهب الحز ن، فهذى قلوبنا الآن جذلى !
قد أقمنا في كل دار وصقع، بالهتافات والزغاريد حفلا،
مهرجان الولاء : بيعة شعب للإمام الهمام بالعشق تجلى !
هكذا الصابرون فازوا وسادوا، وبما أثلوا الضمير تحلى
فلهم أجرهم بغير حساب، إذ همو يقطعون في البأس سبلا
إن أهل الإخلاص أهل وفاء ! كيف عنهم شعوبهم تتخلى ؟!!

☆ ☆ ☆

وتوالت من بيننا منجزات باهرات بها الوجود تملى
فعدنا بوحدة لتراب وطني لم يرض فصلا وعزلا
وحدة نحن في الدلالة والعمـ ـق، صنعنا التاريخ جزءا وكلا !
فالمعالي في الساقية الحمـ ـراء والوادي غضة تتجلى
نتباهى بجيشنا البطل الفـادي، فهذا آلاؤه الغر تملى
إن جدران أمننا تقمع الشـر، فلم تبق للعداة محلا !

وبــدستــورنـــا يعــز نظـــام، ملكي دستـــوري زاد فضـــلا
وانفتـــاح الأفكـــار في حريـــات، ميـــزة فـــذة بهـــا نتحلى
(لجنــة القــدس) ليس تنسى جهـادا لمليــك يصــد بــأســا وهـولا
فهــو في (فــاس) وحــد الصف حقــا، حيث أسـدى فضلا إلى العرب جـزلا،
وكتـــاب الأمجـــاد فيـــه فصول مشرقـــات من عـزمـه الفـذ تتلى !
صـوتـه في (نيـويـورك) دوى رفيعـا، وأبـــان الأحـــداث فصـلا ففصـلا !
بهر الســامعين بــالحجــة العظــــــمى، وأضحى في القـوم أفصـح قـولا !
إننـا بــاتحـادنـا نقمـع الكفـــــــر، فمهـلا أهـل الـدسـائس، مهـلا !
مكر المـــاكرون، لكن أبينـــا أن نعيش الحيـــاة مسخـــا وذلا !
كيف ننسى بمسجـــدنـــا الأقـــــصى دخيـلا بكـل حـق أخـلا ؟!
وعـــدو الإســـلام صهيـــون كم بـــــيت للمـــؤمنين شرا وويـــلا،
لكن اللـــه سخر العرش منـــا، ليصـــد العـــدوان قـولا وفعـلا !
ثمن المجــد بــاهــظ، لم يكن يـو مـــا ببخس، ولم يكن قــط سهـلا
ستصلي في القـدس حقـا وصـدقـا، أمـــة بـــالبشـــائر اليـوم حبلى
ف(بـصلاح الـدين) المظفر قـد كـــــنـا جميعـا لبـأسـه الفـذ نسـلا
علمتنـــا فراســـة (الحسن) الصـــد ق ! فكـلا لغيرهـــا ! ألف كـلا !
ســوف يـدري (صهيـون) عـاقبـة الأمـــــر، فكم قـد أثـار حقـدا وغـلا !
أمتي أمـــة المـــلاحم، تـــزدا د بمـــا أثلتـــه فضـــلا ونبـــلا
ألف شكر للقـــائـــد (الحسن الثـــا ني) ! بـدنيـا يقيم للـدين وصـلا !
قـد تـولى تـأييـده جـده المختـــــار حقـا، من قـد «دنـا فتـدلى !»
تلـــك آلاؤه تـوالت حســـانــا، حيث كـــانت في الكيف والكم جلى
فـــإذا كـــان غيره قـــد تلهى، فبـــدون ازدهـــارنـــا مـــا تسلى !
رحلـــة الخير والنمـــاء لقـــد كـــا نت لتلـــك الأرحـــام تجمع شمـلا !
وسجـــود الشكر ابتهـــال بقلب خـــافـق، خـــاشـع، يقبـل رمـلا
هـو هــذا استفتـــاؤنـــا بجـلاء، أقنـع العـــالمين روحـــا وشكـلا !
والصنـاعـات هـــاهنـــا في ازدهـــار، حبـــذا من أدام للجهـــد بـــذلا !
والكريم العظيم يبني عظيمـــــا، فـوق هـــام الجـوزاء، أسمى وأعلى !
وســـدود تروي بمليـــون هكتـــا ر، فتحيي سهـــلا، وتبعث حقـــلا
والقطـــاعـــات في نمـو حثيث، بيـــلاد تعيش أمنـــا وعـــدلا
والثقـافـات في المعـاهـد تترى نـــزعت عن مرافـــق الفكر غـــلا

وشهـــــود العمران في كـــــل حي شـــاخصـــــات تلقي على الربـع ظـلا

وصنـوف الريـــاضـــة استقطبت جهـــــــــدا، وصرنـــا بنـورهـــا نتحلى

واستمرت روح المسيرات فينـــــــا بـــاعتنـــاء المليــك قـولا وفعـلا :

هكـــذا، في تقـــدم وازدهـــار قـــد جعلنـــا نيـل المكـــارم شغـلا

ونعـــاف التقصير في كـل جهـــد : إذ جمـوع الأحرار لم تـــك كسلى

إنهـــا ثـورة على البـؤس والسقـــــــم، لكم حـــاربت من الشعب جهـلا !

عرشنـــا رائـــد العظـــام، يمضي في مـــزايـــــاه مكثرا لا مقـــلا :

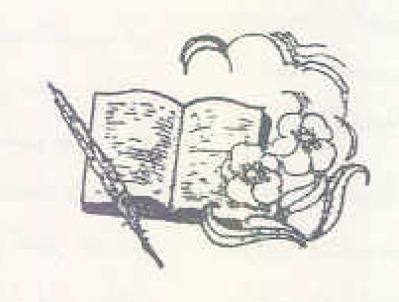
واتبعنـــا المجـــاهـــد (الحسن الثـــا ني الـــذي قـــال للتخلف : «لا ! لا !»

خصـــه شعبـــه بعشـق فريـــد، وبـــأفكـــاره الحســان استـــدلا !

لم يخب من أتـــــاه يقبس نـــورا، وبتـــأمينـــه الـوثيـق استظـــلا !

مغرب العـز في حمـــاه لقـــد عـــا ش كريمـــا، مـوحـــدا، مستقـلا !

هـــذه ذكريـــات (غشت)، وفيهـــا تتنـــاجى الأمجـاد : «أهـلا وسهـلا !»



تعقيب على مقال :

حكم برمجة القرآن الكريم في الكمبيوتر

للأستاذ محمد الحاج ناصر

(1)

أدرجتْ مجلة دعوة الحق الزاهرة التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية في عددها : 256 مقالا بعنوان : «حكم برمجة القرآن الكريم في الكمبيوتر» للدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة، وقد ارتأيت أن من المتعين على كل مسلم يرى في نفسه أهلية للنظر في هذا الأمر، وبدا له فيه ـ بعد التأمل والتثبت واستقراء القرائن والأدلة ـ رأي يغاير رأي الأستاذ الكاتب أو يضيف إليه توضيحا أو تأكيدا مفيدا أن يعلن رأيه ذلك غير متحرز أو متحرج أو ملتفت إلى اعتبارات خارجة عن صميم الموضوع، أيا كان مصدرها وأيا كانت معقباتها.

والأستاذ الدكتور الشيخ العميد محمد الحبيب ابن الخوجة رفيق العمر منذ الحداثة زميل في بعض مراحل الدراسة، اتصلت بيننا الوشائج وتمكنت وتعامقت بعد مرور الزمن، منذ ما يزيد على خمسة وأربعين عاما، وله عليّ فضل الأستاذية؛ فقد حفظت عنه قطعة من الشعر العباسي كانت حبيبة إليه، عالقة بلسانه أيام حداثتنا، وليس أحب إليّ من أكون له ظهيرا في كل ما يراه أو يتجه إليه ما لم يتراء لي فيه مبعث حرج في الاعتبار العلمي أو الديني، ويشهد الله أن ما بيننا من وشائج عميقة عريقة من أكرم ما أعتز به من ذخائر الصلات، وأعتده ليوم لقاء الله، وأنا أستقبل من هذه الدنيا أقل كثيرا مما استدبرته.

ولولا أن موضوع المقال يتصل بالقرآن الكريم وعلاقة الناس به في حاضرهم ومستقبلهم، وما يتأتى عن هذه العلاقة من تكييف مواقفهم وتصرفاتهم العلمية والتعبدية، لما ارتضيت لنفسي أن أجرؤ على مناقشة الأستاذ «الحبيب» إلا أن أشعر بأن من واجبي أن أجهر بالوقوف إلى جانبه ظهيرا، ويشهد الله؛ لقد استأنيت طويلا وتعللت بعلل شتى، أقلب أوجه الرأي، وأرجع البصر لعلي أكتشف مندوحة ترجح لي الإنصراف عن مناقشته، بيد أني شعرت ـ وقد أكون مخطئاً ـ أن السكوت في هذا الأمر قد يترتب عنه ـ وخاصة في نظر أجيال مقبلة ـ ما يمكن اعتباره «إجماعا سكوتيا» أو ما في معناه، وتلك تبعة أحسب الأستاذ «الحبيب» نفسه يشفق منها على نفسه وعلى معاصريه، وخاصة من كان منهم له صديقا حميما.

ولقد حاولت أن أجد مسوّغا للإستعجال في اتخاذ موقف حاسم من موضوع «الإقحام» بالقرآن الكريم أو بالحديث الشريف أو حتى بما يتصل بهما من وسائل التفسير والتأويل والتمحيص في هذه الآلة المخترعة حديثا والتي أفضل تسميتها بـ «الحسيب»بدلا من «الحاسوب» الذي سماها به البعض، فلم أعثر ـ في ما أراني الله ـ على ما يصرف المعنيّين بالأمر عن التدبر المتأني والرصد المتريث لأطوار هذه الآلة وما يكشفه التعامل معها وبها من مواقع

قوة أو مكامن ضعف، لا سيما والأحداث المتوالية تثبت أنها ـ على ما يبدو من تقدمها مراحل تبعث على الإعجاب ـ ما تزال تدرج في أطوارها الأولى، وما يزال التعامل بها ومعها يكشف عن مكامن خلل، وعن مصادر خطإ فيها، وما يزال المعنيون بتطويرها واستغلالها أو الإستفادة منها يبذلون الجهد تلو الجهد في تدارك الخلل واستكمال النقص وتلافي أسباب الخطأ والتدرج نحو الكمال.

ثم إن ترجيح الحاجة إلى هذه الآلة في تيسير التعامل العلمي مع القرآن الكريم أو مع الحديث الشريف وما يقتضيه التعامل معهما من وسائل هو نفسه بحاجة إلى التأكد منه من حيث أنه الأصلح وأنه من مجرد احتمال أن تحدث عنه أو تعقبه مفسدة تُسامت ما يتراءى فيه من مصلحة إن لم تكن راجحة عليه.

ويظهر لي ـ إن لم أكن مخطئاً ـ أن الأستاذ «الحبيب» اعتمد في الحكم الذي أصدره في هذا الأمر على قاعدة ـ «المصالح المرسلة» التي يقول بها الجمهور، بل يكاد ينعقد عليها الإجماع لولا شذوذ شكلي من البعض، وأن حكمه هذا وبناء على هذه القاعدة حكم ذو طابع «اجتهادي» يرقى به عن أن يكون مجرد «فتوى»، فهو لذلك يحدث ـ إذا لم يتعرض للمناقشة ـ حالة من حالات «الإجماع السكوتي» أو «التقرير».

وليس الأمر هينا كما كان قد يبدو للبعض بادئ الرأي، فالقضية ليست مجرد قضية إباحة «تسجيل» يراد بها «تنويع» وسائل الحفظ والصيانة لما يراد تسجيله و«تيسير» أسباب الاستفادة منها لمن يرغب في ذلك استجابة لمتطلبات العصر الحاضر الذي يقوم العمل فيه على مسابقة الدقائق والثواني، بإنجاز ما ينبغي إنجازه، بل القضية قضية ما إذا كان التعامل مع القرآن الكريم والحديث الشريف يحسن أن يُخضَع لهذا السباق مع الدقائق والثواني ولما يقتضيه من «اهتبال» الأدلة والوسائل، وأن إخضاعه لذلك لا يتنافى مع ما يقتضيه من الاستقراء والاستقصاء والمخالطة والمخالصة وعمق التدبر والتفكير على مكث واستشعار الحرج في لحظة من لحظات الاستقراء والاستقصاء والتدبر والتفكير، وفيما يؤدى إليه هذا الجهد من نتائج سلبية أو إيجابية تتصل بعلاقة الفرد مع ربه أو بعلاقته مع مجتمعه أو بالعلاقات الإجتماعية الهامة، من حيث إصدار حكم ينتج عنه تكييف تصرف فردي أو اجتماعي أو دولي.

وواضح بل بدهي أن الاعتماد على «الحسيب» في تجميع الأدلة أو العناصر لأي بحث ـ حتى وإن اقتصر على ذلك ولم يتجاوزه إلى ابتغاء الحكم ـ يفقد الباحث عنصرا أساسيا من عناصر الاهتداء إلى مناط التشريع أو علته أو الحكمة منه، ومن قبل ذلك إلى دلالة الألفاظ على المعاني دلالة أكثر من «معجمية» تعتمد على السياق الموضعي والعام، وإلى ملابساته مثل ما يسميه المفسرون «أسباب النزول» واستعار بعض المعنيين بالحديث هذه التسمية لتبيان ظروف الحديث فسموه «أسباب ورود الحديث» وإن كانت هذه الأسباب وتلك ـ في تقديري عند التحقيق ـ ينبغي أن يستأنس بها، ولكن لا يلتزم بها، بل إن الإلتزام بها التزاما حرفيا كما فعل بعض الأقدمين قد يكون معوقا لكثير من ألوان استجلاء حقائق التشريع علة وحكمة ومناطا وشمولا.

وواضح أيضا أن الدعوة إلى «برمجة القرآن في الحسيب» أو مجرد إباحته يقصد بها إلى تيسير «مراجعته» أو مراجعة العلوم المتفرعة عنه، والوسيلة إليه على هؤلاء الناشئة من طلبة البحث العلمي وأن الهدف هو ترغيبهم في ممارسة البحث في المجال القرآني خاصة والشرعي عامة، بما يتوفر لهم من اليسر ويرفع عنهم من العنت، ولا مراء في أن هذا المقصد في ذاته ـ لو تجرد من أية محاذير وأمكن أن تتوفر له جميع الشروط والعناصر التي يوجبها البحث في شؤون القرآن خاصة وشؤون الدين عامة ـ مقصد شريف لا ينبغي فحسب بل يتعين العمل على تحقيقه وتوفير الأسباب له، ولكن هل يرى الأستاذ «الحبيب» أو غيره ممن قد يركن إلى الرأي الذي أعلنه أن العناصر والشروط المشار إليها آنفا متوفرة كلها بشكل قاطع لبرمجة القرآن في الحسيب ؟! أما أنا فارتاب أعمق الريب وأتحرز أشد التحرز وأتحرج أشد الحرج في مجرد افتراض إمكان

ذلك، لأن أدنى معقبات الاعتماد على الحسيب في ابتغاء الأدلة من القرآن أو الحديث أو العلوم المتفرعة عنها والمتوسل بها إلى فهمها حرمان الباحث من معايشة القرآن الكريم والحديث الشريف معايشة تجعله في بحثه لا يقتصر فكره واستنباطه على الوقوف عند النص المباشر الذي يتعامل معه، بل يحيا بعقله ووجدانه في المحيط القرآني والحديثي كما لو كان معاصرا لنزول القرآن والنطق بالحديث او ممارسة «الواقعة» أو إقرار الحكم. وهذا التكييف ـ في تقديري ـ ضروري حتى للبحث العلمي المجرد فضلا عن البحث الذي يراد استنباط حكم أو ترجيح حكم في قضية من بين أحكام مختلفة، ولعل اعتبار ذلك مما حفز بعض الأصوليين على أن يشترط في المجتهد أن يكون حافظا لعدة آلاف من النصوص الحديثية الصحيحة، ومع أن هذا الشرط قد لا يخلو من إعنات فإن المعايشة لكتاب الله وسنة رسوله ضرورية للتعامل مع الشريعة الإسلامية سواء كان لاستنباط الأحكام أو للبحث العلمي المجرد، وما أحسب الأستاذ «الحبيب» يطمئن إلى أن «مستخرجات» ما يبرمج في الحسيب توفر أدنى درجة من هذه المعايشة الضرورية، ولكي تتبين استحالة ذلك نعود إلى كلمة «برمجة». يقول الفيروز أبادي : (القاموس المحيط : ج : 1 ص : 179 ـ «البرنامج الورقة الجامعة للحساب معرب برنامة» ـ وينقل الزبيدي ـ تاج العروس : ج : 2 ـ ص : 8 ـ عن عياض في الـ «مشارق» قوله وهو يشرح معنى البرنامج : «زمام يرسم فيه متاع التجار وسلعهم»، ثم يذكر أن أصل الكلمة فارسية. ويقول ابراهيم مصطفى ورفاقه : ـ المعجم الوسيط : ج : 1 ـ ص : 52 ـ البرنامج الورقة الجامعة للحساب والتي يرسم فيها ما يحمل من بلد إلى بلد من أمتعة التجار وسلعهم، والنسخة التي يكتب فيها المحدث أسماء رواته وأسانيد كتبه، معرب فارسيته برنامة، جمع برامج. وقد يبدو غير ضروري الرجوع في شأن هذه الكلمة إلى المعاجم اللغوية، فهي من المعرب الشائع على ألسنة الناس فيما يظهر وهي اليوم مما تشترك في استعماله الفصحى والدارجة في جميع الأقطار العربية، بيد أني ارتأيت أن الرجوع إليها مما يقتضيه استقراء معاني الكلمة واستجلاء أصلها واستبانة أطوارها.

ولا تزال الكلمة تحتفظ بجوهر معناها من حيث إنه جرد عناصر أو مواد موضوع مادي أو معنوي يكون متعدد العناصر والمواد بحيث يتعين جردها.

وليس في كلام الأستاذ «الحبيب» ما يدل على أنه ينصرف بالكلمة إلى معنى جديد، بل أنه صريح في الدلالة على أنه يريد تسجيل القرآن الكريم مُصحفا ـ لست أدري على قراءة معينة أو على القرآت المتداولة مختلطة في كل آية أو منفصلة المصاحف ـ وتصنيف آياته طبقا لموضوعاتها على ما يظهر وترتيب ألفاظه وتفسيرها معجميا، وواضح أنه يرى مثل ذلك أيضا للحديث الشريف والعلوم المتصلة بكل من القرآن الكريم والحديث الشريف.

وعملية التفسير المعجمي للألفاظ القرآنية عرفها القدماء في أشكال مختلفة مثل ابن قتيبة وأبي عبيدة معمر ابن المثنى والراغب والفيروز ابادي وغيرهم، ولكن كان لكل منهم هدف منها : إما بيان معنى «الغريب» وإما تمييز «المجاز» وإما جمع الدلالات اللفظية التي قد تكون للكلمة، وكلها تقرب للباحث السبيل ولا تحصره في نطاق، كما أن عملية ترتيب الألفاظ القرآنية ترتيبا معجميا عرفتها المكتبة العربية من جهود بعض المّحدثين ذات المناهج المختلفة وإن اتحد هدفها، وهي عملية ظاهرة الفائدة في كثير من مجالات البحث العلمي بعيدة كل البعد عن شبهة تثبيط الهمم أو تكسيل العقول.

أما عملية تصنيف الآيات القرآنية طبقا لموضوعاتها فقد لجأ إليها ـ فيما نعلم ـ بعض المستشرقين ومن على شاكلتهم من الأجانب عن الإسلام واستحسنها البعض من المعنيين بالشؤون القرآنية من المسلمين مثل : الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي الذي ترجم كتاب «جون لبوم» «تفصيل القرآن الكريم» و«مستدرك» «ادوارد مونتيبي» عليه. ويظهر أن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كان ربما استفاد بهذا الكتاب في استذكار بعض الآيات المتناسبة، وهو يعد دروسه التفسيرية أو فتاويه، ولعل السيد رشيد

رضا سلك نهج أستاذه في هذا الشأن، وقد تكون الاستفادة من مثل هذا العمل لمجرد الاستذكار مرغوبا فيها إذا اقتصرت على المتخصصين الذين وقفوا حياتهم على القرآن والسنة مثل الأستاذين الجليلين رحمهما الله، ولكن أن يُتخذ نهج «التصنيف» هذا وسيلة يركن إليها المبتدئون في التعامل مع الشريعة الإسلامية من أحداث الطلبة والباحثين، وهم - في تقديري - الجمهرة الغالبة ممن قد يركنون إلى الاستفادة مما يبرمج في الحسيب، فذلك هو الخطر كل الخطر إذ أنهم سيفقدون تلقائيا عنصر المعايشة للقرآن والسنة وهم يمارسون أبحاثهم إذا اطمأنوا إلى «الورقات» التي يقدمها الحسيب مكتوبة أو مرئية فيما يعالجون أبحاثهم ودراساتهم، فلا تأتي النتائج التي يتوصلون إليها إلا أنماطا من الاهتبال والارتجال وإن أنفقوا في تحليلها وتعليلها الأزمنة الطوال.

ذلك بأن موقع الآية أو الكلمة - وربما السورة أيضا - هو الذي يكيف - في كثير من الحالات - المعنى والمقصود والمناط. فإذا فقدت الآية أو الكلمة موقعها في تصور الدارس وفهمه فقدت عنصرا - كثيرا ما يكون أساسيا - في دلالتها أو فحواها، وجاء ما يستنتج منها ويستنبط ناقصا على أدنى تقدير إن لم يأت مشلولا أو مبتورا، وكيف يتصور حكم شرعي أو حتى مجرد اعتبار لنص شرعي يستلهم من كلمة أو آية ناقصة الدلالة إن لم تكن معطلة الدلالة تعطيلا كاملا ؟! ولا أحسب الأستاذ «الحبيب» غافلا عما أحدثه القرآن الكريم في التعبير العربي ألفاظا وتراكيب، من تطوير - وقد أقول من تغيير - جوهري في طرائق دلالتها وما تلهمه من معاني وإيحاءات، ذلك بأن الكلمة والآية في القرآن ليست الواحدة منها كيانا مستقلا يسهل انفصاله عن مجموع البنية القرآنية، بل إن كلا منهما يتسم بميسمين :

كيان متميز ذاتيا بجانب من الدلالة والإيحاء.

وجزئية لا سبيل إلى تمييزها عن مجموع البنية القرآنية لاستكمال ما أريد أن تدل عليه من أحكام أو عبر أو عظات، بل إن هذا التكييف القرآني للتعبير العربي ألفاظا وتراكيب أحدث في اللغة العربية ذاتها تطورا أخرج بيانها من طور الدلالات الجزئية المنفردة تؤديها الكلمة والجملة والفقرة فلا يبدو فيها نقص يستلزم البحث عن كماله في غيرها إلى طور الدلالات الكلية الجماعية - إن صح هذا التعبير - فلا تكتمل إلا إذا اجتمع على تبيانها وتحديدها اللفظ والأسلوب والسياق والمحيط التعبيري العام الذي يحدد مدى النص المعبر زمانا ومكانا وبيئة، وهذا باب من البيان العربي لا أعرف أحدا أفرد له دراسة خاصة، وإنما هي إشراقات وإلماعات يمكن اكتشافها واقتباسها في ثنايا كلام الجرجاني والتوحيدي والجاحظ ومن على شاكلتهم من أئمة البيان الأولين، إلا ما كان من فصل نشرته مجلة «الرسالة» في أواخر الثلاثينات من هذا القرن للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، ثم كان مما اشتمل عليه كتابه «وحي القلم» الذي جمع فيه صفوة مقالاته، ومع أن هذا «المقال» من صميم العمل الأدبي فإن فيه ما يمكن أن يعتبر بحثا بيانيا قيما.

وأظن أن الأستاذ «الحبيب» لا يختلف معي في الجزم بأن تصنيف القرآن الكريم آيات أو كلمات يقضي في تصور وإدراك الباحث غير المتمكن من النصوص القرآنية الخبير بمواقعها ومصادرها على عنصر المناسبة الذي هو جزء أصيل من أجزاء الدلالات القرآنية، سواء فيما هو من التشريع التكليفي، أو مما هو من التشريع التوجيهي والتهذيبي، ولا سبيل إلى الوهم - مجرد الوهم - بأن ورقات الحسيب مرئية أو مقروئة يمكن أن توفر هذا العنصر أو ترشد إليه، فالأخذ بإباحة «برمجة القرآن الكريم» من أخطاره الجلى : عدم الانتباه إلى هذا المحذور أو عدم الاحتياط له وهو ما يترتب عنه تشويه فظيع لمعالم التفهم والاستدلال الواجب وعدم الإنحراف عنها على كل من يتعامل مع القرآن الكريم استنباطا أو اجتهادا أو مجرد استفهام واعتبار.

ومحذور آخر لا أرتاب في أن الأستاذ «الحبيب» على بينة منه في ذاته، وإن بدا أنه غفل عنه وهو يتأمل عمل البرمجة هذا، ذلك هو أن ترتيب القرآن آيات أو كلمات «توقيفي» وليس «اجتهاديا»، إنه من أمر الله وحيا إلى

رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام أو بطريقة أخرى من طرائق الوحي، وفي ذلك نصوص شتى اعتمد عليها إجماع الأمة قاطبة إذا ما وردت فيه بعض الآثار مثل خواتم سورة التوبة والآية الثانية والعشرين من سورة الأحزاب مما ذكره المدونون الأول لتاريخ القرآن وعلومه، من أمثال ابن أبي داود السجستاني ـ كتاب المصاحف ص : 37 ـ وعني جمعا وتمحيصا وتحقيقا من جاء بعدهم ممن صرفوا في هذا المجال جهودا كريمة ـ أثابهم الله عليها ـ ومن أبرزهم «جلال الدين السيوطي» ـ الإتقان : ص : 57 ـ رحمه الله.

ومع أنهم اختلفوا في ترتيب السور «أتوقيفي» أم «اجتهادي» ؟. فإن ما توفر من الأدلة من المأثور من رسول الله ﷺ وعن أئمة الصحابة يحمل على اليقين بأنه أيضا توقيفي، وأن من اختلفوا في ذلك من السلف الأول يرجح أن تكون قد بلغتهم هذه الآثار أو توثقت لديهم لما كان من انتشار الرواة في الأصقاع المفتوحة للإسلام في القرن الأول وتحكم «المسافة» في توفير المعارف وتوثيقها لدى أولئك السلف رحمهم الله.

وجلي أن عملية «التصنيف» للآيات طبقا لموضوعاتها أو للكلمات طبقا لنطقها يخرج بالنصوص القرآنية عن إطار القداسة الواجب التزامه بكل مقتضياته وآدابه، ومنها عدم الإخلال بالترتيب القرآني ألفاظا وآيات، وقد كنت وما أزال أجد في النفس نفرة من معاصر غير متخصص أباح لنفسه ـ لا أن يؤلف في تفسير القرآن بل ـ أن يعيد تأليف القرآن بأن يضع تفسيره على أساس ما اعتبره ترتيب نزول الآيات القرآنية، وهو افتيات عجيب على قدسية من صنع الله أحاط بها كتابه العزيز، وناط بها دلالته تشريعا وتوجيها، ثم إنه تحكيم لآثار ظنية في نص قطعي، فمهما تبلغ الأخبار والآثار التي اعتمد عليها في تحديد «قبلية» أو «بعدية» نزول آية من الآيات فإنها لا تتجاوز أن تكون ظنية وحتى لو توفر التواتر لبعض منها فإن قطعية هذا التواتر لن تبلغ ـ بأي حال ـ مستوى قطعية النص القرآني، إنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو كذلك ليس ألفاظا فحسب، ولا فقرات فحسب، ولكن ترتيبا وسياقا ومواقع ومناسبات ترتبط كلها ارتباطا عضويا مندمجا ممتزجا لا سبيل فيه إلى تحوير أو تغيير، ذلك ما يقتضيه الإيمان الصادق بالقداسة القرآنية والفهم الدقيق الموفق بمنهاج استشراف الدلالة القرآنية.

وأعتقد أن الأستاذ «الحبيب» يشعر معي بأن «برمجة القرآن الكريم» تنقض هذه الأسس نقضا كاملا بما تقتضيه عملية التصنيف من إعادة ترتيبه ألفاظا أو آيات.

وبعد، فقد أخذ هذا «المقال» يستطيل وما تزال لدى في مناقشة الموضوع أشواط سأستأنف من قابل إن شاء الله.

مناقشات

تأملات في قصيدة

للأستاذ محمد الحلوي

مرة أخرى يشدني الفضول الأدبي إلى جولة في "فرحة العيد" المنشورة في العدد 257 من هذه المجلة والتي كتبها أخونا الأستاذ عبد الكريم التواتي الذي تعود أن يمتع القراء في هذه المناسبات الغالية بقصائده الغراء، وبدافع الإفادة والإستفادة، وإثارة الغبار في ميدان تخلى عن الركض فيه كل جواد إيثارا للسلامة أو شعورا بالذات وجدتني أكتب هذه الانطباعات.. فقد كتب الشاعر قصيدين بهذه المناسبة. **«فرحة العيد، وعيد الشباب»**، وهما معا يكونان قصيدة متحدة المضمون والأفكار. ولو اختلفتا في الوزن والإيقاع، ويستطيع القارئ من غير جهد أن يهتدي إلى أكثر من موطن كرر فيه الشاعر نفسه فيهما خاصة في تحدثه عن الكون والدهر والبشائر واستعماله عنصر الطبيعة من نهر وجداول ورياض وياسمين وياسمين وزهور وأغاريد، فالمعجم الموظف في القصيدين واحد، غير أن الأولى **«فرحة العيد»** تتميز عن **«تحية عيد الشباب»** بما شابها من هفوات ما كان أحراه أن يسلم منها لوكلف نفسه مراجعة عمله وأعفاها - بعض الشيء - من إطالة النفس الذي يتعب أحيانا ويوقع المولع به في الحشو والسقطات.

وليقف معي الشاعر على هذه اللقطات وما أظنه إلا مقتنعا بما فيها من اضطرابات وعيوب.

• ففي هذا البيت :

وتهـــادت عرائس السعــــد أزكى
تحيـــات مبـــاركـــات **عـــواطِر**

فالكلمة - عواطِر - لا تأتي جمعا إلا لعاطرة كخاطرة وخواطر، والوارد عربية هو - عطرة وجمعها السالم : عطِرات وليس عَواطِر...

• وفي هذا البيت :

وزغـــاريـــد رجعتهـــا العـــذارى،
وأهـــازيـج **طـــارحتهـــا الحرائر**

جاءت كلمة - الحرائر - هذه لتقابل العذارى وهي مقابلة متنافرة مع ما توحي به كلمة الحرائر من وجود نساء في الوطن مسترقات لا يسهمن في فرحة العيد ولا يتغنيّن

بأهازيجه.. ثم أية مزية فنية في غناء الحرائر خاصة بالأهازيج، ولغير الحرائر ـ إن وجدن ـ أصوات فنية ومواهب غنائية تستحق الإعجاب ؟.

وفي هذه التركيبة ـ طارحتها الحرائر ـ ما فيها، إذ أن الحرائر كما أراد تطارح بالأهاريج ولا تطارح الأهازيج كما يفصح عنه التركيب.

• وفي هذا البيت :

وأسرّت حبورها **الروض** فاهتا
ج فغنّى نشوان أحلى المشاعر

أهم ما يجسم الفرحة بالعيد عند الشاعر هو الغناء سواء في الأرض أو في السماء، فالجماهير أغنيات وخرير النهير أغرودة، والحساسين تشدو رائع الألحان. أما الروض فتخفي حبورها ولكنها لا تستطيع فتهتاج وتغني بدورها أحلى المشاعر... والروض في بيت الشاعر لغة : الأرض المخصبة فهو مؤنث في معناه وهو أيضا جمع لروضة، وقد تعامل معه الشاعر مرة مؤنثا فأنث له الفعل ـ وأسرّت ـ وتعامل معه ثانيا مذكرا فذكر الفعل ـ فاهتاج ـ ومن شأن هذا التردد أن يولد ركاكة واضطرابا في المعنى غير محمود.

• وفي هذا البيت :

وانتشى الكون دغدغته الأغاري
ـد وطل **من الندى** متناثر

قد يستطيع القارئ أن يتخيل الكون وقد دبّت فيه النشوة بفرحة العيد ودغدغته أغاريده، ولكنه لا يستطيع أن يتصور الكون كله وقد لفه وأحاط به النّدى المتناثر وعمّته ظاهرة لم تعرفها جغرافية الكون وطبيعته المختلفة، فأيّ جمال تراه العين في أنداء متساقطة عمّت الكون كله وتناثرت عليه في غير توقيت ولا انتظام ؟. حبذا لو كان قطر ندى على روضة غناء ليكون صورة شعرية طالما استلهم منها الشعراء.

• وفي هذا البيت :

وغدا المغرب احتفالات بشر
قد غدا البشر من **حمياها** فائر

صحيح أن المغرب قد تحول كله إلى احتفالات يغمرها البشر الذي كان يفور من أعماق كل قلوب الشعب المفعمة بالحب والنابضة بالولاء، ولكنه لم يكن بشرا يفور من كدوس الحميا التي لا تخلو عادة منها احتفالات غيرنا. فالمجازية هنا ـ لو ادعاها ـ تخدش الحس وتثير النفس، فما كان أحراه أن يستبعدها، ومع هذا فعجز البيت مكسور لا يستقيم في الخفيف جاء إيقاعه مكسورا هكذا :

فاعلاتن متفعلن مفعولاتن

بدلا من فاعلاتن الضرب الذي بنى عليه قصيدته...

• وفي هذا البيت :

فرحة العيد إنه للشباب عيد سني
تتباهى به العلى والمفاخر

كسر في الإيقاع لا يستقيم معه بزيادة ـ فرحة العيد ـ وهما كلمتان.

• كما في هذا البيت :

يالها **من** فرحة تغنى بها الشعـ
ـب وناجت منه خبايا الضمائر

وقد زيدت فيه كلمة ـ من ـ فأخلّت بإيقاعه.

• وفي هذا البيت وهو يتحدث عن فرحة العيد :

أغدقت سوحنا الرخاء فدنيا
نا ربيع مغدودن الخصب ماطر

ما يؤخذ عليه فيه هو استعماله ـ أغدق ـ فعلا متعديا وهو لازم : أغدق المطر واغدودق فهو مغدق ومغدودق.. ولو قال : منحت أرضنا الرخاء لتحاشى الخطأ وتجنب استعمال ـ سوحنا ـ جمعا لساحة وهو غير مألوف باستعمال ـ أرضنا ـ وهي أكبر من الساحات وأعم منها.

• ويقول :

وتوالت مباهجا تتلألأ
مشرقات الجبين **ريّى** المحاجر

صورة المباهج وهي متلألئة مشرقة الجبين صورة شعرية لا يشوه جمالها إلا هذه المحاجر التي أغرقتها الدموع إلى حد الارتواء، قد تظهر الدموع في المحاجر في لحظات الفرح الطافح أما أن تغرقها الدموع إلى حد الارتواء فهي حالة تشبه حالات الحزن والتي تفسد الصورة التي أراد أن يرسمها.. وريى مؤنث ريان كخزيان وخزيى تكتب ألفها ياء لأنها رابعة لا ألفا كما كتبها الأستاذ.

• وفي البيت التالي : حققت ما رغبنا فيه وشئنا.

كسر لإيقاع البيت فهو لا يتزن إلا بحذف ألف رغبنا وهو غير جائز لأن النون قبله ضمير، وحذف الألف يحول نون المذكر إلى نون نشوة - رغبن -

• ويقول :

واصطفاها تمائما وتلاها
سورا طهرت لغاها السرائر
وهواها وقد أشاقت حنا
ياه وحلت منه شغاف المشاعر

وهو يدرك دور اللغة والإيقاع في كتابة القصيدة العمودية وفقدها الكثير من قيمتها حين تختل فيها اللغة أو يختلّ فيها الإيقاع، ولكنه مع هذا يتعامل معهما أحيانا بطريقة غير منهجية ولا علمية...

ففي البيت الأول يتحدث عن الفرصة التي تجلت للكون فاصطفاها وعلقها عليه تمائما.. وهي خرافة مترسبة غلبت على الشاعر فتخيل معها الكون وقد علق عليه فرصة العيد تمائم تقيه العين وشر الحسود. ولا أعرف كيف يصبح الكون وقد علق أبناؤه عليهم هذه التمائم واستيقظت فيه غرائز ما قبل التاريخ.

أما في البيت الثاني فقد عطف فيه - هواها - على اصطفاها. والحديث دائما عن الكون الذي جن بالفرصة واصطفاها وأحبها.. واستعمل في الحديث عن الهوى هواها. وهو في العربية فعل لازم مضارعه يهوي لمعنى : يسقط أما عند الحديث عن الحب والهوى فالفعل المستعمل هو : هوي يهوى، فالصواب في الكلمة : هويها لا هواها.. ثم يتحدث عن الفرصة التي - اشاقت حنايا الكون - ولو كلف نفسه الرجوع إلى اللغة لعلم أن معنى : أشاقه وجده مشتاقا. وليس معناها شوّقه وهيّجه كما أراد...

• ويقول في هذا البيت :

هلّ فاستبشر الورى واشرأبت
تتملاه أعين ونواظر

وفيه عطف النواظر على الأعين وهما شيء واحد وحشو معيب يشبه قول الشاعر :

وألفى قولها كذبا ومينا

ولو قال : تتملاه أعين وبصائر، لقابل فيه بين الأبصار والبصائر..

• وفي هذا البيت :

أيا سليل الملوك من آل طه

كسر في إيقاعه بزيادة الألف في أوله.

• ويقول : عشتم - الدهر - للحنيفة - درعا...

وإنما هي الحنيفية كما جاءت في الحديث : تركتكم على الحنيفيّة السمحة.

• ويقول :

فاستتب السلام وانتشر الأم
ن وعم الرخا ربوع العشائر

وما أجمل أن يكون الحدث السعيد طالع يمن يستتب به السلام ويعم معه الأمن جميع أرجاء الوطن الكبير، أما الرخاء هنا وفي العالم كله فلا يتحدث عنه إلا من يعيش خارج العالم وحدوده. وأما **ربوع العشائر** التي أقحمها فهي دخيلة لا يعرفها النظام الإداري في مجتمعنا ولا تقوم عليها روابط الحياة في وطننا، فقد ولى زمن العشائر ولم تعد هناك إلا أقاليم تجمعها هموم مشتركة وطموحات موحدة..

ومع هذه اللقطات التي أومأت إليها متوخيا الإيجاز تبرز إلى جانب الأفكار والمعاني المكررة قوافي الأبيات المعادة والتي لا تفصل بينها إلا مسافات قليلة وقصيرة مما عابه العروضيون واستضعفوا به من يستعمله من الشعراء، وفيما يلي جرد بهذه القوافي المكررة :

البشائر 2 عشائر 2 المزاهر 2 المقادر 2 المشاعر 3 السرائر 3 الخواطر 2 الضمائر 2 ماطر 2 الحواضر 2 الظافر 3 الماثر 2 الأواصر 2 الزواهر 2.

وبعد فقد حرصت أن يكون مَا كتبتُه مجرد تأملات لإثارة الانتباه ولفت النظر إلى ما ندّ عنه القلم وسها عنه الفكر وقد أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق...

أعدها : أبو عمر الفاروق

زيارة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى جمهورية مصر العربية

قام وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري بزيارة إلى جمهورية مصر العربية، خلال الأسبوع الأخير من شهر يونيو ورافقه وفد من الوزارة يتكون من الأستاذ مولاي مصطفى العلوي والأستاذ عبد الله رضوان والأستاذ شاكر التجاني،

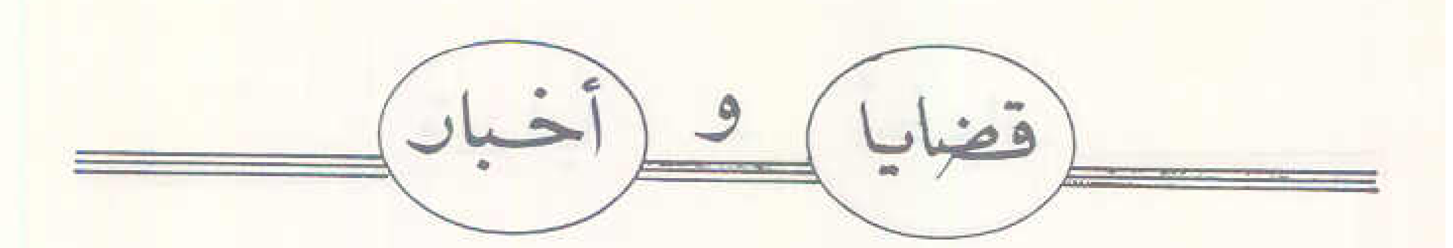
ولهذه المناسبة خصصت الزميلة «منبر الإسلام» ملحقاً خاصاً بعدد ذي القعدة، تناول تسجيلا كاملاً لهذه الزيارة، كما تناول موضوع دعم التعاون الثقافي الإسلامي بين المملكة المغربية وجمهورية مصر العربية، والتوصيات التي تم التوصل إليها.

ويسر «دعوة الحق» أن تستأذن الزميلة «منبر الإسلام» في أن تنقل عنها بعض ما تضمنه الملحق.

جاءت زيارة الدكتور عبد الكبير العلوي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربي، لجمهورية مصر العربية ضيفا على وزارة الأوقاف.. خطوة رائدة على طريق الصحوة الإسلامية.. توجّها استقبال الرئيس محمد حسني مبارك للضيف المغربي الذي أبلغ الرئيس محمد حسني مبارك تحيات الود والأخوة التي حمله إياها **جلالة الملك الحسن الثاني عاهل المملكة المغربية**، وقد حضر المقابلة الدكتور محمد الأحمدي أبو النور وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وقد أراد الله لهذه الزيارة أن تكون فاتحة الخير للأمة العربية والإسلامية قاطبة.. إذ تبلورت هذه الزيارة عن إعلان وثيقة دعم التعاون الثقافي والإسلامي بين جمهورية مصر العربية والمملكة المغربية تم إعلانها في مؤتمر صحفي موسع، عقد بمقر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وقد أوصت الوثيقة بـ :

- رعاية الشباب، وحماية الأقليات الإسلامية والجاليات العربية.
- تنظيم «أسبوع القرآن الكريم» في جميع عواصم العالم الإسلامي.
- ترجمة معاني القرآن الكريم إلى مختلف اللغات.

وأكدت اللجنة المشكلة برئاسة وزيري الأوقاف المصري والمغربي في الوثيقة التاريخية المعلنة في المؤتمر الصحفي على ضرورة التبادل العلمي عن طريق الزيارة والمحاضرة والندوة وتقديم الخبرات الفنية والإدارية.. مما يسهم إسهاما كثيرا في توضيح مفاهيم جادة ومتطورة لأسلوب نشر الدعوة الإسلامية.. بما يكفل للجهد الثقافي الإسلامي أن يأخذ طريقه إلى تحقيق الهدف في إيجاد كيان قوي تقف به الأمة الإسلامية شامخة في مواجهة الغزو الفكري.



• كما نصت الوثيقة على إقامة المعارض الدولية في «أسبوع القرآن الكريم» تقدم خلالها الأبحاث والدراسات القرآنية والإنجازات والمعوقات، وما يجب اتخاذه حيالها لتحقيق تبليغ الدعوة الإسلامية بأسلوب علمي متميز.

• كما أوصت الوثيقة بتشكيل لجنة في كل من المملكة المغربية وجمهورية مصر العربية يوكل إليها التخطيط والتنفيذ والمتابعة لكل ما يسهم في تحقيق مضمون وثيقة دعم التعاون الثقافي والإسلامي بين مصر والمغرب الشقيق، على المستويين العربي والإسلامي.

ومجلة منبر الإسلام إذ تبارك هذه الخطوة الرائدة، يسرها أن تقدم إلى العالم الإسلامي تسجيلا لهذه الزيارة المباركة مقرونة بنص الوثيقة التاريخية التي تنظم أسلوب دعم العلاقات الثقافية والإسلامية بين البلدين والكلمات المتبادلة بين وزيري الأوقاف المصري والمغربي في المؤتمر الصحفي..

• الرئيس مبارك يستقبل وزير الأوقاف

استقبل الرئيس محمد حسني مبارك بقصر العروبة يوم الثلاثاء الموافق 1986/6/24 الدكتور عبد الكبير العلوي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وحضر المقابلة الدكتور الأحمدى أبو النور وزير الأوقاف.

وصرح الدكتور الأحمدى أبو النور عقب المقابلة بأن الرئيس قد بارك خطوات التعاون بين وزارتي الأوقاف في كل من مصر والمغرب في مجال تدريب الأئمة وتبادل الزيارات والمطبوعات. وكذلك دعم التعاون بين أعضاء المجالس العلمية في المغرب. وبين لجان المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وقال : إنه يجري حاليا عقد اتفاقية للتعاون في مجال طباعة الكتاب الإسلامي والثقافي المغربي في مطابع وزارة الأوقاف بمصر.

وأعرب عن تفاؤله لزيارة وزير الأوقاف المغربي لمصر، وقال إنني لمست منه ومن الوفد المرافق تفاهما كاملا في التعاون البناء بين البلدين.

وقال الدكتور الأحمدى أبو النور أن هناك لجنتين للتنسيق بين الوزارتين. وقد بدأت كل لجنة بالفعل في العمل مع الأخرى وسيتم استعراض المجالات التي تتعاون فيها الدولتان لإقرارها والبدء في تنفيذها.

كما صرح الدكتور عبد الكبير العلوي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، عقب المقابلة بأنه أطلع الرئيس مبارك على مباحثاته مع الدكتور الأحمدى أبو النور، وما يفتحه ذلك من آفاق التعاون بين الوزارتين في مجال الدعوة الإسلامية.

وقال إنني أبلغت الرئيس مبارك تحيات جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب.

وأضاف أن اللقاء كان في مستوى المودة والعلاقات المتينة التي تربط بين الشعبين والبلدين وقد تطرق اللقاء إلى ما يتعلق بالدعوة الإسلامية وأحسست برعاية الرئيس لهذا الجانب واهتمامه البالغ به.

وقال وزير الأوقاف الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري : إن التعاون بين البلدين سوف يتركز في مجال الدعوة الإسلامية وجميع المجالات التي تهم المسلمين وفق برنامج محدد سيتم الإعلان عنه في وقته.

قضايا و أخبار

مشروع اتفاقية للتعاون

تم وضع أسس بروتوكول لدعم التعاون الديني والثقافي بين مصر والمغرب، ينص على ضرورة تبادل المؤلفات والمطبوعات في شتى مجالات تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بما يحقق الفائدة المرجوة من هذه المؤلفات، وذلك أثناء الاجتماع الموسع الذي عقد بين الدكتور الأحمد أبو النور وزير الأوقاف والدكتور عبد الكبير العلوي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، والوفدين المرافقين لهما.

وأوصى الجانبان بالاهتمام بالتدريب كوسيلة تعين الداعية على النهوض بمهمته وتمده بالقدرات العلمية والفكرية واتخاذ منهج للتفكير المشترك بين قيادات الدعوة في البلدين، وكذلك التخطيط الذي يكفل للدعوة الإسلامية أن تؤدى دورها في إصلاح المجتمع وتوجيه الأمة إلى الوجهة الإسلامية السليمة.

كما تضمن البروتوكول الاهتمام بالترجمة من العربية واليها وأن تؤكد حقها من العناية وحتى يتعرف العالم الغربي على الإسلام ومبادئه وكذلك الاهتمام بالأسرة المسلمة في المهجر وتلبية حاجاتها من التراث الإسلامي لكبار المفكرين والعلماء المسلمين.

ويتضمن أيضا التبادل العلمي والزيارات والمحاضرات والندوات وتقديم الخبرات الفنية والإدارية حتى يسهم ذلك في توضيح مفاهيم جادة ومتطورة لعملية الدعوة الإسلامية ومساعدة المسلمين في جميع أنحاء العالم في تشييد المسجد والمدرسة والمكتبة والنادي والاهتمام بالتربية الإسلامية للأسرة والطفل والشباب وربطهم جميعا بالوطن الأم.



● الوفدان المغربي والمصري في جلسة عمل برئاسة وزيري الأوقاف في البلدين.

كلمة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

يقول الله تبارك وتعالى :

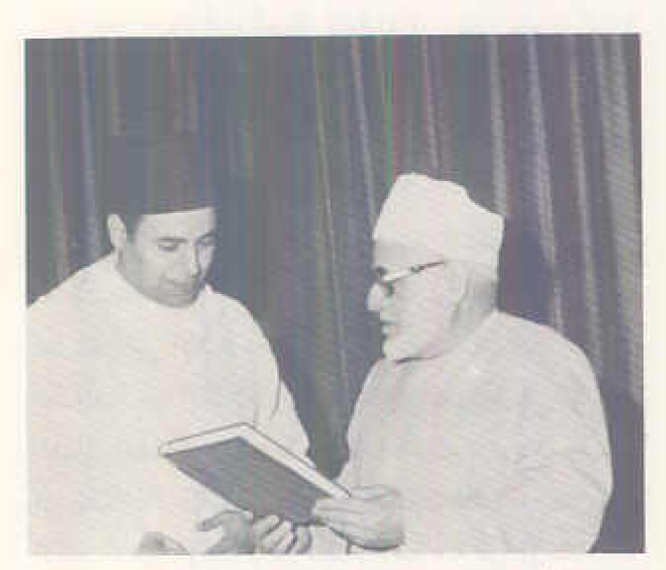
﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

ولا شك أن رؤية الله تعالى لأعمالنا فيها معان كثيرة من جملتها رعايته لهذه الأعمال وتوفيقه لهذه الأعمال، ومباركته لها.

وقد أحسست بهذا المعنى منذ أول خطوة من خطوات هذا اللقاء المبارك، أحسست بيد ربانية تيسر الأمور وتفتح الطريق وتذلل الصعاب، وأحسست بعناية إلهية تسدد الخطى وتوقها في أمان واطمئنان نحو الهدف الذي يرضي الله ورسوله، وأحسست بسكينة ورحمة وطمأنينة تملأ الروح والشعور فتجعل معاني المودة والإخاء تنصهر وتجتمع في المشاعر والقلوب والنفوس لتترجم إلى عزم أكيد على مزيد من الترابط ومزيد من التعاون.

أحسست بهذه المعاني منذ وطئت قدمي هذا البلد المبارك، فلم أحس بغربة أو أي إحساس يحول عن العزم عن المضي في البلوغ بهذا التعاون إلى أقصى مداه. وقد توج ذلك فيما لمسته في فخامة الرئيس محمد حسني مبارك من اهتمام بالأمور التي تشغل بالنا وبأمور الدعوة الإسلامية وبكل ما يخدم الإسلام وما يعمق جذوره في هذا البلد وفي غيره من البلاد الإسلامية.

ووجدت في الأزهر الشريف وفي إمامه الأكبر وفي أصحاب الفضيلة العلماء أعضاء المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ما يبارك عملنا وما يشعرنا بأن علماء الأمة الإسلامية قاطبة يباركون خطواتنا، كل هذه المعاني شجعت وأعانت على أن نخرج بهذه التوصيات، التي أقرها الجانبان المصري والمغربي، كما أعان على أن نتفق على خطة للعمل تبلور هذه التوصيات في شكل نصوص قانونية يوقع الاتفاق عليها بين الدولتين الشقيقتين، وتكون أرضية صلبة لعمل إسلامي دائم ومستمر.



● وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري أثناء لقائه بفضيلة شيخ الأزهر جاد الحق علي جاد الحق.



أريد أن أقول إن الدعوة الإسلامية في العالم الإسلامي كله في حاجة إلى تنظيم وفي حاجة إلى تطوير وتجديد. إلا أن التطوير والتجديد عندنا نحن المسلمين ليس هو التطوير والتجديد الذي عند غيرنا، التطوير والتجديد عندنا يتم بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، منهما نستمد التجديد ومنهما نستمد التطوير، ومن الأخطار التي قد تصيب أعمال الدعوة أن تنطلق في التطوير والتجديد انطلاقا يبعدها عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويثقلها بما يجد في العصر وما يحدث في هذه الحياة المتهافتة التي لا تقر على حال.

إذاً ينبغي أن نجدد الدعوة الإسلامية ونجددها انطلاقا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وينبغي أن ننظم العمل لأن تنظيم العمل يصلح لتوفير الجهود ويصلح لتسييرها في مسارها الذي تكون فيه فعالة نافعة.

نحن اليوم أمام أجيال متفاوتة في عصر واحد أجيال الشيوخ والكهول والشباب كل جيل تنفع فيه لغة ربما لا تنفع للجيل الآخر فإذا خاطبنا الشباب باللغة التي نخاطب بها الشيوخ والكهول ستكون جهودنا هباء.

فعندنا في الإسلام ما نخاطب به الشباب وما نجذب به الشباب إلى الإسلام، نفجر طاقات العمل في الشباب انطلاقا من الإسلام، نفجر طاقات النضال في الشباب انطلاقا من الإسلام ونتحدث عن الحرية في الإسلام للشباب انطلاقا من المصالح العامة المعتبرة شرعا، والدائرة في نطاق التكاليف الشرعية، نتحدث للشباب عن نظام الاقتصاد في الإسلام عن نظام السياسة في الإسلام، عن الأنظمة الدستورية في الإسلام. وهذه القضايا تشغل الشباب وقلما نتحدث لهم فيها. ينبغي ألا نترك الشباب تبهره الأنظمة الدخيلة.

وأسلوب الدعوة من الأمور التي ينبغي أن نهتم بها في العالم الإسلامي قاطبة، فاللغة للداعية ومنهج الداعية ووسائل التبليغ المختلفة من سمعية ومرئية كل هذا له خطره وله وزنه وله قيمته.

نحن في المغرب عندنا جهاز يقوم على الدعوة الإسلامية كالمجالس العلمية الإقليمية، **ويشرف على هذه المجالس المجلس العلمي الأعلى الذي يرأسه جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله**، ويضم هذا المجلس وهذه المجالس نخبة من خيرة العلماء. لذلك نأمل أن تتقوى الروابط بين العلماء وأن نجتهد في إعداد تبادل الزيارات بين العلماء، وألا يعقد ملتقى إسلامي في مصر دون أن يحضره علماء المغرب، وألا ينعقد مؤتمر إسلامي في المغرب دون أن يحضره علماء مصر، وأن نفتح المجال لعلماء المغرب ليخاطبوا شباب مصر، وأن نفتح المجال لعلماء مصر ليخاطبوا شباب المغرب فهكذا يقع التواصل ونحن أمة واحدة لا فرق بيننا إطلاقا.

كم أنا سعيد جدا ومغتبط أشد ما يكون الاغتباط لهذه المناسبة الكريمة المباركة التي أتاح الله لي بها اللقاء بكم وبأخ كريم ورفيق جديد في درب العمل الهادف البناء الرامي إلى خدمة الإسلام وخدمة الدعوة الإسلامية ألا وهو زميلي العالم الكبير الدكتور الأحمدي أبو النور.

وإني لفخور أشد الإفتخار بما أكرمني به مجلسكم الموقر بقبولي عضوا في المؤتمر العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.



وأعتز أن يكون المغرب ممثلا في هذا المجلس، كما يسعدني أن يكون المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ممثلا في المجالس العلمية المغربية، وسنواصل الخطوات إن شاء الله

وسنفرح فرحا كبيرا بزيارة الدكتور الاحمدي أبو النور إلى بلده الأول، ولا أقول الثاني، إلى المغرب وأنا أوجه لسيادته الدعوة في هذا المجلس لزيارة سيادته المغرب.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لخدمة الإسلام وخدمة المسلمين.

إننا نعتبر هذه التوصيات نوقعها فقط بالأحرف الأولى إلى أن تأخذ طريقها للاعتماد الدائم من القيادات العليا لكلتا الدولتين، ولا شك أن هذا العمل له مداه الذي يجب ألا نتعداه أو نتجاوزه.

ومن هنا نلمس أن هناك وحدة فكرية من الثقافة الإسلامية الأصيلة تجمع بين أفراد الأمة قبل أن يلتقوا وتقرب بينهم رغم تباعد المسافات.

وأحسب أن إمكانات وزارة الأوقاف هنا في مصر وإمكانات وزارة الأوقاف في المغرب سوف تكون في خدمة ما نطمح إليه.

كلمة وزير الأوقاف المصري الدكتور محمد الأحمدي أبو النور

هذا يوم تاريخي نقف فيه على إنجاز علمي وحضاري وقيمي أيضا. فإن مجالا من التعاون البناء الذي يستهدف تنمية وتطوير الأداء في حقل الدعوة الإسلامية بين المملكة المغربية الشقيقة وبين مصر يأخذ دوره الآن ليصعد على أساس من قاعدة إيمانية صلبة، ليصعد صرحا شامخا وشاملا في بناء حضارة الإنسان وعلى أساس من تراث الإسلام ومن ميراث العروبة. ومن حق الإسلام والعروبة علينا عبر الزمن.

كم نحن سعداء بهذه الزيارة الواعدة التي تألقت بالأخ الأعز الدكتور عبد الكبير العلوي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية الشقيقة والوفد المرافق له، كم نحن سعداء بهذه الزيارة فإنها ليست فقط زيارة رسمية وإنما هي زيارة إيمانية وروحية تتعانق فيها القلوب وتتعاهد فيها المهج ونتعاهد فيها معا على أن نبدأ عهدا جديدا من التعاون البناء في حقل العلم والثقافة والمعرفة وفي حقل الدعوة الإسلامية بصعيدها المتسع وبأفقها المتراحب وبكياناتها هنا وهناك، هذه الكيانات التي ينبغي أن تظل دائما تتلاحم وتتآزر وتحقق قيمة إسلامية عظمى..

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾.

﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين ءامنوا وعملوا الصلحت وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

إن هذه الزيارة ليست من الزيارات النمطية وإنما هي زيارة يكسوها الإسلام بجوهره وأصالته ويدفعها الإسلام بكل ما أعطى البشرية منذ بزغ فجر النبوة، ومنذ طالع العالم شعاع الإسلام يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

نحن نقدر الدور الرائد الذي يقوم به المغرب الشقيق في سائر المجالات ولا سيما في مجال الدعوة الإسلامية



وقد لمست أن المغرب يقدر بدوره دور مصر الرائد في مختلف المجالات ولا سيما في مجال الدعوة الإسلامية.

وقد علمتم أن وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب الشقيق قد حمل مودة عميقة ومتينة من جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب إلى شقيقه سيادة الرئيس محمد حسني مبارك، هذه المعاني التي تحمل وتعبر عما يكنه شعب المغرب الشقيق لمصر.

ولقد بارك سيادة الرئيس هذه المعاني، وما تحدثنا به عن تعاون يأخذ طريقه إلى التنفيذ الذي يمثل الصرح الشامخ الذي حدثتكم عنه بادىء ذي بدء وقد بارك سيادته هذه الخطوة، ولمسنا منه أنه معنا بكل الإمكانات والمودة التي ينبغي أن تظل منداحة بين مصر والمغرب لتمثل نموذجا من التعاون الرائع والرائد بين مختلف أقطار البلدان العربية والإسلامية.

مرة ثالثة ورابعة أقول أن هذه ليست زيارة نمطية، إن الإسلام يحدوها، وإن الآمال ترعاها وإن المهج والأرواح تحوطها برعايتها وعنايتها، وأشهد أنني كنت مع أخ شقيق، كأنني كنت أعرفه منذ أمد بعيد، وأشهد أن الرسميات لم تكن أحاديثنا ولا محادثاتنا، وإنما كستها الأخوة الإسلامية الودودة وكستها الصداقة العربية الحميمة التي ينبغي أن تكسو كل عمل عربي وكل عمل إسلامي، ومن هنا بما لمسناه أيضا مما نضح من معاليه على الوفد العلمي المرافق له، ومما أشهد به أيضا هذا الجهد الرائع من التعاون بين أعضاء وزارة الأوقاف في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وفي الوزارة وبين الوفد المرافق لمعالي الدكتور الوزير أشهد أن هذا التآخي، وهذا التنسيق وهذا التعاون الذي ظهرت روحه واضحة جلية بين الوفدين إنما يعكس صورة لما عليه أمد التعاون بين الشعبين بصفة عامة.

اسمحوا لي أن أشكر أعضاء الوفد المغربي الشقيق والأخوة الذين قاموا بعمل قياسي رائع في وقت قياسي وفي زمن محدود جدا فقد كنا نتمنى أن تطول هذه الزيارة وتطول لولا أن وقت معالي الوزير وارتباطاته أكثر من أن يكون معها الإمكان في أن تلبى رغبتنا هذه المرة، بيد أننا سوف نظل مشوقين لزيارة ثانية وثالثة يكون الوقت معها أطول وتكون الفرصة معها أطول ومن هنا نستطيع أن نقول أن هذه الزيارة هي زيارة للبدء، والألف ميل تبدأ بخطوة واحدة هذه هي الخطوة الأولى التي نبدأ بها العمل.. واسمحوا لي أن أشكر عنكم جميعا هاتين اللجنتين فقد قامتا معا بعمل رائع، وقد عبر كل منهما عما تختلج به ضمائرنا جميعا وعما تهفو إليه نفوسنا وآمالنا وعما تطمح إليه أنظارنا.

لقد بدأنا مع سيادة الوزير محادثات حضرها الجانبان، وحضرتها اللجنتان واجتمعنا مع هؤلاء الأخوة جميعا بمكتبنا بوزارة الأوقاف وتحدثنا مليا وأعطينا الأبعاد والخطوط وقلنا إن جهدا مضنيا ينبغي أن يبدأ.

التوصيات

أولا : الاهتمام بالتدريب كوسيلة تعين الداعية على النهوض بمهمته وتمده بالزاد العلمي المتجدد وتنمى قدراته الفكرية والإدارية.

ثانيا : اتخاذ الكفاءات بين قيادات الدعوة والعاملين في الوزارتين منهجا للتفكير المشترك، والتخطيط الذي يكفل للدعوة فكرا ورجالا ومؤسسات ومعاهد حتى تؤدى دورها في إصلاح المجتمع وتوجيه الأمة الوجهة الصحيحة.

قضايا و أخبار

ثالثا : الكلمة المكتوبة تبقى دائما صلة بين فكر الأمة ماضيا وحاضرا وهي في الوقت نفسه مؤشر لمستقبل يبشر بما نأمله ونرجوه ومن هنا كان تبادل المؤلفات والمطبوعات رافدا أصيلا في تشكيل الشخصية الإسلامية التي تهيئها للحياة الجادة والمستقيمة. ومن هنا يجب أن نضع أبصارنا على قمم التراث ومختاراته حتى تجمع أمتنا فكر أجدادها وثقافة ماضيها إلى جهد علمي رائع يفخر به حاضر الأمة اليوم.. وأحسب أن تعاونا علميا سوف يأخذ خطواته بين لجان المجلس وعلى سبيل المثال لجنة إحياء التراث ولجنة أمهات كتب السنة والمركز الدولي للسيرة والسنة سوف يبدأ تعاون بناء بين هذه اللجان وبين المجالس العلمية في المملكة المغربية الشقيقة.

ولعله ينبغي أن نذكر - وأنا لا أخالكم ناسين لهذه الحقيقة التي يفخر بها تاريخ أمتنا - أن المغرب الشقيق ظل أمينا على تراث هذه الأمة وعلى ميراث بيت النبوة، ومن هنا كان تقديرنا وحبنا للمغرب.. إن الأسرة المالكة في المغرب سليلة البيت النبوي ومن هنا فهي تقوم بهذا التاريخ العريق في الإيمان وفي الحضارة، تقوم حارسة لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ ولميراث النبوة وبيت النبوة وآل بيت النبوة. ومن هنا فإن هناك تراثا نفخر به المكتبات العامة وخزانة الملك الخاصة وهي عامة لكل الباحثين.

إن تعاونا بناء ينبغي أن يأخذ طريقه بين لجاننا المتخصصة في تحقيق التراث وبين المغرب الشقيق فإن هناك كنوزا ونتائج في مختلف العلوم الإسلامية وأن هذه الكنوز قد يكون بين أيدينا منها البعض، وقد يكون عندنا غيرها وحتى لا تتكرر الأعمال العلمية في تحقيق التراث فإن هذا التعاون يضمن أن ننسق معا، وألا يكرر بعضنا بعضا، ولعل هذا التعاون يجسد حقيقة هامة هي : أن ما ينشر هنا ينبغي أن يكون ملكا للمغرب، وأن ما ينشر في المغرب ينبغي أن يكون ملكا لمصر، وأنه في سبيل تجسيد : أن أمتنا أمة واحدة وأن غايتنا غاية واحدة، وأن أعمالنا ينبغي أن تتآزر وأن تتعاون فإن هذا كله يجسد حقيقة هامة هي أن العمل ينبغي أن يأخذ طريقه متعاونا لأننا جميعا حراص أشد ما نكون - على أن تنتفع أمتنا في حاضرها بكل هذه الكنوز التي يحسبها العالم الإسلامي بين المشرق والمغرب.

رابعا : قياما بأمانة تبليغ الدعوة ووفاء للمسؤولية الملقاة على عاتق الدعاة والعاملين في سبيل الله تعالى ونظرا لتنوع اللقاءات وتعددها وحتى نعرف الناس بالإسلام كان لزاما أن نعطي للترجمة من العربية وإليها مكانتها من العناية والرعاية والاهتمام. ومن أجل ذلك كانت الترجمة لمعاني القرآن وتوجيهات وتعاليم تراثنا وسنة نبينا ﷺ بالإضافة إلى روائع الفكر والتاريخ والتراث لكبار مفكري الإسلام وعلمائه - كان كل أولئك سبيلا إلى التعريف بالإسلام ونشره.

ولعلنا لا ننسى الأسرة المسلمة التي تعيش في الغرب، لها مسيس الحاجة إلى أن تعرف بلغتها الأجنبية تعاليم وآداب وتاريخ عقيدتها حتى تملأ الفراغ لدى أبنائها وشبابها خاصة هؤلاء الذين يعيشون في ديار المهجر الأوروبي أو الأمريكي.

لا ريب أن هذا طموح، وهذا الطموح لا يكتب له أن يتحقق إلا بعد أن تنجح في مصر والمغرب أولا.. ننجح محليا على أن لا ننسى ما يربطنا بإخوتنا في العالم مشرقه ومغربه.

قضايا و أخبار

خامسا : يؤكد الوفدان على ضرورة التبادل العلمي عن طريق الزيارة العلمية والمحاضرة والندوات وتقديم الخبرات الفنية والإدارية والتبادل الفكري وتطوير رسالة العلم والثقافة بما يكفل للجهد الثقافي الإسلامي أن يأخذ طريقه إلى تحقيق الهدف في إيجاد كيان قوي تقف به الأمة الإسلامية على قدمين ثابتتين وتأخذ وجهتها إلى غد مأمول ومأمون.

وفيما يتعلق بالتبادل العلمي والثقافي فقد اتفقت مع زميلي وشقيقي الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي على أن نتبادل العضوية بين المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية والمجالس العلمية المتخصصة في المملكة المغربية، وأستطيع القول أن هذا سوف يخلق روحا من الانتماء لدى كل منا، وأن هذا الانتماء سوف يفرض علينا أن نبذل عطاء أكبر، ولعل مما يثلج خاطرنا أن أعلمكم أن الأخ الزميل عبد الكبير العلوي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب الشقيق تفضل وشرفنا بقبول عضويته للمؤتمر العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

كم أستطيع أن أتفاءل بأن هذه العضوية سوف تكون مقدمة لعضويات تتبادل بين المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وبين المجالس العلمية في المغرب الشقيق.

سادسا : ما يتعلق بالشباب وتجديد شباب الإسلام، بل ونعلق عليه كبار الآمال بل نستطيع القول أن دفعنا لشبابنا على الطريق السوى هو دفع لدولنا بل هو تجديد لشباب أممنا المسلمة، أو دولنا وشعوبنا المسلمة وبالتالي فإن هذه التوصية تذكر أن قضية الشباب تأخذ أهميتها من واقع الأوضاع التي تحتلها تلك الكتلة الضخمة في حياة الأمة. فعلى كاهل الشباب تقوم أمانة الحفاظ على كيان الأمة، وبأيدي الشباب يؤسس بنيانها الحضاري، وعلى ذلك فإن عناية كبرى ينبغي أن تبذل من أجل أن نأمن على شبابنا فكرا وعقيدة وخلقا وسلوكا. ويرى الوفدان أن ذلك واجب ديني فوق أنه فريضة قومية وذلك حتى تأمن على شبابنا من تيارات دخيلة ومن مذاهب خبيثة من فكر مهلك مدمر يحول بين شبابنا وبين أن يظل موصولا بتاريخه مشدودا إلى عقيدته حارسا لقيم دينه وعروبته.

سابعا : ومشكلة تتعلق بالأقليات الإسلامية، وبالجاليات العربية التي ارتضت بهذا الاغتراب مقرا وحياة لها. أصبحت تشكل واقعا ينبغي علينا ألا نتجاوزه دون أن نعرف له حقه، ونؤدي له واجبه، ولهذا فنحن مدعوون إلى تحمل مسؤولية رعاية تلك الأقليات وحماية هذه الجاليات عن طريق الدفاع عن حقوقها ومعاونتها في الاحتفاظ بعقيدتها وحماية ذريتها ونسلها وسط بيئاتها الأجنبية والغربية، وبذلك ندفع عنها خطر الذوبان في مجتمعات بعيدة عن عقيدتها وآداب دينها، ولعل معاونة في تشييد المسجد والمدرسة والمكتبة والنادي والاهتمام بالتربية الإسلامية للأسرة والطفل والشباب المسلم، ثم ربط الجاليات بوطنها الأم، لعل في كل ذلك ما يجعلنا نطمئن إلى امتداد إسلامي عبر البحار والمحيطات يزيد إسلامنا قوة وأمتنا انتشارا.

ثامنا : إن العالم اليوم يعيش عصر التخصص الدقيق طلبا للإتقان واستهدافا للكمال، ومن هنا فإن الدعوة الإسلامية لا يجوز أن تحجز نفسها عن تجارب عصرها ودراسات عالمها المتطور والمتقدم، ويقينا فإن الدعوة الإسلامية لا تخاطب عالما محدودا، الذين ينتظرون سماع صوتها ونداء مآذنها قد اتسعت بهم الساحة ولم يعودوا عشرات الملايين بل جاوزوها إلى آلاف الملايين تتقاسمهم الزراعة والصناعة والجامعة والجيش وغيرها من المهن

قضايا و أخبار

والأعمال، كما تتوزعهم كتل من الرجال والنساء والشباب والكهول والأغنياء والفقراء وما بينهم، وهم يعيشون ببيئات متعددة ومنوعة، ولكل دعاؤه ومنطقه في الاقتناع والإقناع. وإذن فإن هذا الواقع يفرض علينا أن نعد لـه دعاتـه المتخصصين وأن تكون له دعوته النوعية والخاصة، فللجامعة إمامها، وللمصنع مرشده، وللجنود شيوخهم ووعاظهم، وبذلك تدخل الدعوة في ميدان التخصص الذي نضن به وتضمن هي فهما عميقا، لها جمهورها، وتأثيرها عميق في عقول وعواطف مستمعيها.

تاسعا : يؤيد الوفدان كافة الجهود التي تهدف إلى العناية بطبع المصحف الشريف وتشجيع مكاتب تحفيظ القرآن الكريم وتقديم المعونات والمكافآت المالية التي تسهم في نشر الوعي القرآني وإقامة المسابقات السنوية للحافظين لكتاب الله تعالى وذلك حتى لا تغيب الروافد التي تمد المعاهد الدينية والعلمية وطلابها الذين يحملون كتاب الله تعالى حتى يظل القرآن الكريم يملأ صدور أبنائنا وشبابنا. كما ينادي الوفدان العالم الإسلامي إلى أن تتبنى أوطانه فكرة تنظيم أسبوع القرآن الكريم كل عام في عواصمه، حتى تكون مناسبة عالمية إسلامية يبرز فيها الجديد من الدراسات القرآنية والمؤلفات الدينية، كما تقام معارض لطبعات القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى مختلف اللغات، وكذلك يقام عرض للمطبوعات الإسلامية والتسجيلات الصوتية والأفلام التي تصور القصص الهادف للقرآن الكريم مع تخطيط واع كي يصل المصحف الشريف بطباعته وأناقته إلى كل مسلم في العالم ومعه ترجمة معانيه إلى لغة قومية معينة.

وبخصوص هذه التوصية التاسعة أذكر أن الله تعالى يسخر لكتابه قوى وطاقات العالم الإسلامي والعربي على امتداده، هنا في مصر عناية بالكتاب والسنة، وهناك في المغرب أيضا عناية بالكتاب والسنة، هنا في مصر وفي سائر دول العالم الإسلامي عناية بطبع المصحف في السعودية وفي المملكة المغربية أيضا **وقد أهداني سيادة الوزير نسخة من المصحف الذي طبعه جلالة الملك الحسن الثاني طبعة خاصة بقراءة ورش التي يقرأ بها المصحف هناك، وهي نسخة تعتبر نسخة ثمينة، وقد طلبت من سيادته أن يتفضل مشكورا فيهدينا بعض النسخ التي نستطيع أن ننوب عن المملكة المغربية الشقيقة في توزيعها على أعضاء المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية وعلى الإخوة رجال الإعلام والصحافة الذين يهتمون بالدعوة الإسلامية وبنشاط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وبنشاط المملكة المغربية الشقيقة في مجال الدعوة الإسلامية، وقد وافق سيادته مشكورا على أن يهدينا في وقت لاحق هذه النسخ التي أرجو أن تكون بين أيديكم لتلمسوا بأنفسكم مدى عناية المملكة المغربية الشقيقة بطبع المصحف وبطبع القرآن.**

وأحب أن أذكر في هذا المجال أننا هنا من تسخير الله لنا نقيم المسابقات القرآنية العديدة في مختلف مدن ومحافظات مصر برعاية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وبرعاية هيئات أخرى كثيرة غيورة، والمغرب الشقيق كذلك سخره الله فيقيم أسبوعا بل أسابيع سنوية تعتبر معارض ومسابقات ومهرجانات لحفظ كتاب الله ونحن نقدر هذه العناية ونرجو أن تتنامى مع الأيام.

وبخصوص المعارض فقد اتفقت مع سيادة الوزير على أن تتبادل إقامة هذه المعارض بين المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وبين المجالس العلمية في المغرب.

يمكن أن يقيم المجلس معرضـا هنـاك ثم يهـدي مؤلفات الأساتذة وأعمالهم العلمية لدولة المغرب الشقيق.

هذا التبادل في المعارض نتوقع أن يتجدد في كل عام، لأن هذا الذي سوف نعرضه في كلا البلدين يمثل أثمن ما يمكن أن يهديه المرء في حياته، إن النتاج العلمي نتاج لجهد ذهني وفكري يعبر عن خطوط رئيسية لثقافة وفكر وعلم المؤلف والمحقق، ومن هنا فإننا سوف نتبادل أثمن ما يمكن أن يتم فيه التبادل، وسنتهادى أيضا أثمن ما يمكن أن يتم فيه التهادي، لأن العلم فوق التقييم المادي، ومن هنا فإننا نستطيع القول بأننا نتعامل بمستوى هو من أحسن المستويات ومن أثمنها، وأن هذا التبادل العلمي لن يقتصر على المعرض الكتابي، وإنما سوف يتداح ليشمل أمرا هاما نؤمن به أشد الإيمان، وهو تبادل المدارك الفكرية. حين تتبادل الأساتذة المحاضرين أشوق ما تكون إلى هذا التبادل وأشوق ما يكون إلى أن يتأثر كلانا بما توصل إليه الآخر، من تطوير في الفكر أو من تطوير في الأداء أو من تنمية في العطاء فإننا نبتغي هدفا مشتركا هو أن تأخذ الدعوة الإسلامية قوتها وشبابيتها ليأخذ المجتمع الإسلامي قوته وشبابيته.

معنا اليوم صفوة علماء مصر وصفوة رجال الإعلام في مصر وفي صحافة مصر. وهم وإن اختلفت خطوطهم في صحفهم إلا أن هذه الخطوط تتفق في جوهر الغيرة على الإسلام، وفي جوهر الدعوة إلى الإسلام. لم يختلف صحفي عن أخيه في مجال الدعوة إلى الله وفي مجال الوفاء لهذه الدعوة أن تأخذ طريقها إلى الجماهير بكل الحماس وبكل الغيرة وبكل القوة وبكل الشبابية.

معنا في هذه القاعة صحفنا ومختلف اتجاهات مصر لكنها تلتقي على صعيد الإسلام.

وفي المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية يكاد الأمر يتسامى بنا روحيا لنخال أنفسنا جميعا في المملكة المغربية الشقيقة في هذه القاعة وقلوبنا هناك وإن تكن أجسادنا هنا.

عاشرا : تتكون لجنة من كل من المملكة المغربية وجمهورية مصر العربية يوكل إليها التخطيط والتنسيق والمتابعة لكل ما يسهم في تحقيق تلك التوصيات وإبرازها حية فعالة، وتشكلان لجنة مشتركة تجتمع دوريا وبالتناوب في البلدين.

أستطيع القول أن هذه التوصيات ما هي إلا رد لما يعتمل في نفوسنا جميعا من إيمان راسخ بكل عمل إيماني وديني في كلتا الدولتين الشقيقتين.

وأستطيع القول أن هذه الخطوة تبدأ جبارة وقوية لأنها لا تبدأ من فراغ وإنما تبدأ من صعيد وقاعدة العلاقات التاريخية المتينة التي تضرب بجذور بعيدة في التاريخ بين مصر والمغرب الشقيق.

وكم يسعدني أن أنهي إليكم جميعا سببا قويا من أسباب التفاؤل أن على رأس وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المغرب الشقيق رجلا ضليعا في العلم ذا تمكن في البحث والتخطيط وذا توكب في الفكر وفي الإيمان بأماني الأمة الإسلامية العريضة، فهو علامة في الحديث النبوي وعلومه إلى جوار أنه علامة في الثقافة الإسلامية بآفاقها التي تضرب بوصلة علمية وثيقة بكل ما لعلوم السنة وعلوم القرآن من قيمة ومن قوة، ومن هنا فنحن نتعامل مع العلم. مع الثقافة ومع علوم القرآن ومع علوم السنة متمثلة في إنسان يؤمن بأن هذه العلوم وأن هذه الثقافة ينبغي أن تشكل نمط حياة المسلمين في حاضرهم، كما شكلت هذا النمط في ماضيهم، وكما ينبغي أن يكون تشكيلها لنمط حياة المسلمين في حاضرهم أساسا لتشكيل هذا النمط في مستقبل وغد المسلمين الواعد.

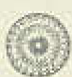
ويقيني أن هذا العمل سيكون خطوة بناءة في سبيل توحيد فكر الأمة وفي سبيل توحيد طاقات الأمة، وتوجهات المجتمع الإسلامي حين يراد لها أن تنجح وأن تنمو فإنه ينبغي أن تبدأ هذه التوجهات من الدين ومن الإيمان فإن الإيمان يصنع المعجزات، وأن وحدة عملاقة بين وزارتي الأوقاف في مصر والمغرب أعتقد أنها سوف تأخذ طريقها لتكون نموذجا يحتذى بين وزارات الأوقاف في صعيد العالم الإسلامي والعربي. ثم هي تمهد الطريق بالقيم الإيمانية الهادية والداعية إلى الوحدة، تمهد الطريق للوحدة الإسلامية والعربية التي نؤمن بها.



ديوان دعوة الحق

وفاء وولاء

باقات شعرية مهداة إلى رمز الأمة المغربية، وباني وحدتها الترابية، سليل الدوحة النبوية الشريفة وجوهرة عقد الدولة العلوية المجيدة صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني أدام الله عزه وعلاه.

1381		1405
1961		1985



ضريـــح بطـــل الجهـــاد جلالـــة المغفور له سيدي محمد الخامس
قـــدس الله روحـــه ، ونـــور ضريحـــه